مكتبة

اللورد دانساني

THE KING OF ELFLAND'S DAUGHTER

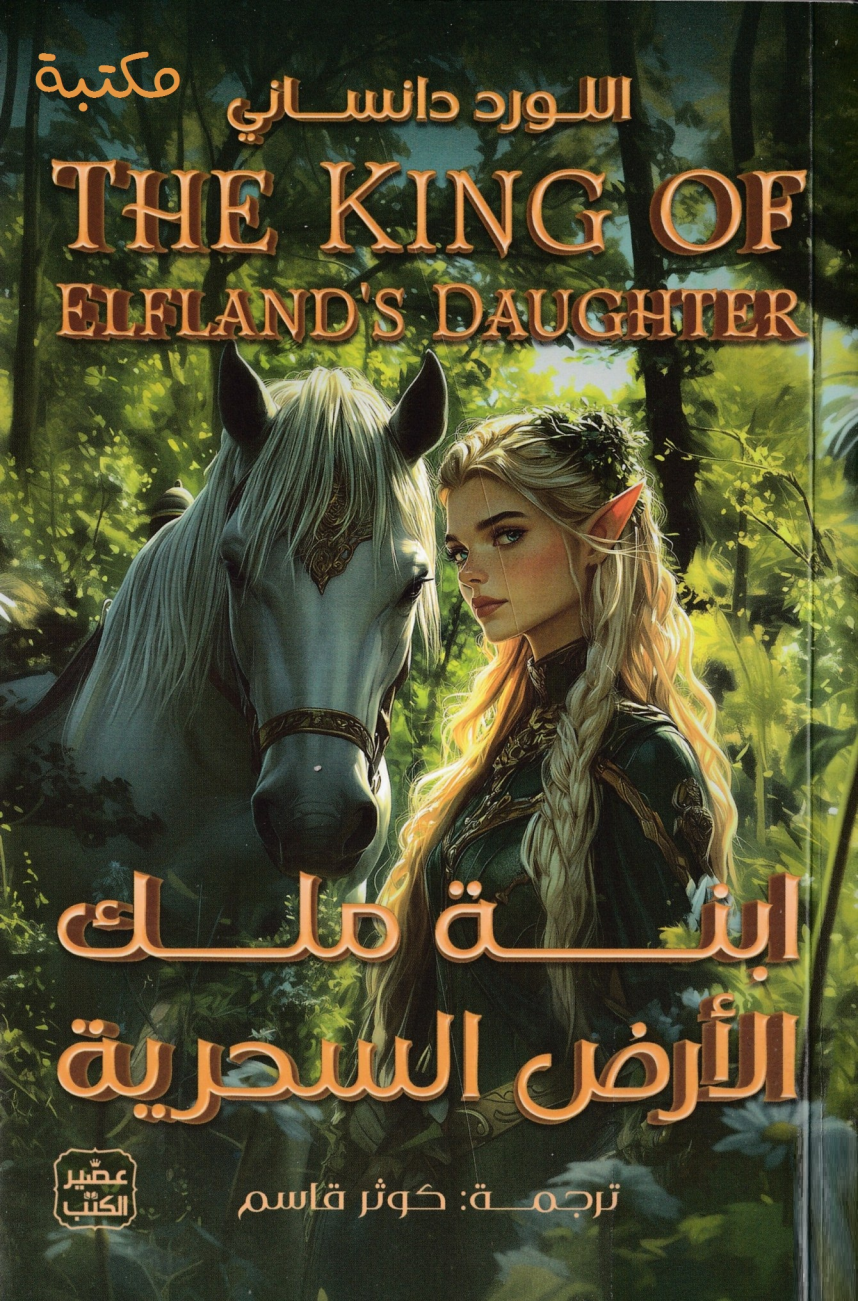

ابنة ملك الأرض السحرية

ترجمة: كوثر قاسم

عصير الكتب

ابنة ملك الأرض السحرية

لا توقف رحلة القراءة عند هذا

الكتاب سجل في مكتبة الآن

وانضم إلى أكبر موفر للجديد من الكتب

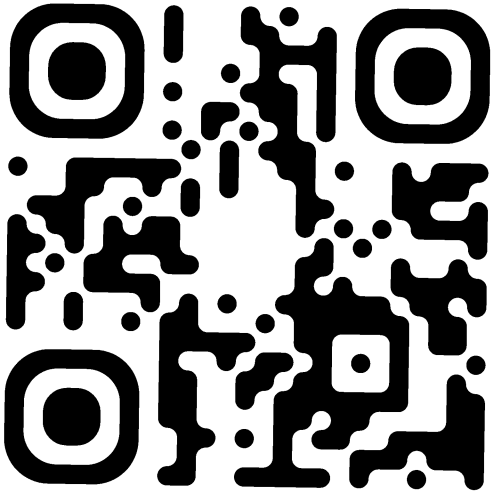

امسح الكود أو اضغط الصفحة اتبع الرابط

للنشر والتوزيع

إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان الأصلي: The King of Elfland's Daughter
- العنوان العربي: ابنة ملك الأرض السحرية
- الطبعة الأولى: يناير/2025م
- حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب
- تأليف: اللورد دانساني
- ترجمة: كوثر قاسم
- تدقيق لغوي: إسراء جمال
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- رقم الإيداع: 2024/33698م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-499-1

مكتبة
t.me/soramnqraa

اللورد دانساني

THE KING OF ELFLAND'S DAUGHTER

مكتبة
t.me/soramnqraa

ابنة ملك الأرض السحرية

ترجمة: كوثر قاسم

عصير الكتب

إلى الليدي دانساني

تصدير

آمل ألا يؤدي عنوان الكتاب، الذي يشير إلى وجود أرض غريبة، إلى أن يشعر القرَّاء بالرهبة فيتردَّدون في قراءته. فمع أن بعض فصول الكتاب تحكي بالفعل عن «الأرض السحرية»، فإن القسم الأكبر منه يدور في الحقول التي نعرفها، وفي غابة إنجليزية مألوفة، وقرية عادية في وادٍ عادي، على بعد عشرين أو خمسة وعشرين ميلًا من حدود «الأرض السحرية».

اللورد دانساني

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الأول

خطة برلمان مملكة «إيرل»[1]

وقف رجال برلمان مملكة إيرل يرتدون ستراتهم الجلديَّة الضاربة إلى الحُمرة التي يبلغ طولها رُكبهم أمام حاكمهم؛ المُسنَّ الأشيب المهيب، في قاعته الطويلة الحمراء التي يضيئها الغروب. جلس الحاكم على كرسيه ذي الزخارف المنقوشة يستمع إلى المتحدث باسمهم.

قال المتحدث: «طوال سبعمئة عام تولَّى أمرنا حكَّام من البشر، يصدح المُنشِدون الجوَّالة بآثارهم التي تُخلِّدها أغنياتهم الرنَّانة. لكن الأجيال تتوالى ولا جديد تحت الشمس».

قال الحاكم: «إذًا ماذا تطلبون؟».

- أن يكون حاكمنا من سلالة سحرية.

(1) مملكة «إيرل»: Kingdom of Erl = مملكة أساليب العيش التقليدية. م

أجاب الحاكم: «إذًا فليكن. لقد مرت خمسمئة عام منذ أن تقدَّم شعبي بواحد من مطالبه عبر البرلمان، الذي سيظلُّ مُمثِّلًا للشعب دائمًا. لقد قلتم كلمتكم. إذًا فلتكن».

ثم رفع يده، منحهم بركته، وغادروا. عادوا إلى ممارسة حرفهم القديمة: إلى تثبيت الحديد في حوافر الخيول ودباغة الجلود، إلى أداء المهام الزراعية الشاقَّة والعناية بالمحاصيل والزهور؛ كانوا يتَّبعون أساليب العيش القديمة والآن يبحثون عن الجديد. أمَّا الحاكم المُسِن فبعث برسالة إلى ابنه يطلب منه الحضور أمامه.

سرعان ما وقف الابنُ الشابُّ أمام والده الذي لم يفارق كرسيه المنقوش، حيث الضوء الآخذ في الزوال ينفذ عبر نوافذ القاعة العالية، وينير عينيه الحكيمتين اللتين تتطلعان إلى المستقبل البعيد بعد انقضاء عمره.

في جلسته هناك أمر ابنه قائلًا: «اخرج في رحلة قبل أن ينقضي ما تبقَّى من عمري، ولذا فلتُعجِّل بانطلاقتك. اتَّجه شرقًا، اقطع الحقول التي نعرفها حتى تصل إلى «الأرض السحرية». اعبر حاجزها المُشيَّد من الشَّفق، واذهب إلى القصر الذي نسمع به في الأغنيات فقط».

أجابه ابنه الشابُّ ألقيرك قائلًا: «تبعد هذه الأرض كثيرًا عنَّا».

- أجل، إنها بعيدة.
- وما يزيد مثل تلك الرحلة طولًا هو العودة منها، لأن سير الزمان هناك يختلف عن هنا.
- لا يهم.
- ما الذي تأمرني بفعله عند الوصول إلى ذلك القصر؟
- أن تتزوج بابنة ملك الأرض السحرية.

فكَّر الشابُّ في تلك الفتاة ذات الحُسن والرِّقة، التي يُكلِّل التاج الثلجيّ رأسها كما تصفها القصائد. كانت الأغنيات التي تحكي عنها تُسمَع فوق التلال البعيدة حيث تنمو الفراولة، عند الغروب وحتى تبزغ النجوم. وإن بحث المرءُ عمَّن يصدح بتلك الأغنيات فلن يجده. أحيانًا لم يتردَّد سوى اسمها في نغمات خافتة. إن اسمها ليرازِل.

كانت ليرازِل أميرة من سلالة سحرية. أرسل الآلهة ظلالهم لحضور مراسم تعميدها. وكانت الجنيَّات لتحضرها أيضًا لولا خشيتهن من رؤية ظلال الآلهة الداكنة الطويلة على الحقول النديَّة. لهذا اختبأن وسط شقائق النعمان الورديَّة، وهناك باركن ليرازِل.

قال الوالد الحاكم: «يريد شعبي حاكمًا من سلالة سحرية، وإن تلك الرغبة ضرب من الحماقة. وحدهم من يمارسون فنون السحر يعلمون عواقب مثل هذا الاختيار. لكننا، من نجهل الغيب، نتبع الأعراف الراسخة التي تُلزِمنا الاستجابةَ لرغبات شعبنا التي يعرضها برلمانه. وإن رجال البرلمان يرون الحكمة في خطتهم. إذًا انطلق صوب الضوء الذي ينبعث من الأرض السحرية، الذي يومض في ظلمة الشرق من غروب الشمس حتى بزوغ النجوم. سيقودك حتى تصل إلى حاجز الشَّفق بعدما تقطع الحقول التي نعرفها».

ثم فكَّ إبزيم حزام سيفه الضخم ومنحه ابنه قائلًا: «لقد أعان هذا السيف عائلتنا على الاستمرار حتى اليوم، ولا بُدَّ أنه سيحميك طوال رحلتك، في أرضنا وما وراء الحقول التي نعرفها».

أخذ ألڤيرك السيف وهو يدرك جيدًا أنَّ لا سيف عادي يمكن أن ينفعه في رحلة كتلك.

بالقرب من قلعة إيرل عاشت ساحرة وحيدة فوق تلٍّ عالٍ قريبٍ من السماء، حيث يُدوِّي الرعد على امتداد التلال صيفًا. هناك أقامت في كوخ صغير من القشِّ تجوب التلال وتجمع الشهب. من تلك الشهب التي لا تتضمن معادن أرضيَّة، وبمساعدة التعويذات الرونيَّة، كانت تصنع أسلحة تجابه الأخطار الخارقة للطبيعة.

وفي أيام محددة من الربيع، إذ تطوف الفراشات الصقرية من زهرة إلى أخرى، تتخذ هذه الساحرة العجوز هيئة فتاة يافعة جميلة، وتتجول وحدها وسط الزهور الطويلة في حديقتها وهي تغني. كان ألڤيرك ابن حاكم إيرل من بين القلَّة الذين رأوها. ورغم أن التقرب إليها بلاء، وأنها تُذهِل الرجال عن الصواب، فإن الجمال الذي تلبَّسته ولا تملكه اجتذب إليها عيني ألڤيرك العميقتين. وبدافع من تأثُّرها بالإطراء الذي تبدَّى في نظرات ذلك الشاب أو من الشفقة عليه (من قد يُجزِم بدوافع البشر؟) فقد جنَّبته فنونها التي كانت لتُهلِكه. وهناك في تلك الحديقة عادت إلى صورتها الأصلية ليرى أمامه ساحرة خَطِرة. رغم ذلك لم يجفل ألڤيرك ولم تفارقها عيناه. وفي تلك اللحظات -حيث لم يَجِد نظره عن حقيقتها الذابلة وسط زهور الخطمية النضرة- نال امتنانها، الذي لا يمكن شراؤه وتعجز تعاويذ البشر عن انتزاعه. وقد أومأت إليه فتبعها، وبينما يسيران فوق التلِّ الذي يتردَّد إليه الرعد أخبرته أنه عند الحاجة يمكن صنع سيف من معادن ليست أرضية، منقوش بتعاويذ رونيَّة، تدفع هجوم السيوف الأرضية وأسلحة الأرض السحرية، باستثناء المُحصَّن منها بثلاث تعويذات رونيَّة رئيسة.

عندما أمسك ألڤيرك سيف أبيه تذكَّر الساحرة. كانت الشمس تغرب عن الوادي حينما غادر قلعة إيرل، لكنه صعد تلَّ الساحرة سريعًا، لهذا كان ضوءٌ خافتٌ يومض على قمَّته عندما اقترب من الكوخ المنشود.

هناك وجدها تحرق العظام في العراء. أخبرها أن يوم حاجته إلى السيف قد أتى، فأمرته بجمع أحجار الشُّهب من حديقتها، من التربة الرطبة أسفل الملفوف الذي زرعته.

هناك، بعينين تشقُّ عليهما الرؤية إذ يخفت الضوء حولهما، وأصابع أَلِفت الملمس العجيب لأحجار الشُّهب، عثر ألڤيرك على سبعة عشر حجرًا فضائيًّا قبل أن يحلَّ الغسق. ثم لفَّها في محرمة حريرية، وأخذها إلى الساحرة، ووضعها على العشب بجوارها. إن تلك الأحجار غريبة عن الأرض. قَدِمت من فضاءات مُدهِشة إلى حديقة الساحرة البديعة، بعدما دفعتها العواصف عبر مسارات لا يمكن أن تطأها أقدامنا. ومع أن تلك الأحجار ليست سحرية فإنها مُكيَّفةٌ لكي تحمل السحر الذي قد تسبغه عليها التعويذات الرونيَّة. تركت الساحرة عظمة فخذ غير محددة، واتجهت إلى أحجار العاصفة الجوَّالة. رتَّبتها في صفٍّ بجوار النيران التي أشعلتها، نكزت الحطب المُتَّقد والجمرات المُلتهِبة بعصاها الأبنوسيَّة؛ ذلك الصولجان الخاص بالساحرات، حتى غطَّت الأحجار السبعة عشر؛ أولئك الأقرباء الذين أتوا لزيارة الأرض من موطنهم الأثيري. ثم أخذت الساحرة خطوةً إلى الوراء وبسطت ذراعيها. فجأةً ألقت تعويذة رونيَّة مخيفة فارتفعت ألسنة النيران دَهِشة. وفي تلك الليلة العادية أصبحت بقعة النيران النائية، التي لا يكتنفها أي غموض، تضطرم على نحو يخشاه من يشهده. بينما النيران ذات اللهب الأخضر التي لسعتها التعويذات الرونيَّة تتأجَّج وتشتدُّ حرارتها، ابتعدت الساحرة إلى الوراء أكثر وأكثر يعلو صوتها بتعويذاتها. ثم أمرت ألڤيرك بالتقاط الحطب؛ حطب بلُّوط داكن مُكدَّس هناك يُثقِل قمَّة التلِّ، عندما ألقى به إلى النيران التهمته في الحال. واصلت الساحرة النطق بالتعويذات الرونيَّة، وتراقصت ألسنة اللهب خضراء ثائرة. وسط الجمرات كانت

الأحجار السبعة عشر، التي تقاطع طريقها مع الأرض ذات مرة في أثناء تجوالها الحرِّ، تختبر الحرارة الهائلة التي عرفتها قبلًا في تلك الرحلة البائسة التي قادتها إلينا. وعندما استحال على ألڤيرك الاقتراب من النيران المُحتدمة، والساحرة بعيدة عنها بضعة أمتار يتردد صوتها في الهواء، أفنى اللهب السحري كل ما احتواه، حتى الرماد. ثم انطفأ ذلك النذير الذي اشتعل فوق التل فجأةً، تاركًا على الأرض دائرة ساطعة، تشبه البقعة المشؤومة التي تتوهج عند اشتعال الثرمايت؛ وبداخلها كان سيف برَّاق مائع.

اقتربت الساحرة من السيف وشذَّبت نصله بسيف آخر مُعلَّق إلى خاصرتها. ثم جلست أرضًا بجواره، وفي انتظار أن يبرد أخذت تغني له. لم تُشبِه الأغنيةُ التي ترنَّمت بها التعاويذَ التي أهاجت النيران. الآن أخذت الساحرة -التي سحرت النيران حتى ابتلعت حطب البلُّوط الضخم- تدندن لحنًا يشبه نسيمًا صيفيًّا يهبُّ من غابة لا يُعنى بها إنسان، يعبر أودية أَنِس بها الأطفال ذات يوم، لكنهم الآن لا يعرفون سبيلًا إليها سوى الأحلام. صدحت بأغنية عن ذكريات تتوارى على امتداد حافَّة النسيان، حينًا تومض في أذهاننا ذكرى عزيزةٌ منها عشناها في سنوات سعيدة، ثم تغادر وعينا سريعًا لتعود إلى ظلال النسيان. فتترك في أذهاننا صورة غامضة لآثار أقدام صغيرة متلألئة، عندما ندركها إدراكًا ضحلًا ينتابنا الحنين. غنَّت الساحرة عن نهارات صيفية بعيدة، حيث تتفتحُ زهور الجريس. على قمة التلِّ المظلمة ترنَّمت بأغنية بدا وكأنها تمتلئ بصباحات ومساءات نديَّة في أيام فائتة حفظتها قدرتها السحرية. فتأمَّل ألڤيرك الكائنات الجوَّالة ذات الأجنحة التي اجتذبتها النيران من الظلام، يتساءل إن كانت هذه اللحظات التي يعيشها الآن شبحَ يومٍ طواه النسيان لكن أغنياتها ذات الأثر القوي استدعته من زمن أكثر إشراقًا.

وبينما تُغنِّي تصلَّب المعدن الأثيري. جمد السائل الأبيض واستحال لونه أحمر. وبينما يبرد أخذ وهجه يخفت وتقلَّص عَرضه، إذ التحمت جزيئاته وانسدت شقوقه. وبينما يكتمل، أمسك بالهواء حوله وما يحمل من تعويذات رونيَّة. قبض عليه وضمَّنه بداخله إلى الأبد. هكذا أصبح السيف سحريًّا. ولم يفلت من قبضته سحر الغابات الإنجليزية على مدار العام، منذ تفتُّحِ زهور شقائق النعمان إلى تساقط أوراق الأشجار؛ لم يخلُ من سحر المراعي الجنوبية حيث ترعى الخرفان بصحبة الرُّعاة. عَبقَ السيف برائحة الزعتر. أوحى مظهره بزهور الليلك وتغريد الطيور عند الفجر في أبريل، وببهاء الورود ورشاقة الأنهار وخريرها، وبأميال وأميال من زهور الزعرور. وعندما أصبح السيف أسود اللون اكتمل سحره.

لا يمكن لأحد أن يصف هذا السيف حقَّ وصفه، لأن من يدرسون الفضاء حيث طافت أحجاره حتى اقتحمت مدار الأرض، لا يملكون وقتًا يهدرونه على السحر. لهذا لا يستطيعون إخبارك كيف صُنِع السيف. ومن يعرفون الشِّعر وحاجة الإنسان إلى الأغنيات، أو على دراية بأي فرع من فروع السحر الخمسين، لا يملكون وقتًا يهدرونه على العلم. لهذا لا يستطيعون إخبارك بمكونات السيف. يكفي القول إن أحجاره كانت خارج أرضنا ذات يوم، والآن أصبحت وسط أحجارنا الدنيوية. وإنها كانت أحجارًا عادية والآن تتضمن شيئًا جميلًا مُحيِّرًا كالموسيقى. ليكن هذا وصفه.

أمسكت الساحرة بمقبض السيف الأسود، الذي كان سميكًا ويستدير عند واحد من جانبيه. لقد شقَّت التربة أسفل طرف السيف ليبدو المقبض بهذا الشكل. وأخذت تشحذ جانبي السيف بحجر أخضر عجيب وهي تترنم بكلام غريب.

شاهدها ألڤيرك صامتًا دَهِشًا دون دراية بالوقت؛ ربما مرَّت لحظات، ربما طال عملها حتى ابتعدت النجوم في مساراتها، ثم أتمَّت مهمتها فجأة. وقفت تحمل السيف راقدًا على راحتي يديها. قدَّمته إلى ألڤيرك بفظاظة فأخذه، ثم ابتعدت وفي عينيها تبدو الرغبة في الاحتفاظ بالسيف أو احتجاز ألڤيرك نفسه. استدار ألڤيرك ليعرب لها عن شكره لكنها قد غادرت. دقَّ باب كوخها القاتم يهتفُ بها حتى أفزع هتافه الأطفال في المزارع البعيدة، ثم عاد إلى قلعته بلا جواب منها. وكان هذا في مصلحته.

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الثاني

يرى ألڤيرك جبال الأرض السحرية

نفذت أشعة الشمس المشرقة إلى الغرفة الطويلة قليلة الأثاث، أعلى البرج الطويل، حيث نام ألڤيرك. حالما نهض تذكَّر السيف السحري فتلوَّن صباحه بالبهجة؛ من الطبيعي أن يبتهج المرء عند تذكُّر هدية نالها حديثًا. لكنه شعر ببهجة خاصَّة يعده بها السيف نفسه، الذي استطاع التواصل بسهولة مع ألڤيرك العائد من أرض الأحلام، التي هي منشأ السيف. إن جميع من امتلكوا سيفًا سحريًّا شعروا بتلك البهجة الخاصَّة عند امتلاكه.

لم يُضِع ألڤيرك وقتًا في الوداعات. قرَّر الشروع في تنفيذ أمر والده على الفور، وتجنُّب البقاء لتفسير حصوله على سيف سحري يراه أفضل من سيف والده العزيز. لهذا لم يتناول إفطاره، بل وضع الطعام في حقيبة، وعلَّق على كتفه حمَّالة بها قِربة لم يملأها بالماء، لأنه يعلم جيدًا أن الجداول تنبسط في طريقه. تقلَّد سيف والده على الطريقة المعتادة،

وعلَّق السيف السحري على ظهره، ثم غادر القلعة ورحل عن وادي إيرل. لم يأخذ معه من المال سوى القليل؛ حفنة من العملات النحاسية المُتداوَلة في أرضنا، لأنه لا يعلم أيَّ عملات نقدية أو وسائل للمقايضة تُستخدم في الجهة المقابلة من حاجز الشَّفق.

إن وادي إيرل ليس بالبعيد عن الحدود التي لا يوجد وراءها أرض نعرفها. صعد ألڤيرك التلَّ، وقطع الحقول بخطوات واسعة، واجتاز غابة البندق. بينما يقطع الحقول علَته السماء الزرقاء الصافية وشمسها المشرقة، وعندما وصل إلى الغابة كانت زهور الجريس الزرقاء زاهية حول قدميه، إذ حان وقت ازدهارها. تناول طعامه، وملأ قِربته، وارتحل شرقًا طوال اليوم. وفي المساء لاحت جبال الأرض السحرية في الأفق، يشبه لونها زهور لاتنسني الباهتة.

بينما الشمس تغرب وراء ألڤيرك تطلَّع إلى تلك الجبال الزرقاء الفاتحة ليرى بأي لون ستُخضب قممها مساءً. لكن تلك القمم لم تكتسب مسحة من غروب الشمس التي لوَّنت الحقول التي نعرفها؛ لم تختفِ تجعيدة على منحدراتها، ولم يتعمَّق واحد من ظلالها. عندئذٍ أدرك ألڤيرك أن لا تأثير لما يحدث في أرضنا على الأرض السحرية.

نقل نظره من تلك الجبال ذات الجمال الهادئ إلى الحقول التي نعرفها. هناك رأى الأكواخ التي يسكنها المزارعون، تعلو سقوفُها سياجات نباتية جمَّلها الربيع وصبغها الغروب. سار ألڤيرك مارًّا بها يصحبه تغريد الطيور وعطور الزهور، إذ يتزيَّن الليل تأهبًا لاستقبال نجم المساء، لكن قبل ظهور ذلك النجم عثر المُغامِر الشابُّ على الكوخ الذي يبحث عنه. لقد رأى رقعةً جلديَّة بُنِّية ترفرف فوق بابه، نُقِشت بحروف ذهبية تشير إلى أن المقيم أسفله يعمل في الدباغة.

بعدما دقَّ ألڤيرك باب الكوخ وخرج رجل عجوز. كان ضئيلًا أحنى العمر ظهره، وقد بالغ في انحنائه عندما عرَّفه ألڤيرك بنفسه. سأله الشابُّ صنع غمدٍ لسيفِه، لكنه لم يخبره أي نوع من السيوف يملك. ثم دخلا الكوخ، حيث جلست الزوجة العجوز بجوار المدفأة. بعدما حيَّا الزوجان ضيفهما جلس الرجل إلى طاولته السميكة ذات السطح الأملس اللامع، المُنقَّرة في بعض المواضع بأدواتٍ ثقبت الجلود طوال حياة الدبَّاغ العجوز وفي زمن أسلافه، ووضع السيف في حِجره. تفاجأ بخشونة مقبض السيف وعارِضته المصنوعين من معدنٍ خام غير مصقول، وأدهشه عرض السيف الكبير. على أنه ضيَّق جفنيه إذ بدأ التفكير في عمله، وبعد برهة توصَّل إلى ما يجب عليه فعله. أحضرت زوجته الجلد الفاخر، وعليه حدَّد قطعتين باتساع السيف.

تفادى ألڤيرك، بطريقة ما، إجابة جميع الأسئلة التي طرحها العجوز بشأن ذلك السيف العريض اللامع. كان دافعه الرغبة في ألا يُربِك مُضيفه بحقيقة السيف المذهلة، بخاصة بعدما أربك الزوجين بسؤاله المبيت عندهما تلك الليلة. وقد جهَّز الزوجان من أجله غرفةً قدَّماها مُعتذِرين وكأنهما من سألا ضيفهما معروفًا. وأعدَّا عشاءً شهيًّا طهته الزوجة في مرجل كبير، حيث تغلي كل ما يصطاد زوجها. وأصرَّا، رغم اعتراض ألڤيرك، على منحه سريرهما الخاص وتكديس الجلود ليرقدا فوقها بجوار المدفأة.

بعد العشاء قصَّ العجوز القطعتين الجلديَّتين بحيث تنتهي كل منهما نهاية مُدبَّبة. وبدأ خياطة جانبي كل منهما إلى الآخر. سأله ألڤيرك عن المنطقة، فتحدث الرجل عن الشمال والجنوب والغرب، حتى الشمال الشرقي. لكنه لم ينطق بكلمة عن الشرق أو الجنوب الشرقي. ورغم أنه وزوجته يقطنان بالقرب من أطراف الحقول التي نعرفها، فإنهما

لم يشيرا في حديثهما إلى ما يقع وراءها. لقد ظنَّا، فيما بدا، أن العالم ينتهي عند البقعة التي سيعبرها ألڤيرك غدًا.

فيما بعد، وألڤيرك راقد في السرير، تأمَّل ما قاله العجوز وتفاجأ بجهله بتلك الأرض السحرية، ثم تساءل إن كان الزوجان قد تعمَّدا تجنب الحديث عمَّا يقع شرقَي كوخهما أو إلى الجنوب الشرقي منه. تساءل إن كان العجوز قد حاول الذهاب إلى تلك الأرض في شبابه، لكنه عجز عن تصوُّر ما عساه قد رأى هناك إن كان قد ذهب إليها حقًّا. ثم غلبه النعاس، ومنحته الأحلام رؤى عن تجوال العجوز في الأرض السحرية، لكنها تظلُّ تخمينات لم يشهد منها سوى قمم الجبال الزرقاء الفاتحة في الأرض السحرية.

بعد نوم طويل أيقظه العجوز. عندما ذهب إلى غرفة الجلوس كانت النيران الساطعة تتَّقد وإفطاره جاهزًا. رأى الغمد، واتضح أنه يناسب السيف تمامًا. قام الزوجان على خدمته في هدوء وتقاضيا ثمن الغمد، لكنهما رفضا أيَّ مقابل لاستضافته. شاهداه في صمت ينهض استعدادًا للمغادرة وتبعاه إلى باب الكوخ. في الخارج تبعاه بنظرهما يأملان أن يتجه شمالًا أو غربًا، لكنه عندما سار في اتجاه جبال الأرض السحرية توقفا عن مشاهدته، لأن وجهيهما لا يتجهان إلى تلك الناحية أبدًا. وعلى الرغم من أنهما لا ينظران إليه فإنه لوَّح لهما يودِّعهما، لأنه يُبصِر أولئك البسطاء وأكواخهم وحقولهم بقدر ما يتعامى الزوجان عن الأرض السحرية. سار في نور الصباح وسط مناظر يألفها منذ الطفولة. رأى زهور الأوركيد الحمراء تتفتح مبكرًا، وتُذكِّر زهور الجريس أن الربيع ينتهي. كانت أوراق أشجار البلُّوط صفراء ذات مسحة بُنيَّة. التمعت أوراق أشجار الزَّان مثل النحاس وعلى أغصانها غرَّد الوقواق. بدت شجرة بتولا وكأنها مخلوق من مخلوقات الغابة يتسربل بقماش أخضر،

وازدانت بعض الشجيرات ببراعم الزعرور. ودَّع ألڤيرك هذه الموجودات في قرارة نفسه، وواصل الوقواق تغريده، لكنه لم يخصَّه به. وعندما شقَّ طريقه عبر سياجٍ نباتي ليدخل حقلًا مُهمَلًا رأى في الأمام، كما أخبره والده، حاجز الشَّفق. انبسط أمامه أزرق وكثيفًا مثل الماء، عند النظر من خلاله تبدو الأشياء مُنبعِجة لكنها لامعة.

التفت يلقي نظرة أخيرة على الحقول التي نعرفها. استمر الوقواق في غنائه لا يعبأ به، وغرَّد عصفور صغير حول شؤونه الخاصة. بدا أن لا شيء ينتبه إليه، ولم يُجِب أحد وداعه. ثم خطا ألڤيرك خطوات واسعة شجاعة نحو كتل الشَّفق.

كان رجلٌ في حقل ليس بالبعيد يهتف بخيوله، وبعضٌ من الأهالي في طريق مُجاوِر يتحدثون، لكن حالما مرَّ ألڤيرك عبر حاجز الشَّفق هدأت تلك الأصوات على الفور؛ أصبحت همهمة خافتة تأتي من مكان بعيد. وقد اجتاز الحاجز في بضع خطوات، ثم لم يبلغ سمعه همسة من الحقول التي نعرفها. فجأةً اختفت الأرض التي جاء منها. لم يبدُ أثر لسياجاتها النباتية الخضراء الزاهية. نظر ألڤيرك إلى الوراء فرأى الحاجز ضبابيًّا غائمًا. تطلَّع حوله فلم يجد المكان الذي يألفه. لقد غاب بهاءُ مايو وحلَّت محله بدائع الأرض السحرية.

انتصبت الجبال الزرقاء الفاتحة مهيبةً تتلألأ في ضوء ذهبي، بدا كأنه يلفُّ قممها ويتدفَّق إلى منحدراتها في موجات ذهبية. أسفل تلك الجبال، في الأفق البعيد، رأى ألڤيرك القمم الفضيَّة المُستدَقَّة لأبراج القصر الذي نسمع به في الأغنيات فقط. لقد دخل سهلًا حيث الزهور عجيبة والأشجار ضخمة مخيفة، لكن بصره تعلَّق بالأبراج الفضيَّة.

إنني أجد صعوبة في وصف الأرض التي وصل إليها ألڤيرك للقرَّاء الذين يرون الصواب في إبقاء الخيال داخل حدود الأرض التي نعرفها.

يصعب أن أجعلهم يرون بعين الخيال ذلك السهل ذا الأشجار المُتفرِّقة، والغابة البعيدة التي يشرف عليها قصر الأرض السحرية ذو الأبراج البرَّاقة، ومن ورائه سلسلة الجبال التي ترسم منظرًا يبعث على الهدوء، ولا تتلون قممها بألوان الضوء المرئي، لكننا نملك الخيال للتحليق بعيدًا. وإن تعذَّر على القارئ تصوُّر الأرض السحرية لقصورٍ منِّي، كان حريًّا بخيالي أن يلزم الأرض التي نعرفها. مع ذلك اعلموا أن الألوان في الأرض السحرية أكثر نقاءً منها في أرضنا، وأن الهواء هناك ذو صفاءٍ تامٍّ، بحيث ترى ذلك العالم وكأنك تنظر إلى انعكاسه على صفحة المياه. وإن اللون الذي يغلب على الأرض السحرية يمكن وصفه، رغم صعوبته، لأننا نرى لمحات منه في أرضنا: إنه ذلك الأزرق الداكن في ليلة صيفية بعد الغروب مباشرة؛ ذلك الضوء الأزرق الذي يغمر به نجم المساء الليل، تلك الزرقة في أعماق البحيرات في ضوء الشفق. ومثلما تميل زهور دوَّار الشمس تجاه الشمس فلا بُدَّ أن الورود قديمًا مالت تجاه الأرض السحرية، واحتفظت ببعضٍ من بهائها حتى الآن. ولا شكَّ أن رسَّامينا قد أبصروا تلك الأرض في نظرات خاطفة، لهذا أحيانًا ما نرى في بعض اللوحات رونقًا يفوق حدود واقعنا. هذا الرونق نتاج ذكرى تسلَّلت من تلك الجبال الزرقاء الفاتحة إلى فراشيِّهم، وهم جالسون أمام لوحاتهم يرسمون الأرض التي نعرفها.

سار ألڤيرك وسط الهواء الرائق في تلك الأرض التي نراها في لمحات تُلهِمنا، وسرعان ما شعر بوحدته تتضاءل. إن في أرضنا حائلٌ يفصل بين البشر وباقي المخلوقات، لهذا إن ابتعدنا عن أبناء جنسنا يومًا واحدًا نشعر بالوحدة. لكن ألڤيرك لحظ أن ذلك الحائل قد زال حالما اجتاز حاجز الشَّفق. مشت الغربان في السهل تحدِّق إليه. هناك تأمَّلته جميع الكائنات الصغيرة باهتمام، تتطلَّع إلى القادمِ من الناحية التي قلَّما

يدخل منها أحد؛ الذاهبِ في رحلة قلَّما يعود منها أحد، لأن ملك الأرض السحرية يحرس ابنته جيدًا. هذه حقيقة يعلمها ألڤيرك، لكنه يجهل تفاصيلها. لقد تبدَّى الفضول في تلك الأعين الصغيرة، ورمقته بنظرات قد تعني تحذيرًا.

في تلك الأرض السحرية كان الغموض أقلَّ منه في ناحيتنا من حاجز الشَّفق: لم يختبئ أي كائن خلف جذوع الأشجار الضخمة، على النقيض ممَّا يحدث في بعض الأوقات والمواسم في الحقول التي نعرفها؛ لم يُخفِ الجانبُ البعيد من السلسلة الجبليَّة العجائب؛ لم تسكن الأرواح الغابة الكثيفة. ظَهَرَ كلُّ ما من شأنه أن ينزع إلى الاختباء للعيان. كانت العجائب على مرأى من القادم الجديد، وعاش ما قد يسكن الغابة في الهواء الطلق.

في تلك الأرض تجذَّر السحر عميقًا، بحيث لم يُصِب كلٌّ من البشر والحيوانات في تخمين أفكار الآخر فقط، بل وبدا أن ثمة تفاهمًا بين البشر والأشجار. بين الفينة والأخرى مرَّ ألڤيرك بأشجار صنوبر ذات جذوعٍ حمراء تتوهَّج بضوء أحمر أضفاه عليها السحر بعد استحضاره من غروب بعيد، كانت أغصانها متباعدة، وبدت كأنها تميل قليلًا كي تنظر إليه. بدا وكأنها لم تكن أشجارًا قبل أن يصيبها السحر. بدا وكأنها تودُّ أن تُخبِر ألڤيرك شيئًا.

لكن ألڤيرك لم ينتبه إلى تحذير أيٍّ من الحيوانات أو الأشجار، واتجه إلى الغابة المسحورة.

***

الفصل الثالث

يواجه السيف السحري بعض سيوف الأرض السحرية

عندما وصل ألڤيرك إلى الغابة المسحورة لم يكن الضوء الذي ينير الأرض السحرية قد اشتدَّ أو خفت. لقد لحظ أن ذلك الضوء لا يصدر عن الأجسام التي تنير أرضنا، ما لم يكن اضطراب سحري قد أدَّى إلى انحراف أضواء الشُّهب الجوَّالة التي تمرُّ بأرضنا في تلك اللحظات السعيدة، والتي تختفي حالما تظهر نحو الأرض السحرية. لكن تلك الأرض السحرية لم يُضئها شمس أو قمر.

على حافة الغابة قام صفٌّ من أشجار الصنوبر مثل الحرَّاس، يتسلق اللبلاب جذوعها عاليًا حتى أغصانها ذات الأوراق الداكنة. تألَّقت أبراج القصر الفضية وكأنها ما يبثُّ الضوء اللازوردي الذي يغمر الأرض السحرية. وبعدما قطع ألڤيرك مسافة كبيرة بداخل تلك الأرض الغريبة التي تحرس عجائبها جيدًا، واقترب من قصرها الرئيس، استلَّ سيف

والده قبل أن يدخل الغابة. وظلَّ سيفه الآخر في غمده الجديد على كتفه اليسرى.

لكنه حالما مرَّ بواحدة من أشجار الصنوبر الحارسة أرسل اللبلاب محاليقه إلى الأسفل. أطبقت المحاليق على حلق ألڤيرك، لكن سيف والده الطويل الدقيق أسعفه. لو لم يستلَّه قبلًا لما استطاع إخراجه من غمده لأن هجوم اللبلاب كان مُباغِتًا سريعًا. قطع ألڤيرك واحدًا تلو الآخر من تلك المحاليق التي تشبَّثت بساقيه مثلما يتشبَّث اللبلاب بالأبراج العتيقة، وتوالى هجومها لكنه قطع غصنها الرئيس. على أنه سرعان ما سمع هسهسة خلفه. لقد هبط غصن رئيس آخر يُسرِع نحوه وأوراقه متباعدة. بدا الكائن الأخضر في هجومه جامحًا غاضبًا، وقبض على كتفه اليسرى كأنه أوقعه في أسرٍ أبديٍّ، لكن ألڤيرك عالجه بضربة من سيفه قزَّمته، فعجز عن الوصول إليه وأخذ يضرب الأرض بأغصانه الثانوية ساخطًا. واصل ألڤيرك قتال البقية حتى زالت دهشته من الهجوم. حرَّر نفسه من المحاليق التي تمسَّكت به. وارتدَّ إلى الخلف كي يقاتل اللبلاب بسيفه الطويل وهو على مسافة آمنة منه. ابتعد اللبلاب زاحفًا كي يستدرج ألڤيرك إليه، وعندما تَبِعه انقضَّ عليه، لكن حدَّة السيف فاقت شدَّة قبضة اللبلاب. وسرعان ما هاجمه ألڤيرك الذي تملأ الكدمات جسده يجتزُّ أغصانه، ففرَّ عاليًا إلى شجرِه.

أخذ ألڤيرك خطوة إلى الوراء، وتطلَّع إلى الغابة في ضوء تجربته الجديدة يحاول اختيار طريقٍ كي يجتازها. لقد لحظ أن اللبلاب الذي يكسو شجرتي الحاجز أمامه أصبح قصيرًا، ما يُمكِّنه من المرور بينهما دون أن تصل إليه المحاليق. حالما خطا إلى الأمام رأى إحدى الشجرتين تقترب إلى الأخرى. عندئذٍ أدرك أن وقت استخدام السيف السحري قد حان. أعاد سيف والده إلى غمده المُعلَّق على خاصرته، واستلَّ السيف

المُعلَّق على كتفه. اتَّجه مباشرةً إلى الشجرة التي تحركت وهاجم اللبلاب الذي قفز نحوه. سقط اللبلاب أرضًا لكنه لم يمت، بل أصبح كومةً عاديةً من نبات عادي. وجَّه بسيفه ضربة إلى جذع الشجرة فاقتطع منه رقاقة تماثل ما قد يقتطعه أي سيف عادي، لكن الشجرة ارتجفت. ومع ارتجافها اختفى مظهرها المُتوعِّد، وهناك انتصبت شجرةً عاديةً غير مسحورة، ثم دخل ألقيرك الغابة والسيف في يده.

بعدما سار بضع خطوات سمع خلفه هفيفًا وكأن نسيمًا يثير قمم الأشجار، رغم أن الرياح لم تهبَّ في الغابة. تطلع حوله فرأى أشجار الصنوبر تتبعه. كانت تلحقه ببطء بعيدًا عن اتجاه السيف. تقترب إليه من اليسار واليمين. ترسم حوله هلالًا يُحاصِره، يزداد سُمكًا بازدحام الأشجار التي ستسحقه حتى الموت. أدرك ألقيرك أن العودة إلى الوراء قاتلة، فقرَّر المُضِي قدمًا اعتمادًا على سرعته. لقد لحظ أن البطء سمة السحر الذي تخضع له الغابة، وكأن من يتحكم بها عجوز أو سئم السحر أو تشغله أمور أخرى. لهذا انطلق مباشرة ضاربًا كل شجرة في طريقه، مسحورة كانت أم لا، بسيفه السحري الذي تخلَّلت معدنه في الجهة التي تشرق عليها الشمس تعويذات رونيَّة تفوق سحر الغابة قوةً. مرَّ ألقيرك حثيثًا بأشجار البلُّوط الضخمة ذات الجذوع المُتوعِّدة، وضربها بسيفه ضربًا خفيفًا فارتخت وفقدت سحرها. وسرعان ما ترك وراءه في تلك الغابة المُربِكة العجيبة أشجارًا عادية تخلو من أي غموض.

فجأةً خرج ألقيرك من قتامة الغابة إلى بهاء الزمرد في المروج التي يزدان بها قصر ملك الأرض السحرية. أقول مجددًا إننا قد نرى لمحات منها في أرضنا. لنتخيَّل مروجنا في تلك اللحظة، حيث ينقضي الليل وتغيب النجوم عن الأنظار وتعكس قطرات الندى نور الفجر؛ حيث يتجلَّى حُسن الزهور وألوانها البهيجة بعد الظلام، حيث لا تطأها

سوى أقدام الكائنات الصغيرة غير البشرية، وتعزلها عن العالم ورياحه أشجارٌ ما تزال أوراقها داكنة. لنتصوَّر تلك الأشجار إذ توشك الطيور أن تبدأ تغريدها. هناك، في بعض الأحيان، تتبدَّى مسحة من ضوء المروج في الأرض السحرية، لكن تلك اللحظة تمرُّ سريعًا فلا نتأكد حقًّا أننا شهدناها. إن الضوء الذي تعكسه قطرات الندى وتتألق فيه مروج الأرض السحرية أكثر إدهاشًا من أعجب تصوُّراتنا، وأكثر جمالًا مما قد نأمل. يوجد في عالمنا شيء آخر يعطي لمحةً عن المروج في الأرض السحرية. إنه تلك الأعشاب البحرية، تلك الطحالب البحرية، التي تكسو صخور البحر المتوسط، ويراها الناظرون من الجروف الشاهقة زاهيةً وسط المياه الزرقاء الضاربة إلى الخُضرة. بدت تلك المروج وكأنها قيعان بحار، لأن الهواء في الأرض السحرية حادُّ الزُّرقة.

وقف ألڤيرك يتأمَّل جمال تلك المروج التي تتألَّق وسط الضوء الأزرق والندى وتحيط بها الزهور البنفسجية والحمراء، فتبدو الشمس في أرضنا شاحبةً وأزهارنا ذابلةً مقارنةً بها. وراءه كانت الغابة ساكنة مظلمة، وأمامه تلألأ القصر الذي نسمع به في الأغنيات فقط، ذو البوابات اللامعة والنوافذ الأشدَّ زرقة من سمائنا في الليالي الصيفية وكأنها شُيِّدت من غبار النجوم.

بينما ألڤيرك واقف على حافة الغابة والسيف في يده، يُحدِّق دَهِشًا إلى أبهى معلم من معالم تلك الأرض الغريبة، خرجت ابنة ملك الأرض السحرية من إحدى بوابات القصر، واتجهت إلى المروج تسير باهرة الجمال دون أن ترى ألڤيرك. لامست قدماها الندى والهواء الكثيف، وضغطت برفق العشب الزمرديَّ الذي انحنى أسفل قدميها ثم اعتدل، مثل زهور الجريس عندما تهبط فوقها الفراشات ثم تتركها لتطوف رائقة البال على امتداد تلال الطباشير.

بينما تسير أمام ألڤيرك جمد في مكانه مبهور الأنفاس. كان ليعجز عن الحركة لو واصلت أشجار الصنوبر اللحاق به، لكنها لبثت في الغابة لا تجرؤ على دخول المروج.

كانت الأميرة تضع على رأسها تاجًا بدا وكأنه مصنوع من الياقوت الشاحب. لقد أشرق نورها على تلك المروج وكأنها فجرٌ طلع بعد ليلٍ طويلٍ على كوكب أقرب إلى الشمس من كوكبنا. وعندما مرَّت بالقرب من ألڤيرك التفتت فجأةً واتسعت عيناها قليلًا دَهِشةً، فهي لم ترَ إنسانًا من أرضنا قط.

نظر ألڤيرك إلى عينيها معقود اللسان مدهوشًا؛ كانت حقًّا الأميرة ليرازِل ذات الحُسن والبهاء. عندئذٍ انتبه إلى أن تاجها ليس من الياقوت، بل الثلج.

سألته: «من أنت؟».

كان صوتها رقيقًا تسمع فيه موسيقى تشبه، في أرضنا، آلاف النُّدف الثلجية التي تؤرجحها رياح ربيعيَّة فوق البحيرات في البلدان الشماليَّة.

فأجابها: «لقد جئت من الأرض الشهيرة المرسومة في خريطة».

تنهدت الأميرة لهفةً إلى تلك الأرض. لقد سمعت أن الحياة هناك جميلة، ودائمًا ما يوجد أطفال صغار. فكَّرت في تبدُّل المواسم ومرح الأطفال، ومراحل العمر التي يتغنَّى بها المُنشِدون الجوالة في الأرض السحرية عن أرضنا.

عندما رأى ألڤيرك لهفتها إلى الأرض أخبرها عن المنطقة التي جاء منها. أخذت تسأله عنها حتى حدَّثها عن القلعة ووادي إيرل. دُهِشت عند سماعها حديثه وطرحت عليه مزيدًا من الأسئلة، فأخبرها بكل ما يعرفه عن الأرض. عند سرده قصة الأرض لم يُعوِّل على ما خبره من العيش فيها خلال سنوات عمره القليلة، بل سرد للأميرة الحكايات والأساطير

عن البشر والحيوانات التي توارثها أهالي إيرل على مرِّ العصور، والتي يرويها الكبار بجوار المدفأة مساءً عندما يسألهم الأطفال عما حدث منذ زمنٍ بعيد. هكذا وقف الاثنان على حافة تلك المروج البديعة التي تحدُّها زهور لم نرَ مثلها قط، وراءهما الغابة المسحورة وأمامهما قصر لامع نسمع به في الأغنيات، يتحدثان عن مهارات أسلافنا من الرجال والنساء. يتناقشان عن حصاد الثمار وتفتُّح الورود والزعرور، عن مواقيت زراعة الحدائق وقدرات الحيوانات البريَّة، عن طرق شفاء الجروح وبذر الحبوب، وعن الرياح ومواسم هبوبها على الحقول التي نعرفها.

لكن الفرسان الذين يحرسون القصر للزود عنه، إن اجتاز أحدهم الغابة المسحورة، ظهروا الآن. أتى أربعة منهم بدروعهم اللامعة ووجوهم المُقنَّعة. طوال القرون المسحورة التي عاشوها لم يجرؤوا على النظر إلى الأميرة. لم يكشفوا عن وجوههم عندما يجثون أمامها. لكنهم قد أقسموا على ألا يتحدث إليها أي إنسان قد ينجح في اجتياز الغابة المسحورة. والآن كانوا يردِّدون ذلك القسم في طريقهم إلى ألڤيرك.

نظرت ليرازِل إليهم حزينة، لكنها لم تستطع إيقافهم لأنهم أتوا بأمر من والدها لا يمكنها معارضته، رغم أنها تدرك أن والدها قد لا يتذكر ذلك الأمر الذي أصدره قبل زمن طويل استجابة للقدر. نظر ألڤيرك إلى دروع الفرسان التي يفوق لمعان معدنها جميع معادن أرضنا، وكأنها قُدَّت من واحد من تلك الأبراج الفضية القريبة إليه التي نسمع بها في الأغنيات فقط. ثم تقدم نحوهم مُمسِكًا سيفه السحري بيده اليسرى، واستلَّ سيف والده عازمًا على طعن مفاصل دروعهم بحافته المُدبَّبة.

لقد نجح في صدِّ هجوم الفارس الأول بسيفه، لكنه شعر كأن برقًا ضرب ذراعه وطار السيف من يده. عندئذٍ أدرك أن لا سيف أرضي يستطيع مجابهة أسلحة الأرض السحرية، فأمسك السيف السحري

بيده اليمنى، وبه صدَّ هجمات حراس الأميرة الأربعة الذين انتظروا تلك المواجهة طويلًا. لم يشعر بضربات سيوفهم كالبرق، لكن سيفَه ومض وسارت في معدنه ذبذبة مثل الموسيقى بلغت قلب ألڤيرك وشدَّت عزمه.

بينما يواصل ألڤيرك صدَّ هجمات الفرسان السريعة سئِم سيفه السحري الشبيه بالبرق من الدفاع، لأن صميمَه السرعةُ والإقدام. لهذا ارتفع ومعه يد ألڤيرك يهاجم فرسان الأرض السحرية هجومًا قويًّا لم تستطع دروعهم الصمود أمامه. سالت دماؤهم الغليظة من الشقوق التي أحدثها السيفُ في الدروع، وسرعان ما سقط اثنان من ذلك الجمع المُتألِّق أرضًا. شعر ألڤيرك بهمَّة سيفه فقاتل بحماس وأطاح بفارس آخر. هكذا لم يتبقَّ سوى الفارس الأخير الذي، فيما بدا، عُزِّز بسحرٍ أقوى من زملائه المهزومين. كانت هذه حقيقة؛ لقد سحره ملك الأرض السحرية أولًا، وقتما كان تأثير تعويذاته الرونيَّة في أَوجِه. لهذا فإن ذلك الفارس ودرعه وسيفه يحملون بعضًا من ذلك السحر البكر، الأقوى من كلِّ إلهامٍ جاء الملكَ فيما بعد. لكن ذلك الفارس، كما سيشعر ألڤيرك عبر ذراعه وسيفه، لم يُعزَّز بأيٍّ من التعويذات الرونيَّة الثلاثة التي تحدثت عنها الساحرة. إن تلك التعويذات الرئيسة يحفظها الملك دون النطق بها ليحمي بها وجوده. وإن كانت الساحرة تدري بهذه الحقيقة، فلا بُدَّ أنها قد طارت بمكنستها إلى الأرض السحرية وتحدثت إلى الملك في سريَّة.

سقط السيف الذي زارت أحجاره الأرض من البعيد على الدرع مثل الصاعقة فتطاير شرر أخضر عند التقائهما، تبعه شرر قرمزي عند التقاء السيفين، ثم سالت الدماء الغليظة ببطء من الشقوق الواسعة ولطَّخت الدرع. شاهدت ليرازِل النزال في رهبة ودهشة وشفقة. ابتعد المقاتلان إلى الغابة، حيث سقطت الأغصان فوقهما ليقطعاها في أثناء قتالهما. احتدمت تعويذات السيف السحري وزأرت في وجه الفارس

السحري. ثم في ظلام الغابة، وسط الأغصان المبتورة من الأشجار غير المسحورة، وبضربة تُشبِه صاعقةً مزَّقت شجرة بلُّوط، قضى ألڤيرك على خصمه.

وفي الصمت الذي أعقب نهاية القتال، ركضت ليرازِل لتقف بجوار ألڤيرك.

قالت: «هيَّا، بسرعة! يتقن والدي تعويذات رونيَّة ثلاث...».

لكنها لم تقل المزيد لأنها لم تجرؤ على الحديث عنها.

سألها ألڤيرك: «إلى أين؟».

أجابته: «إلى الأرض التي تعرفها».

***

الفصل الرابع

يعود ألڤيرك إلى الأرض بعد عدة أعوام

سلك ألڤيرك وليرازِل طريق العودة عبر الغابة الحارسة بعدما ألقت الأميرة نظرة واحدة على المروج والزهور، التي قد يراها الشعراء في خيالهم عندما يسرحون بعيدًا في نومهم العميق. وحثَّت ألڤيرك على مواصلة السير، فقرَّر أن يسلكا الطريق الذي قد شقَّه مُجرِّدًا الأشجار من سحرها.

لكن الأميرة لم تمنحه وقتًا لتنفيذ قراره، بل أسرعت في إبعاده عن طريق القصر الذي نسمع به في الأغنيات فقط. لهذا أخذت أشجار الغابة الأخرى تتقدم نحوهما من وراء الصفِّ ذي المظهر العادي، الذي أعمل ألڤيرك فيه سيفه، تتطلَّع حائرةً إلى زميلاتها ذات الأغصان المرتخية العادية. عندما اقتربت الأشجار من ليرازِل رفعت يدها، فتوقفت الأشجار عن الحركة من فورها. ورغم ذلك واصلت الأميرة حثَّ ألڤيرك على الإسراع. كانت تعلم أن والدها سيصعد الدرج النحاسي لأحد الأبراج

الفضية، وأنه سرعان ما سيصل إلى شرفة عالية، وأنه سيلقي تعويذة رونيَّة بعينها. الآن سمعت وقع قدميه وهو يصعد الدرج يتردد في أرجاء الغابة. هرول الاثنان عبر السهل وراء الغابة، وسط الضوء الأزرق الأبدي، وليرازِل تتلفَّت إلى الوراء. دوَّت قدما ملك الأرض السحرية دويًّا عميقًا بطيئًا وهي تصعد آلاف الدرجات النحاسية، وأملت ليرازِل أن تستطيع الوصول إلى حاجز الشَّفق الضبابي في هذا الجانب في الوقت المناسب. فجأةً، عندما نظرت إلى الشرفات البعيدة للأبراج الفضية للمرة المئة، رأت باب إحداها ينفتح.

هتفت قائلة: «يا للحسرة!».

لكنها وألڤيرك عندئذٍ تنسَّما عطر زهور النسرين الذي هبَّ من الحقول التي نعرفها.

لم ينل التعب من ألڤيرك لأنه شابٌّ، ولم ينل من ليرازِل لأنها خالدة. هكذا أمسك ألڤيرك بيد الأميرة وانطلقا يركضان. رفع ملك الأرض السحرية ذقنه، وحالما شرع في إلقاء تعويذة رونيَّة لا يمكن النطق بها سوى مرة واحدة، ولا يقوى شيء ينتمي إلى أرضنا على مجابهتها، كانا قد عبرا الحاجز. لهذا لم تشعر ليرازِل بارتجاج الأرض التي غادرتها أو اضطرابها.

عندما تطلعت ليرازِل إلى الحقول التي نعرفها، الغريبة عنها كما كانت غريبة عنَّا ذات يوم، أبهجها جمالها. ضحكت لمرأى أكوام التِّبن وراقَهَا مظهرها الغريب. تحدثت إلى قُبَّرة تغرِّد لكن الأخيرة لم تفهمها. على أن ليرازِل سرعان ما غفلت عن القُبَّرة إذ استرعت انتباهها بدائع أرضنا التي لم تشهد مثلها قبلًا. لقد انقضى موسم ازدهار الجريس، على نحو غريب، وتفتحت زهور قفاز الثعلب. غاب الزعرور وظهر النسرين. أثارت هذه الملحوظة حيرة ألڤيرك.

لقد عادا في الصباح الباكر والشمس المشرقة تُرسِل ضوءها الناعم إلى أرضنا. ابتهجت ليرازِل بالمناظر المألوفة لدينا وأكثر الأشياء اعتيادية. كانت جَذِلةً. أدهشها ما رأت وأثار ضحكها. فانتبه ألڤيرك إلى جمالٍ جديدٍ تتمتع به زهور الحوذان، وطرافةٍ في مظهر العربات لم يلحظها من قبل. في كل لحظة تمر بها هنا في أرضنا تهتف فَرِحةً، إذ تكتشف كنزًا لم يدرك ألڤيرك قيمته. وبينما يشاهدها تسبغ على أرضنا جمالًا أكثر رقَّة من زهور النسرين، رأى تاجها الثلجي يذوب.

لقد جاءت من القصر الذي نسمع به في الأغنيات فقط، إلى الأرض التي لا يلزمني الإسهاب في وصفها لأنها مألوفة لدينا، التي يُبدِّل الزمان مظهرها قليلًا ولا يدوم التبدُّل طويلًا. وفي المساء وصلت إلى قلعة ألڤيرك.

لقد تغير كل شيء في قلعة إيرل. عند البوابة قابلا حارسًا يعرفه ألڤيرك، لكن الحارس تفاجأ عند رؤيتهما. في الردهة وعلى الدرج قابلا بعض الخدم القائمين على الاعتناء بالقلعة الذين التفتوا إليهما مدهوشين. كان ألڤيرك يعرفهم أيضًا، لكنهم بدوا أكبر سنًّا. عندئذٍ استنتج أن عشرة أعوام تقريبًا قد مرَّت هنا في أثناء النهار الأزرق الذي أمضاه في الأرض السحرية.

مَن لا يدري أن نظام الحياة على الأرض السحرية يسير بهذه الطريقة؟ رغم ذلك من قد لا يتفاجأ إن شهد حدوثه مثلما شهده ألڤيرك؟ لقد التفت إلى ليرازِل، وأخبرها أن قرابة عشرة أو اثني عشر عامًا قد مرَّت منذ رحيله عن أرضه. لكن الأمر بدا وكأن رجلًا رقيق الحال يخبر أميرة ثرية أنه فقد بنسًا. إن الوقت لا يحمل أي قيمة أو معنى في نظر ليرازِل. لم تنزعج عند معرفتها بمرور عشرة أعوام هباءً. ولم تستطع تصوُّر ما يعنيه الزمان لنا.

علم ألڤيرك أن والده رحل منذ زمن طويل. أخبره أحدهم أنه مات مرتاح البال لا جَزِعًا، لأنه يثق أن ألڤيرك سينجح في تحقيق مسعاه. لقد علم الملك الراحل بعض الشيء عن نظام الحياة في الأرض السحرية، وأن من يسافر من هنا إلى هناك لا بُدَّ سيختبر السكون المُميِّز لتلك الأرض الغريبة.

في وقت متأخر من ذلك اليوم بلغ سمعهما طرق الحدَّاد معدنه وهو يعمل في الوادي. كان ذلك الحدَّاد هو نفسه المُتحدِّث باسم الرجال الذين قصدوا الغرفة الطويلة الحمراء في قلعة إيرل وقت غروب فائت. ما يزال جميع أولئك الرجال أحياء مع مرور الزمان كالمعتاد في الأرض التي نعرفها، على أنه يمرُّ في الأودية برفقٍ على النقيض مما يحدث في المدن.

ثم ذهب ألڤيرك وليرازِل إلى المكان المُقدَّس. عندما قابلا الكاهن سأله ألڤيرك أن يعقد زواجهما وفقًا لشعائر ديانتهم التوحيدية. أبصر الكاهن حُسن ليرازِل يتألَّق وسط الزخارف اللامعة في المكان المُقدَّس الصغير، الذي زيَّن حوائطه بتحفٍ زهيدةٍ يبتاعها من الأسواق من حين لآخر، وخشي ألا تكون من الفانين. عندما سألها عن موطنها وقالت في ابتهاج إنها قادمة من الأرض السحرية، شبَّك الرجل الطيب يديه، وأخبرها بصدقٍ أن ساكني تلك الأرض الغريبة بعيدون عن الخلاص. لكنها أجابته بابتسامة فقط لأنها عاشت في موطنها حياة الرغد والراحة، ولا تبالي الآن بغير ألڤيرك. فذهب الكاهن إلى كتبه ليرى ما يمكن فعله في حالة كتلك.

لقد أمضى بعض الوقت يقرأ في صمت، لا يسمع ألڤيرك وليرازِل الواقفان أمامه سوى همس أنفاسه. وأخيرًا عثر في كتابه على شعائر زواج حورية بحرٍ هجرت المياه. لم يذكر الكتاب شيئًا عن الأرض

السحرية، لكن الكاهن رأى أن ما قرأه الآن كافٍ، لأن ساكني البحر مثلهم مثل ساكني الأرض السحرية بعيدون عن الخلاص. هكذا أرسل في طلب الجرس والشموع، ثم التفت إلى ليرازِل يجهر بقراءة الكلمات التي تُلقى في هذه المناسبة الخاصَّة من كتابه، يأمرها بأن تقول إنها ستنفصل عن الأرض السحرية تمامًا وستنبذ كل ما يخصها وستنسى كل ما تعرفه عنها.

عارضته ليرازِل قائلة: «يا سيدي الكاهن، لا يمكن للكلمات التي تُقال في الأرض السحرية عبور حدودها. لقد ابتدع والدي ثلاث تعويذات رونيَّة رئيسة، وألقى منها واحدة من شأنها أن تُمزِّق كتابك. لكنها لم تستطع عبور حاجز الشَّفق. لهذا لن أُردِّد ما قد يوحي فحواه بإساءة في حق والدي».

أجابها الكاهن: «إذًا لن أستطيع تزويج رجل مؤمن بإحدى العنيدات التي سكنت أرضًا بعيدة عن الخلاص».

عندئذٍ ناشدها ألڤيرك الإذعان فردَّدت ما ذُكِر في الكتاب وقرأه الكاهن، لكنها أردفت: «أقول هذا رغم أن والدي يستطيع تمزيق هذا الكتاب إن قابلته إحدى تعويذاته الرونيَّة».

وبعد وصول الجرس والشموع عقد الكاهن زواجهما وفقًا للشعائر المناسبة لزواج حورية بحرٍ هجرت المياه.

***

الفصل الخامس

حكمة برلمان مملكة إيرل

في صباحات أيام العرس تردَّد رجال برلمان إيرل إلى القلعة يُقدِّمون التهاني والهدايا. وفي المساءات تحدثوا في بيوتهم عن الأمور الطيبة التي أملوا حدوثها في واديهم، عندما تصرفوا بحكمة والتقوا الحاكمَ الراحل في القاعة الطويلة الحمراء عند الغروب.

تضمَّن البرلمان الحدَّاد نارل رئيسهم، وجوهِك المزارع في حقول البرسيم بالقرب من إيرل، أوَّل من فكَّر في ذلك النوع من التغيير بعد حديثه مع زوجته، ونيهِك الحوذي، وأربعة تجار يبيعون لحوم الأبقار، وأوث صائد الظباء وڤليل الخبير في الحراثة. لقد ذهب أولئك الرجال برفقة ثلاثة آخرين إلى حاكم إيرل، وتقدَّموا بالطلب الذي أدى إلى قيام ألڤيرك برحلته. الآن تحدثوا عن النفع الذي سيعود به هذا الطلب عليهم. لقد رغب الأهالي في أن يصبح وادي إيرل بقعة شهيرة لأنه، في رأيهم، يستحق هذه المكانة. لقد نظروا في التاريخ وقرؤوا الكتب التي تتحدث

عن الأودية، لكنهم لم يعثروا فيها على ذِكر لواديهم. وذات يوم قال جوهِك: «ليحكمنا في المستقبل حاكمٌ من سلالة سحرية، يجعل اسم وادينا شهيرًا، فلا يصبح على الأرض من يجهل اسم إيرل».

ابتهج الأهالي بكلامه وشكَّلوا برلمانًا. ثم ذهب الرجال الاثنا عشر إلى القلعة كما ذكرت قبلًا.

الآن تناولوا نبيذ العسل وهم يتحدثون عن مستقبل إيرل ومكانته بين الأودية، والصيت الذي يجب أن يذاع عنه في العالم. لقد اعتادوا اللقاء والنقاش في ورشة الحدادة الكبيرة التي يملكها نارل. هناك يجلب لهم نارل الشراب من غرفة داخلية، وينضم إليهم ثريل بعد عودته من عمله في الغابة متأخرًا. كان النبيذ من عسل البرسيم حلوًا كثيفًا. يجلس الرجال بعض الوقت في الورشة الدافئة، يتحدثون عن الأمور اليومية التي تجري في الوادي والتلال، ثم يتأمَّلون المستقبل وكأنهم يرون من خلال ضبابٍ ذهبيٍّ مجد إيرل القادم. يمتدحُ أحدهم لحوم الأبقار في الوادي، ويُثني آخر على خيول الوادي، ويشيد آخر بتربة الوادي الخصبة. ويتطلعون جميعًا إلى الزمان الذي ستدرك فيه جميع الأراضي أفضلية وادي إيرل على باقي الأودية.

ثم مرَّ الزمان الذي أتى بتلك المساءات بوادي إيرل كالمعهود في أرضنا، حتى حلَّ الربيع مجددًا وتفتحت زهور الجريس. وذات يوم، إذ شقائقُ النعمان في أوج ازدهارها، ذاع خبر مفاده أن ألڤيرك وليرازِل أنجبا ولدًا.

في الليلة التالية أشعل أهالي إيرل نارًا عظيمةً على التلِّ احتفالًا بهذا الخبر السعيد. حولها رقصوا وتناولوا نبيذ العسل واستمتعوا بوقتهم. لقد أمضوا نهارهم في جمع حطب النيران من غابة مجاورة حتى شوهد

وهجُها من الأراضي حولهم، لكن نورها لم يسطُع على الجبال الزرقاء الفاتحة لأنها لا تتأثر بما يحدث هنا.

ثم جلسوا أرضًا يستريحون من الرقص، وأخذوا يتنبؤون بمستقبل إيرل عندما يحكمها ولد ألڤيرك الذي سيرث السحر من أمه. قال البعض إنه سيقودهم إلى الحرب، وقال البعض الآخر إن المحاصيل ستصبحُ وافرة. واتفق الجميع أن أسعار لحوم الأبقار ستنخفض. لم ينم أحد في تلك الليلة التي أمضوها في الرقص، والتنبؤ بمستقبل مجيد، والابتهاج بتنبؤاتهم. وكان أشد ما أبهجهم أن اسم إيرل ستعرفه جميع البلاد وستُبجِّله.

ثم بحث ألڤيرك عن مُربِّية لولده في الوادي كله والتلال، لكن العثور على امرأة جديرة بالاضطلاع بتلك المسؤولية لم يكن سهلًا. والقلَّة من النساء اللاتي لاءمن تلك المهمة خشين الضوء الغريب عن الأرض والسماء، الذي يسطع في عيني الطفل أحيانًا. وأخيرًا في صباح عاصف صعد ألڤيرك تلَّ الساحرة الوحيدة. ووجدها جالسة عند باب كوخها لا يوجد ما تلعنه أو تباركه.

سألته: «هل جلب لك السيف السعد؟».

أجابها: «من يدري أي شيء يجلب لنا السعدَ إن كانت النهاية محجوبة عنا؟».

تحدَّث مُتعَبًا فقد أثقله العمر. لم يدرِ قط كم عامًا مرَّ على الأرض خلال اليوم الذي سافر فيه إلى الأرض السحرية، لكن ذلك اليوم بدا بعيدًا جدًّا.

قالت الساحرة: «أجل، من يدري بالنهاية سوانا!».

- لقد تزوجت بابنة ملك الأرض السحرية يا أمي الساحرة.

- هذا تطور كبير.

- لقد أنجبنا ولدًا يا أمي الساحرة. لكن من سيعتني به؟

- لا تناسب هذه المهمة البشر العاديين.

- هلا تأتين إلى وادي إيرل كي تعتني به وتصبحي مُربيَّته في القلعة؟ لا أحد هنا سواكِ يعرف شيئًا عن الأرض السحرية باستثناء الأميرة، وهي لا تعرف شيئًا عن الأرض.

أجابته الساحرة: «سآتي كُرمى للملك».

ثم هبطت التلَّ تحمل معها أغراضًا غريبة. هكذا تربَّى الطفل في الأرض التي نعرفها على يد امرأة تعرف أغنيات وحكايات من أرض أمه.

كثيرًا ما تحدثت الساحرة العجوز والأميرة ليرازِل معًا، وهما واقفتان عند مهد الرضيع وفي المساءات الطويلة، عن أمور يجهلها ألڤيرك. ورغم سنِّ الساحرة الكبيرة والمعرفة المحجوبة عن البشر التي راكمتها طوال سنوات عمرها المئة، فإنها مَن تعلَّم الكثير من أحاديثها مع ليرازِل، لكن ليرازِل لم تدرِ شيئًا عن الأرض وأحوالها.

لقد اعتنت السيدة العجوز بالطفل جيدًا حتى إنه لم يبكِ قط في طفولته. أتقنت تعويذة تجعل الصباح مُشرِقًا، وتعويذة تملأ اليوم بالبهجة، وأخرى تُهدِّئ السُّعال، وأخرى تجعل غرفته رائعة ودافئة وغامضة، إذ يرتفع لهب النيران من الحطب المسحور، وتهتزُّ ظلال الأشياء القاتمة على السقف. وبجهودها وجهود ليرازِل نشأ الطفل مثل جميع أطفال النساء البشريَّات. لكنه تعلَّم تعويذات وأغنيات لا يسمعها أطفال الأرض التي نعرفها.

لقد تجولت الساحرة العجوز في الغرفة بعصاها السوداء تحرس الطفل بتعويذاتها الرونيَّة. في الليالي العاصفة إن تسللت الرياح عبر

الشقوق فإنها تعرف تعويذة لتسكينها، وعندما تُصفِّر الغلَّايات فإنها تسحرها لتغني أغنيات تذكر أنباءً غريبة عن أماكن بعيدة يغشاها الضباب. هكذا عرف الصبي بلادًا غامضة لم ترها عيناه قط. وفي المساء ترفع الساحرة عصاها الأبنوسية وهي واقفة أمام المدفأة وسط الظلال وتسحرها كي ترقص من أجله. ولتسليته اتَّخذت تلك الظلال جميع الأشكال الطيبة والشريرة. هكذا عرف الصبي كل ما يوجد في الأرض، مثل: الخنازير والأشجار والجِمال، والتماسيح والذئاب والبطِّ، والكلاب النبيلة والأبقار الوديعة. لكنه عرف أيضًا الموجودات الأكثر غموضًا التي يخشاها البشر، وتلك التي أملوا وجودها وتخيَّلوه. في تلك المساءات على حوائط غرفته يشاهد الصبي الأمور التي تحدث في أرضنا والأشياء التي توجد فيها فأصبح يألفها، وعند الأصيل الدافئ تأخذه الساحرة ويتجولان في القرية. تنبح الكلاب عند رؤية مظهرها المخيف، لكنها لا تجرؤ على الاقتراب إليها لأن الصبي يسير خلفها حاملًا العصا الأبنوسية. لقد أدركت الكلاب التي تعلم إلى أي مدى يستطيع الإنسان قذف الحجارة، وقدرته على ضربها إن أراد، أن تلك العصا ليست عادية. لهذا لبثت بعيدًا عن تلك العصا السوداء المريبة في يد الصبي، لكنها نبحت عاليًا فخرج الأهالي ليشهدوا ما يحدث. لقد ابتهجوا لمرأى المُربيَة الساحرة التي تتولى رعاية الصبي. قالوا إن الساحرة زيروندرِل ستجعله واحدًا من أمهر السحرة، وإن السحر في عهده سيجعل واديهم مشهورًا.

وقد ضربوا كلابهم يحثونها على دخول البيوت، لكن الكلاب لم تغفل عن شكوكها. لهذا عندما اجتمع الرجال في ورشة نارل التي أضاء نور القمر نوافذها -حيث دارت كؤوس نبيذ العسل وهم يتحدثون عن مستقبل إيرل، يشاركهم مزيد من الأهالي في رسم قصة المجد القادم

والمنازل ساكنة ليلًا- خطت الكلاب خطوات خفيفة إلى الطرقات المكسُوَّة بالرمال لتنبح.

وفي الصباح تذهب ليرازِل إلى غرفة الصبي فيجلب حضورها إشراقًا لا تستطيع أقوى تعويذات الساحرة جلبه، وتغني له تلك الأغنيات التي تعلَّمتها في الجانب الآخر من حاجز الشَّفق وألَّفها من لا يعرفون الزمان. ورغم أن تلك الأغنيات تنقل بدائع يرجع أصلها إلى أرض بعيدة عنا، وكان تأليفها خارج نطاق الزمان الذي يعرفه مؤرِّخونا، وأنها أثارت دهشة البشر عندما يسمعون صداها عبر نوافذهم المفتوحة في الأيام الصيفية، فإن دهشة ليرازِل بطباع طفلها وسلوكياته الأرضية التي تتضح كلما كبر كانت أكثر شدَّة. لكنها أحبته أكثر من مملكة والدها، والقرون التي عاشتها في شباب دائم في أرضها، والقصر الذي نسمع به في الأغنيات فقط.

في تلك الأيام أدرك ألڤيرك أن ليرازِل لن تألف الحياة على الأرض ولن تفهم الأهالي الذين يسكنون الوادي أبدًا. لم تقرأ كتب المعرفة دون أن تدفعها إلى الضحك، ولم تُثِر أساليب الحياة الأرضية اهتمامها. في قلعة إيرل لم تشعر بالارتياح مثل كائن ينتمي إلى الغابة أمسك به ثريل وحبسه في كوخ. لقد أمل ألڤيرك أن تألف الغريب عنها شيئًا فشيئًا، حتى تتوقف الاختلافات بين أرض البشر والأرض السحرية عن إزعاجها. لكنه أدرك أخيرًا أن الغريب سيظل غريبًا دائمًا، وأن القرون التي أمضتها في مملكتها الخالدة قد شكَّلت أفكارها وخيالاتها عميقًا، بحيث يتعذَّر تغييرها خلال سنواتنا العابرة على الأرض؛ لقد أدرك الحقيقة.

لهذا فصلت بين روحي ألڤيرك وليرازِل تلك المسافات الفاصلة بين أرض البشر والأرض السحرية، لكن جسر الحبّ، الذي لا تُعجِزه المسافات، وَصَلَ بينهما. على أن ألڤيرك ذات مرة، وهو واقف على ذلك

الجسر الذهبي سمح لنفسه بالنظر أسفله، فأصابه الدوار وارتجف. تساءل عن نهاية حكايتهما وخشي أن تفوق بدايتَها غرابةً.

لكن ليرازِل لم ترَ أن عليها التكيُّف مع أي شيء، أليس جمالها كافيًا؟ ألم يأتِ حبيبها إلى المروج أمام القصر اللامع الذي نسمع به في الأغنيات فقط، وأنقذها من قدرها الوحيد وذلك السكون الأبدي؟ أيجب أن تفهم أفعال أولئك الناس؟ أيجب عليها ألا ترقص في الطرقات وألا تتحدث إلى الماعز؟ أيجب ألا تضحك في الجنازات وألا تغني في هدوء الليل؟ لماذا؟ لماذا نشعر بالبهجة إن وجب علينا إخفاؤها؟ لِم يجب أن يرضخ المرح للكآبة في تلك الأرض التي جاءت إليها؟ وذات يوم رأت امرأة تبدو أقل جمالًا مما كانت عليه العام السابق. لم يكن التبدُّل في شكلها كبيرًا، لكن عيني ليرازِل ثاقبتي النظر لحظتاه. ثم ذهبت إلى ألڤيرك باكيةً كي يطمئنها، لأنها خشيت أن يكون الزمان في أرضنا ذا سلطةٍ تنال من الحُسن الذي لم تجرؤ القرون في الأرض السحرية على مسِّه، لكن ألڤيرك قال إن للزمان سطوته التي يعرفها جميع البشر، وما نفع الشكوى؟

***

الفصل السادس

يكتب ملك الأرض السحرية تعويذة رونيَّة

في الشرفة العالية لبرجه اللامع وقف الملك وصدى خطواته الكثيرة ما يزال يتردد في الأسفل. لقد رفع رأسه كي يلقي التعويذة الرونيَّة التي ستُبقي ابنته في الأرض السحرية، لكنه في تلك اللحظة رآها تعبر الحاجز الغامض، الذي يتألَّق بضوء الشَّفق في تلك الناحية المُواجِهة للأرض السحرية، ويبدو الآن ضبابيًّا وغاضبًا في الناحية المُواجِهة للأرض التي نعرفها. الآن أخفض رأسه حتى اشتبكت لحيته بفراء الحرملة البيضاء التي يرتديها فوق عباءته الزرقاء الداكنة. ووقف في صمت آسِفًا والزمان يمرُّ سريعًا في الأرض التي نعرفها.

وبينما هو واقف في شرفة البرج الفضي يبدو عليه الكِبَر إذ عاش عصورًا لا نعلم عنها شيئًا، قبل أن يفرض السكونَ الأبدي على أرضه

السحرية، فكَّر أن ابنته الآن تمضي تلك الأعوام القاسية. لقد تخطت معرفته حدود الأرض السحرية، ووصلت إلى أرضنا الوعرة. أدرك جيدًا قسوة مخلوقات الأرض وشراسة الزمان. علم أن ابنته تعيش الآن السنوات التي تغتال الجمال، والغلظة التي تؤذي النفس. وهناك، حيث يحيا بمنأى عن اضطراب الزمان وأثره المُهلِك، بدا له أن ما تبقَّى من أيام في حياة ابنته أقصر مما قد تبدو في نظرنا الساعاتُ السابقة لذبول وردة اقتُطفت لتُباع في شوارع المدينة. فكَّر أن الهلاك يتربَّص بها الآن مثل جميع الفانين. تصوَّر موتها قريبًا مثلهم، لتُدفَن وسط تراب الأرض التي يستهين أهلها بالأرض السحرية ولا يقيمون وزنًا كبيرًا لأساطيرها الثمينة.

لو لم يكن ذلك الأبُّ ملكَ تلك الأرض السحرية، التي تستمدُّ سكونها الأبدي من سكينته الغامضة، لبكى عند تصوُّره قبرًا أرضيًّا يحوي جسد ابنته ذات الجمال الباهر. ثم فكَّر أنها قد تدخل ذلك الفردوس الذي لا يعرفه؛ تلك السماء التي تحدثت عنها الكتب في الأرض التي نعرفها. تصوَّرها في تلٍّ تملؤه أشجارُ التفاح وزهورُ ربيعٍ لا ينتهي، حيث تومض الهالات الذهبية التي تحيط بمن يلعنون الأرض السحرية. تخيَّل صورة كانت مُغبَّشة -رغم قدرته السحرية- عن النعيم الذي لا يراه واضحًا سوى الصالحين. رأى ابنته على تلك التلال السماوية تمدُّ يديها نحو الجبال الزرقاء الفاتحة في موطنها، كما يوقن أنها ستفعل، دون أن ينتبه أحد إلى شوقها. عندئذٍ بكى الملك فارتجفت الأرض السحرية، مثلما يرتجف سطح الماء الراكد إن مسَّه شيء في أرضنا.

ثم استدار الملك الساحر يغادر الشرفة ليهبط الدرج النحاسي في عجلة. وصل إلى باب البرج العاجيِّ واجتازه قاصدًا قاعة عرشه التي

نسمع بها في الأغنيات فقط. هناك أخرج لفافة رَقِّية من خزانة وتناول ريشة أُخِذت من جناح كائن خرافي، غمس الريشة في حِبر غير أرضيٍّ، وكتب تعويذة رونيَّة، ثم رفع إصبعين يستدعي الفرسان الحراس، لكنهم لم يأتوا.

لقد ذكرتُ أن الزمان لا يمضي في الأرض السحرية، لكن وقوع الأحداث هو في ذاته علامة على الزمان، ولا يمكن أن يقع أي حدث ما لم يمرَّ الزمان. إن العلاقة بين الزمان والأرض السحرية تسير كالتالي: وسط البهاء الأبدي في تلك الأجواء الهادئة لا شيء يضطرب أو يغيب أو يموت. لا يسعى شيءٌ في سبيل سعادته بالحركة أو التعديل أو التغيير، بل يجد الجميع نشوته في تأمل مستمر لذلك البهاء المحيط، الذي يتألَّق وسط تلك الأراضي تألُّقًا باهرًا مثلما كان حالما أحدثته تعويذات الملك الساحر. لكن إن شَغَلَ فكر الملك الساحر أمر وسعى إلى تحقيقه، فإن قوته التي صبغت الأرض السحرية بالسكون وحجبت عنها الزمان، تُخِلُّ بذلك السكون وتبلو المملكة بالزمان لبعض الوقت. يشبه الأمر بِركة عميقة تحتوي على أسماك كبيرة وأعشاب خضراء، ألوانها داكنة والضوء غائب. إن ألقيتَ بها غرضًا من بيئة غريبة عنها يتغير حالها: تضطرب الأسماك وتتبدَّل الألوان، تهتز الأعشاب ويظهر الضوء، ثم تعود البِركة ساكنة مجددًا. حدث الأمر نفسه عندما عبر ألڤيرك حاجز الشَّفق والغابة المسحورة إلى المروج، حيث تحرك الفرسان الحراس. عندئذٍ اضطربت الأرض السحرية كلها.

حينما لم يأتِ أي من الفرسان الحراس نظر الملك إلى الغابة المضطربة ذات الأشجار التي ما تزال ترتجف إثر مجيء ألڤيرك. استطاع بسحره رؤية أعماق الغابة عبر النظر إلى حوائط قصره. هناك

رأى الفرسان الأربعة طريحي الأرض، يسيل الدم الغليظ من شقوق دروعهم. عندئذٍ فكَّر في السحر البِكر، في التعويذة المُبتَكرة التي ألقاها على أكبرهم قبل أن يقهر الزمان. ثم اجتاز إحدى بوابات قصره اللامعة وقطع المروج المتلألئة إلى الغابة، حتى وصل إلى الفرسان القتلى والأشجار المضطربة.

قال: «أرى أثرًا للسحر هنا».

ورغم أنه يملك ثلاث تعويذات رونيَّة رئيسة يمكن النطق بها مرة واحدة فقط، وأنه كتب واحدة منها على اللفافة الرَّقِّية بالفعل ليعيد ابنته إلى أرضها، فقد ألقى التعويذة الرونيَّة الرئيسة الثانية على أوَّل فرسانه الذي أوجده بسحره قبل زمن طويل. وخلال الصمت الذي أعقب نطقه بآخر كلماتها التحمت جميع الشقوق في درع الفارس اللامع، اختفت الدماء الغليظة، ونهض الفارس حيًّا. الآن، لم يعد ملك الأرض السحرية يملك سوى تعويذة رونيَّة واحدة أقوى من أي سحر نعرفه.

ولأن الفرسان الثلاثة الآخرين الراقدين موتى لا أرواح لهم بل هم صورة من صور السحر، فقد عاد سحرهم إلى ذهن الملك، الذي رجع إلى قصره بعدما بعث فارس حرسه ليُحضِر واحدًا من الترول. إن الترول قبيلة من الأقزام بشرتهم بنية داكنة، يبلغ طولهم قدمين أو ثلاثة أقدام ويسكنون الأرض السحرية. ركض الترول إلى قاعة العرش، وسرعان ما وقف أمام الملك حافي القدمين.

أعطاه الملك اللفافة الرَّقِّية التي خطَّ عليها التعويذة الرونيَّة الرئيسة، وقال: «اركض إلى الحدود حتى تصل إلى الأرض التي لا يعرفها أحد هنا. ابحث عن الأميرة ليرازِل التي فرَّت إلى مقرَّات البشر، وأَعطِها هذه التعويذة الرونيَّة. ستقرأها وسيصبح كل شيء على ما يُرام».

ركض الترول، وسرعان ما وصل بقفزات عالية إلى حاجز الشَّفق. ثم ساد السكون جميع الموجودات في الأرض السحرية. وعلى العرش العظيم الذي نسمع به في الأغنيات فقط جلس الملك العجوز يحزن في صمت.

***

الفصل السابع

قدوم الترول

عندما وصل الترول إلى حاجز الشَّفق اجتازه بسرعة وخفَّة، لكنه كلما اقترب من الحقول التي نعرفها تقدَّم بحذر لأنه يخشى الكلاب. تسلَّل بهدوءٍ شديد عبر كتل الشَّفق الكثيفة إلى حدود أرضنا، بحيث لم تره عين ما لم تكن تُحدِّق مباشرة إلى الموضع الذي ظهر فيه. توقف لحظاتٍ ينظر إلى اليسار واليمين، وعندما لم يرَ حوله كلابًا ابتعد عن حاجز الشَّفق. لم يأتِ ذلك الترول إلى الأرض من قبلُ قط، لكنه يعلم أن عليه الحذر من الكلاب. ينتاب الخوف من الكلاب جميع الكائنات الأقل رتبة من الإنسان. إنه شعورٌ كونيٌّ بالغ العمق قد تخطَّى، فيما بدا، حدودنا وشعرت به كائنات الأرض السحرية.

وصل الترول إلى أرضنا في مايو وانبسطت أمامه حقول الحوذان، تملؤها الزهور الصفراء وبراعم العشب البُنِّية. عندما رأى الزهور الزاهية أدهشه ثراء الأرض، وسرعان ما مشى وسط الحوذان تحيط به صُفرته.

لم يكن قد ابتعد كثيرًا عن الأرض السحرية عندما صادف أرنبًا بريًّا يستلقي وسط العشب، يمضي وقته مرتاحًا إلى أن يجد ما يفعله. عندما رأى الأرنب الترول لم تصدر عنه أي حركة، لم يبدُ في عينيه أي تعبير، لم يفعل أي شيء سوى الشُّرود، لكن الترول اقترب منه ركضًا، وجلس أمامه وسط زهور الحوذان، وسأله عن الطريق إلى مقرَّات البشر لكن الأرنب واصل شروده.

كرَّر الترول قوله: «أيها الكائن الذي ينتمي إلى هذه الأرض، أين مقرَّات البشر؟».

عندئذٍ نهض الأرنب البري واتجه نحو الترول. بدا مضحكًا لأن اللياقة التي يتمتع بها عندما يركض أو يقفز لم تبدُ في مشيته. لقد مشى مَحنِيًّا، ثم أقحم أنفه في وجه الترول وهزَّ شواربه.

قال الترول: «أخبرني الطريق».

عندما أدرك الأرنب البري أن رائحة الترول لا تشبه الكلاب تركه يتحدث كما يحلو له، لكنه لم يفهم لغة الأرض السحرية لهذا استلقى مجددًا شاردًا والترول يتحدث.

سئم الترول تكرارَ السؤال دون الحصول على جواب، فقفز صائحًا: «كلاب!»، وركض بعيدًا عن الأرنب البري وسط زهور الحوذان، يسلكُ أي طريق يُبعِده عن الأرض السحرية ويُقرِّبه من البشر. وعلى الرغم من أن الأرنب البري لم يستطع فهم لغة الأرض السحرية، فإنه سمع في صيحة الترول ما جعله يشعرُ بالقلق. لهذا ترك موضعه، ومشى وسط الحقلِ خلف الترول يرمقه بنظرات حادَّة. لكن حركته لم تكن سريعة، فقد مشى على ثلاث قوائم رافعًا قائِمته الخلفية، مُتأهِّبًا للركض إن ظهرت الكلاب فعلًا. ثم توقف عن الحركة ورفع أذنيه يستمع بانتباهٍ إلى أصوات الحقول، يُدقِّق النظر حوله ويُفكِّر في صيحة الترول. وقبل

أن يتوقف الأرنب البري عن تفسير معنى ما قاله الترول، كان الترول قد اختفى عن الأنظار ونسي ما قال. لقد رأى سقفًا مائلًا لبيت مزرعة يقوم خلف سياج نباتي. وبدا له أن نوافذ البيت أسفل بلاطِ السقف الأحمر تتطلع إليه.

قال: «ها هو واحدٌ من مقرَّات البشر».

لكن حدسه أخبره أن الأميرة ليرازِل لم تأتِ إلى هنا، ورغم ذلك فقد اقترب من المزرعة ودقَّق النظر في دواجنها، عندئذٍ رآه كلبٌ لم يرَ واحدًا من الترول من قبل. صاح الكلب في ذهول وسخط مرَّةً، ثم سخَّر باقي أنفاسه للركض وراء الترول.

شرع الترول في القفز عاليًا فوق زهور الحوذان وكأنه واحد من السنونوات. تفاجأ الكلب بسرعة الترول الكبيرة، وطارده متَّخذًا مسارًا مُنحنِيًا طويلًا وهو يعدو بسرعة. كان فمه مفتوحًا لكنه صامت، وتتموج الرياح من أنفه إلى ذيله في موجة واحدة. لقد اتَّخذ الكلبُ مسارًا مُنحنِيًا سعيًا إلى الإمساك بالترول عندما ينحرف في طريقه، وسرعان ما أصبح خلفه مباشرة. لكن الترول كان يلهو بالقفز، وتنسَّم عطر زهور الحوذان في أنفاس طويلة. لقد سها عن الكلب، لكنه لم يتوقف عن القفز لأنه يستمتع بالسرعة. في تلك الحقول استمرت تلك المطاردة الغريبة بدافعٍ من مرح الترول وواجب الكلب. وإمعانًا في اللهو قرَّب الترول إحدى قدميه إلى الأخرى، وهبط على ركبتيه ويديه، وتشقلب. ثم بسط ذراعيه بسرعة وقفز يتشقلب في الهواء. كرَّر هذه الحركات عدة مرات فاشتد سخط الكلب، لأنه يعلم أن اجتياز حقول أرضنا لا يحدث بهذه الطريقة. ورغم سخطه فقد أدرك جيدًا أنه لن يستطيع الإمساك بالترول، لهذا عاد إلى المزرعة وانتهت المطاردة. هناك ذهب إلى سيده يهز ذيله بقوة. هكذا أدرك المزارع أن كلبه أحسن التصرف فداعبه. كان من حسن حظ

المزارع أن يبتعد الترول عن مزرعته، لأن الترول لو حدَّث الماشية عن عجائب الأرض السحرية لسخروا من الإنسان، ولخسر المزارع ولاءهم جميعًا باستثناء كلبه المُخلِص.

واصل الترول القفزَ فوق الحقول مرحًا، ثم رأى ثعلبًا أبيض وسط الزهور الصفراء، يواجهه صدره وذقنه الأبيضان وتراقبه عيناه. اقترب الترول منه ونظر إليه، فواصل الثعلب مراقبته لأن الثعلب يراقب كل شيء. لقد عاد إلى تلك الحقول النديَّة بعدما تسلل ليلًا إلى حاجز الشَّفق الفاصل بيننا وبين الأرض السحرية. حتى إنه يتجول داخل الحدود ويمشي وسط الشَّفق. هناك يكتسبُ بعضًا من بهاء الأرض السحرية ويعود به إلى أرضنا.

قال الترول: «مرحبًا أيها اللاكلبيُّ».

إن الثعلب معروف في الأرض السحرية. كثيرًا ما يرى ساكنوها صورة باهتة له عند الحدود، وهذا هو الاسم الذي يدعونه به.

بعد برهة أجابه الثعلب الذي يعرف لغة الترول قائلًا: «مرحبًا أيها الشيء وراء الحدود».

- هل مقرَّات البشر قريبة من هنا؟

زمَّ الثعلب شفتيه فاهتزت شواربه. ومثل جميع الماكرين استغرق في التفكير قبل أن يتحدث، وأحيانًا ترك الصمت يتولى الحديث.

قال: «يعيش البشر هنا وهناك».

- أريد الذهاب إلى مقرَّاتهم.

- لماذا؟

- معي رسالة من ملك الأرض السحرية.

لم يُظهِر الثعلب الخوف أو التوقير عند ذكر الملك الساحر، لكنه حرَّك رأسه وعينيه قليلًا يُخفِي الرهبة التي شعر بها.

قال: «إن كنت تريد إيصال رسالة إليهم فإن مقرَّاتهم هناك».

وأشار بأنفه الرفيع الطويل تجاه إيرل.

- كيف سأعلم أنني وصلت إليهم؟

- من الرائحة. هناك مقرٌّ بشريٌّ كبير والرائحة قوية بغيضة.

تقدَّم الترول إلى الثعلب بالشكر رغم أنه قلَّما يشكر أحدًا، لكن الثعلب قال: «لم أكن لأقترب منهم أبدًا لولا...».

وتوقف عن الحديث.

سأله الترول: «لولا ماذا؟».

- لولا دواجنهم.

ثم لزم صمتًا تامًّا، فقال الترول: «وداعًا أيها اللاكلبيُّ».

واستدار سريعًا ينطلق في طريقه إلى إيرل. قفز فوق الحقول في الصباح النديِّ حتى الظهيرة، وقبل حلول المساء رأى أبراج إيرل ودخانها. كانت القرية بداخل وادٍ تشرف السقوف والمداخن والأبراج على حافته، والدخان عالقٌ في هوائه الضبابي. قال الترول: «ها هي مقرَّات البشر». وجلس فوق العشب يتطلع إليها. بعد قليل اقترب منها أكثر، وتطلع إليها مجددًا. لم يعجبه مظهر الدخان وازدحام السقوف. وبالطبع، كانت الرائحة المُنبعِثة منها بغيضة. إن في الأرض السحرية أسطورة تُمجِّد حكمة البشر، وإن أدَّت معرفة هذا الترول بتلك الأسطورة إلى أن يُكنَّ أي احترام للبشر فقد تلاشى الآن وهو يرى بيوتهم المُتكدِّسة. وبينما ينظر إليها مرَّت به طفلة في الرابعة من عمرها، فتاة صغيرة تسير في الطريق عائدةً إلى بيتها في مساء إيرل.

حدَّق أحدهما إلى الآخر فاغر العينين، ثم قالت الطفلة: «مرحبًا».

أجابها الترول: «مرحبًا أيتها الطفلة البشرية».

لم يتحدث الآن بلغة الترول بل بلغة الأرض السحرية؛ تلك اللغة الفصيحة التي يتحدث بها عندما يقف أمام الملك الساحر. لقد أجاد الترول تلك اللغة لكنهم فضَّلوا الحديث بلغتهم الخاصة في بيوتهم. في تلك الأيام تحدَّث البشر تلك اللغة أيضًا، لأن اللغات كانت قليلة. وقد استخدم الأهالي والجنُّ في إيرل اللغة نفسها.

سألته الطفلة: «ماذا تكون؟».

- أنا ترول من الأرض السحرية.

- هذا ما ظننت.

- إلى أين تذهبين أيتها الطفلة البشرية؟

- إلى البيت.

- لا يجب أن نذهب إلى هناك!

- لا؟!

- تعالي معي إلى الأرض السحرية.

فكَّرت الطفلة قليلًا. لقد ذهب أطفال آخرون إلى تلك الأرض، ودائمًا ما أرسل الجنُّ بديلًا يأخذ مكانهم كيلا تفتقدهم عائلاتهم أو ينتبهوا إلى غيابهم. فكَّرت قليلًا في عجائب الأرض السحرية وفي بيتها، ثم قالت: «لا».

سألها الترول: «ولم لا؟».

أجابته: «لقد صنعت أمي الكعك المحشو بالمُربَّى هذا الصباح».

واستأنفت السير إلى بيتها. لولا الكعك المحشو بالمُربَّى لذهبت إلى الأرض السحرية.

ردَّد الترول في ازدراء: «مُربَّى!».

ثم فكَّر في بحيرات الأرض السحرية، وأوراق الزنابق الكبيرة التي تفترشُ سطحها، والزنابق الزرقاء الضخمة التى ترتفع في الضوء الأزرق فوق المياه الخضراء العميقة. لقد رفضت الطفلة كل هذا البهاء من أجل المُربَّى! ثم فكَّر في مهمته مجددًا، في اللفافة الرَّقِّية والتعويذة الرونيَّة التي كتبها الملك. هل الأميرة هنا؟ أم أن للبشر مقرَّات أخرى؟ وبينما يحلُّ الليل واصل الترول الاقتراب من البيوت تسلُّلًا، كي يستمع إلى ساكنيها دون أن يُرى.

***

الفصل الثامن

وصول التعويذة الرونيَّة الرئيسة

في صباح مشمس في مايو جلست الساحرة زيروندرِل بجوار المدفأة في غرفة الصبي تطهو له إفطاره. لقد أصبح في الثالثة من عمره، لكن ليرازِل لم تختر له اسمًا حتى الآن. لقد خشيت أن تسمع روحٌ شريرة باسمه وتستغله في إيذائه، على أنها لم تَبُح بخوفها، لكن ألڤيرك قال إن الصبي يجب أن يحظى باسم.

أصبح الصبي يستطيع لعب دحرجة الطوق. لقد صعدت الساحرة تلَّها في ليلة ضبابيَّة كي تجلب هالة قمريَّة حصلت عليها بتعويذة ألقتها على القمر وقت اكتماله، ثم دقَّتها لتصنع منها طوقًا. وصنعت عصا الدحرجة الصغيرة من حديد الشُّهب.

والآن كان الصبي في انتظار إفطاره. لقد ألقت الساحرة تعويذة على عتبة باب غرفته كي تبقى دافئة وتبعد عنها الفئران والجرذان والكلاب، وكي لا تجرؤ الخفافيش على التحليق بالقرب منها. لقد فاقت تلك

التعويذة أقوى الأقفال التي صنعها أمهر الحدَّادين. وتضمنت الغرفة أيضًا قطة المنزل اليقظة.

فجأة قفز الترول فوق عتبة الباب مارًّا بالتعويذة، وتشقلب في الهواء ليهبط جالسًا. توقفت الساعة الخشبية المُعلَّقة فوق المدفأة عند مجيئه، لأنه تحصَّن بحِرز ضد الزمان في صورة خاتم من عشب يتقلَّده في أحد أصابعه كيلا يفنى في الأرض التي نعرفها. إن الملك الساحر يدرك جيدًا كم تمرُّ ساعاتنا بسرعة: لقد مضت أربعة أعوام في أرضنا وهو يهبط الدرج النحاسي ويبعث في طلب الترول ويمنحه ذلك الحِرز ليضعه في إصبعه.

سألت الساحرة: «ماذا هناك؟».

يستطيع الترول الجواب بوقاحة، لكنه نظر إلى عيني الساحرة ورأى فيهما ما يخشاه. وكان مُحِقًّا في خشيته؛ لقد نظرت عيناها إلى عيني ملك الأرض السحرية من قبل. لهذا أبرز ورقته الرابحة، كما يقولون في أرضنا، إذ أجابها: «لديَّ رسالة من ملك الأرض السحرية».

قالت: «حقًّا؟ أجل، أجل. (أردفت تُحدِّث نفسها) لا بد أنها رسالة إلى سيدتي. هذا منطقي».

ظلَّ الترول جالسًا على الأرض يتحسَّس اللفافة الرَّقِّية التي تتضمن التعويذة الرونيَّة الرئيسة. من طرف مهده رأى الصبيُّ الترول فسأله: من يكون؟ ومن أين أتى؟ وما الذي يستطيع فعله؟ عندما طرح الصبي سؤاله الأخير قفز الترول في الغرفة مثل عثَّة تطير في سقف يضيئه نور مصباح. تنقَّل من الأرض إلى الأرفف والسقف في قفزات تشبه الطيران. صفَّق الصبي واغتاظت القطة. رفعت الساحرة عصاها الأبنوسية تلقي تعويذة ضد القفز، لكنها لم تستطع إيقاف الترول. ظلَّ يقفز ويقفز والقطة تصبُّ عليه كل اللعنات في هسهسة سنوريَّة. غضبت الساحرة

لإبطال أثر سحرها، ولأنها خشيت تحطُّم الأكواب والأطباق مثل عامَّة البشر. وطوال الوقت هتف الصبي بأنه يريدُ مشاهدة المزيد.

فجأة تذكر الترول مهمته، فسأل الساحرة: «أين الأميرة ليرازِل؟».

أجابته الساحرة بإشارة إلى برج الأميرة. لقد أردكت أن قوتها لا تكفي للحيلولة دون وصول تعويذة رونيَّة ابتدعها ملك الأرض السحرية إلى وجهتها. وحالما تأهَّب الترول للمغادرة دخلت ليرازِل الغرفة. انحنى الترول انحناءة شديدة تحيةً لسيدة الأرض السحرية دون أثر للمشاغبة، ثم جثا على إحدى ركبتيه أمامها، وقدَّم لها تعويذة الملك الرونيَّة الرئيسة. هتف الصبي بأمه واللفافة في يدها يطلب أن يقفز الترول مجددًا، استندت القطة إلى صندوقٍ تراقب ما يحدث، أمَّا زيروندرِل فكانت صامتة.

ثم فكَّر الترول في البِركات الخضراء الزاهية في الغابة السحرية التي تسكنها قبيلته، والزهور دائمة النضرة التي لا يمسُّها الزمان، ولون السكون الأبدي. لقد أتمَّ مهمته وضجر من الأرض بالفعل.

للحظات لم يتحرك أحد سوى الصبي الذي يهتف ويُلوِّح بذراعيه طالبًا قفزات الترول. وقفت ليرازِل تمسك باللفافة، الترول جاثٍ أمامها والساحرة ساكنة لا تأتي بحركة، والقطة تشاهدهم حانقةً، حتى إن الساعة كانت مُتوقِّفة، ثم تحركت الأميرة فنهض الترول وتنهدت الساحرة. وتوقفت القطة عن مراقبتهم إذ غادر الترول راكضًا رغم هتاف الصبي. لقد هبط درجًا حلزونيًّا، واجتاز بابًا وانطلق إلى الأرض السحرية. وحالما خطا فوق عتبة باب الغرفة عادت الساعة الخشبية إلى الدوران.

نظرت ليرازِل إلى اللفافة، ثم إلى طفلها. لكنها لم تفتحها، بل ذهبت إلى غرفتها ووضعتها في صندوق دون أن تقرأها، ثم أقفلته.

بعدما أصبحت التعويذة الرونيَّة الرئيسة في موضع آمن، ذهبت إلى ألڤيرك لتخبره بالخطر الذي اقترب منها، لكن ألڤيرك كان مهمومًا لأنها لم تختر اسمًا للصبي وحدَّثها في الأمر مجددًا. هكذا اقترحت أخيرًا اسمًا لابنهما لا يستطيع أحد في أرضنا النطق به؛ اسمًا سحريًّا عجيبًا تشبه مقاطِعه تغريد الطيور ليلًا، لكن ألڤيرك لم يقبله. كان اختيارها هذا مثل جميع اختياراتها؛ لا يستند إلى المعتاد في أرضنا، بل إلى هوىً ينبع من وراء الحدود في الأرض السحرية، حيث الخيالات التي نادرًا ما تزور أرضنا. انزعج ألڤيرك من تلك الأهواء لأنها ليست معهودة في إيرل، لا يستطيع فهمها أو التشاور مع أحد بشأنها. لقد حثَّ ليرازِل على أن تسترشد بالعادات الأرضية القديمة، لكنها كانت تنتظرُ إلهامًا يجيئها من الجنوب الشرقي. ناقشها بالمنطق الذي يُقدِّره البشر، لكن المنطق لم يعنِ لها شيئًا. هكذا عندما افترقا لم تكن قد أخبرته أي شيء عن الخطر الذي سعى وراءها من الأرض السحرية.

ذهبت إلى برجها، وتطلعت إلى الصندوق الذي يلمع في ضوء الغروب. التفتت عنه، ثم نظرت إليه مرارًا والشمس تغيب عن الحقول ليغشاها الليل. جلست بجوار النافذة المفتوحة التي تطلُّ على التلال الشرقية، تشاهد النجوم التي تعلو منحدراتها القاتمة. طالت مشاهدتها حتى لحظت تبدُّل مواضعها. من بين كل ما رأته منذ قدومها إلى أرضنا كانت النجوم أكثر ما أثار دهشتها. لقد راقها جمالها الرقيق، لكنها الآن كانت حزينة ونظرت إليها آسفةً لأن ألڤيرك أخبرها أنها لا يجب أن تعبدها. إن لم تعبدها فكيف لها أن توفيها حقها؟ كيف يمكنها أن تشكرها على جمالها؟ كيف يمكنها أن تمتدح وداعتها التي تبهج النفوس؟ ثم فكرت في طفلها ورأت كوكبة أورايون الصياد. فتحدَّت جميع الأرواح الشريرة

وهي تنظر إلى كوكبة النجوم تلك، التي يجب ألا تعبدها، واختارت أن تُسمِّي ابنها تيمُّنًا بهذا الصياد.

عندما أتى ألڤيرك إلى البرج أخبرته باختيارها. راق ألڤيرك الاسم، خاصةً لأن جميع أهالي الوادي يقيمون للصيد وزنًا. وبعدما رأى أن ليرازِل فكرت في هذه المسألة بمنطقية أخيرًا تجدَّد أمله، الذي لم يفقده، في أنها ستتحلى بالمنطق في جميع المسائل الأخرى، وستسترشد بالعادات وستحذو حذو الآخرين، وستهمل الأهواء والخيالات المُستمدَّة من وراء الحدود في الأرض السحرية، ثم طلب منها أن تتبع ديانة الكاهن فهي لم تمنح هذا الأمر الاهتمام الواجب، ولم تدرِ قط أيهما أكثر قدسية: شمعدان الكاهن أم جرسه، ولم تستوعب ما قاله ألڤيرك.

على أن ليرازِل قد أجابت طلبه بالقبول، فظنَّ أن كل شيء يسير على ما يرام، لكن أفكارها قد سرحت إلى أورايون، إذ لم يتوقف ذهنها عند المسائل الجادة طويلًا مثلما تبتعد الفراشات عن الظلال.

طوال تلك الليلة باتت التعويذة الرونيَّة الرئيسة في الصندوق المُقفَل. في الصباح التالي لم تُلقِ ليرازِل بالًا لها لأنها ذهبت مع ألڤيرك والصبي إلى المكان المُقدَّس. ذهبت زيروندرِل معهم لكنها انتظرت في الخارج. أتى من أهالي إيرل كل من استطاع ترك عمله في الحقول وحضر جميع رجال البرلمان الذين اجتمعوا بوالد ألڤيرك في الغرفة الطويلة الحمراء. ابتهج الحضور بمرأى الصبي موفور الصحة. وبينما هم واقفون بداخل المكان المُقدَّس، تهامسوا قائلين إن كل شيء يسير وفقًا لخطتهم. أتى الكاهن ووقف حوله أغراضه المقدسة وسمَّى الصبي بالاسم أورايون، ثم منحه اسمًا آخر من الأسماء المباركة. لقد سعد برؤية الصبي وتسميته لأنه كان أحد الكهنة الذين عاصروا جيلًا تلو الآخر من أجيال العائلة التي سكنت قلعة إيرل، وشاهدوا الزمان يمرُّ عليها مثلما نرى تعاقب

المواسم على شجرة عتيقة نعرفها. انحنى توقيرًا لألڤيرك وحيَّا ليرازِل كما ينبغي. لكن تحيَّته لم تكن قلبية، إذ إنه لم يُكِنَّ لها توقيرًا أكثر من توقيره حورية بحرٍ هجرت المياه.

هكذا أصبح اسم الصبي أورايون. هلَّل الأهالي عندما خرج الصبي مع والديه، اللذين قابلا الساحرة عند سور حديقة المكان المُقدَّس، وعادوا معًا إلى القلعة.

طوال ذلك اليوم لم تفعل ليرازِل ما قد يثير دهشة أحد. سمحت لعادات أهل الأرض وأساليبهم بأن تضبط تصرفاتها. فقط عند ظهور النجوم ولمعان كوكبة أورايون، انتبهت إلى أنها لم تمنحها الثناء الذي تستحقه، وتاقت إلى شكر أورايون. شعرت بالامتنان لضوء كوكبته الذي ينير الأرض، ولحمايته طفلها من الأرواح الشريرة. فاض قلبها بالامتنان الذي لم تنطق به، فقامت فجأة وغادرت برجها إلى الخلاء. رفعت رأسها إلى نجوم أورايون، لكنها ظلَّت صامتة رغم أن كلمات الامتنان ترتجف على شفتيها، لأن ألڤيرك أخبرها أن على المرء ألا يصلِّي للنجوم. وقفت ووجهها يتجه إلى السماء في صمت طاعةً لألڤيرك، ثم خفضت بصرها إلى بِركة صغيرة تتلألأ ليلًا ويتألق على صفحتها انعكاس النجوم.

حدَّثت نفسها قائلة: «إن الصلاة للنجوم أمر خاطئ بالتأكيد، لكن هذه الصور في الماء ليست النجوم. سأصلِّي لهذه الصور وستصل صلاتي إلى النجوم».

جثت على ركبتيها على حافة البركة تصلِّي وسط زهور السوسن. قدَّمت امتنانها لانعكاس النجوم على البهجة التي تشعر بها ليلًا عندما تلمع الكوكبات الجليلة، وتتحرك مثل جنود جيش مُظفَّر يتقلَّدون دروعهم الفضيَّة ويغزون أراضي بعيدة. بعدما امتنَّت لتلك الانعكاسات المتلألئة طلبت منها إيصال امتنانها إلى أورايون. عندئذٍ رآها ألڤيرك

هناك جاثية في الظلام ما حدا به إلى لومها. قال إنها تعبد النجوم التي لا تنفع ولا تضر، فقالت إنها تُمجِّد صورها.

يمكننا بسهولة تفهُّم شعوره تجاه غرابة طبعها وأفعالها غير المتوقعة، وتعارُضِها مع كل الثوابت واستهانتها بالعادات، وجهلها العنيد الذي يسيء إلى التقاليد العريقة كل يوم. لكن بقدر ما كان طبعها الحالم يُتغنَّى به، فقد صعَّب عليها أن تشغل المكانة التي شغلتها قبلها نساء القلعة الخبيرات بعادات أرضنا. وقد انتظر منها ألڤيرك أداء واجبات واتباع عادات غريبة عنها مثلها مثل النجوم اللامعة البعيدة.

لكن ليرازِل لم تلحظ غير أن النجوم لا تُوفَّى حقها. ورأت أن العادات، أو المنطق، أو أيًّا كان ما يقيم له البشر وزنًا يجب أن يدعو إلى حمد النجوم على جمالها. ثم إنها اليوم لم تحمدها، لقد مجَّدت صورها على سطح البِركة فقط!

في تلك الليلة فكَّرت في الأرض السحرية، حيث جميع الموجودات تضاهيها حُسنًا ولا تتبدَّل الأشياء، حيث لا توجد عادات غريبة أو جمال مهيب لا ينال الاعتبار اللائق مثل نجوم الأرض. فكَّرت في المروج وأحواض الزهور السحرية والقصر الذي نسمع به في الأغنيات فقط.

وفي الظلام داخل الصندوق المقفل لبثت التعويذة الرونيَّة الرئيسة في انتظار اللحظة المواتية.

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل التاسع

رحيل ليرازِل

مرَّت الأيام وانقضى الصيف في إيرل. بعدما سافرت الشمس شمالًا ارتحلت إلى الجنوب مجددًا، واقترب موعد رحيل السنونوات عن الأفاريز. لكن ليرازِل لم تتعلم أي شيء. لم تُصلِّ للنجوم مرة أخرى أو تمجِّد صورها، لكنها لم تكتسب العادات البشرية، وما تزال لا تفهم لمَ يجب ألا تعرب عن حبها وامتنانها لها. ولم يلحظ ألڤيرك أن فراقهما بات وشيكًا ولن يأتي به خلاف كبير بينهما.

ذات يوم اصطحبها إلى المكان المُقدَّس كي يُعلِّمها الكاهن كيف تعبد الرب؛ أحضر الرجل الطيب شمعته وجرسه، ووعاءً يحمل ماءً مُعطَّرًا، ومطفأة الشموع الفضية. وقف أمام العُقاب النحاسي الذي يحمل كتابه يخبرها بإيجاز ووضوح، كما فعل من قبل، أصل كل غرض من هذه الأغراض المقدسة والمعنى الذي يحمله. ذكر لها المغزى من صنع الوعاء من النحاس ومطفأة الشموع من الفضة، وشرح لها معنى

الرموز المنقوشة على الوعاء. حدَّثها بتهذيب ولطف، لكن شيئًا في صوته أخبرها أنه بعيد عنها، فأدركت أنه يتحدث إليها وكأنه يسير آمنًا على أحد الشواطئ ويهتف بحورية بحر تسبح وسط مياه خطرة.

عندما عادا إلى القلعة كانت السنونوات مجتمعة على شُرفاتها في صفوف تتأهب للهجرة. لقد قطعت ليرازِل وعدًا بعبادة الرب مثل جميع أهالي إيرل الذين يهابون قرع أجراس المكان المُقدَّس. تذكرت كل ما أخبرها به الكاهن بضعة أيام، فتجدَّد أمل أخير بداخل ألڤيرك يوهمه أن كل شيء يسير على ما يرام.

لكن ذات ليلة، وهي خارجة من غرفة الصبي تمرُّ بنوافذ طويلة في طريقها إلى برجها، تنظر عبرها إلى بهاء السماء دون أن تنسى أن عبادة النجوم محظورة، حاولت تذكُّر ما أخبرها به الكاهن وكم صعبت عليها هذه المهمة! اغتمَّت لأن السنونوات سترحل خلال بضع ساعات، وكثيرًا ما يتبدل مزاجها في غيابها. وخشيت أن تنسى الطريقة التي يُعبَد بها ربُّ الكاهن وألا تتذكرها أبدًا.

لهذا خرجت إلى الليل تسير فوق العشب تقصد غديرًا، التقطت منه بضع أحجار ملساء وهي تتجنب النظر إلى انعكاس النجوم. في ضوء النهار التمعت تلك الأحجار حمراء وبنفسجية بداخل المياه، لكنها الآن بدت قاتمة. بعدما أخرجتها من الغدير وضعتها على العشب. لقد راقتها تلك الأحجار الملساء لأنها ذكَّرتها، على نحو ما، بصخور الأرض السحرية. رتَّبتها في صف يُمثِّل أحدها الشمعة، والآخر الجرس، والآخر الوعاء. قالت: «إن تمرَّنت على العبادة بواسطة هذه الأحجار فسأتعلَّم عبادة ربِّ الكاهن».

ثم جثت أمام الأحجار تتصوَّرها أيقونات وتصلِّي لها.

ولمَّا خرج ألڤيرك في الليل يبحث عنها وهو يتساءل: أي هوى قد قادها إلى هناك؟ سمع صوتها يأتي من المرج تتلو صلوات مقدسة. عندما رآها تنحني أمام الأحجار الأربعة وتصلِّي لها أخبرها أن ما تفعل أسوأ الممارسات الوثنيَّة.

أجابته: «إنني أتعلم عبادة ربِّ الكاهن».

فقال: «بل إن هذا من الوثنيَّة».

في وادي إيرل كان أكثر ما يخشاه الأهالي هو الممارسات الوثنيَّة، التي لم يعلموا عنها شيئًا سوى أنها تنذر بالشرِّ. وقد انتاب ألڤيرك الغضب، مثل جميع الأهالي هناك، عند حديثه عن الوثنيَّة. آلم غضبه قلب ليرازِل لأنها كانت تحاول تعلُّم عبادة الربِّ سعيًا إلى إسعاده فحسب، وعلى الرغم من صدق محاولتها فإنه لم يرفق بها. ولأن ألڤيرك يظن ظنًّا أحمق أن على المرء ألا يبدي أيَّ رأفة في أيِّ أمر يتعلق بالوثنيَّة، فإنه لم يسيطر على غضبه ولم يطمئنها. هكذا عادت ليرازِل إلى برجها وحيدة حزينة، ولبث ألڤيرك يلقي الأحجار الأربعة في البِركة.

ثم غادرت السنونوات ومرَّت الأيام التعيسة. وذات نهار خريفي إذ تكتسي أشجار الحور بالأصفر الذهبي والأحمر، طلب ألڤيرك من ليرازِل أن تصلِّي للربِّ، لكنها نسيت الطريقة. فحدَّثها مجددًا عن خطأ الممارسات الوثنيَّة.

بعد تلك المحادثة ذهبت ليرازِل إلى برجها. فتحت الصندوق الذي التمع في ضوء الصباح الخريفي وأمسكت باللفافة، ثم أخذتها معها تقطع الردهة ذات السقف المُقبَّب، لتدخل برجًا آخر صعدت درجَه إلى غرفة الصبي. هناك أمضت اليوم كله مع طفلها واللفافة في يدها. رغم ابتهاجها عند المرح مع الصبي، فإن الساحرة زيروندرِل لحظت في عينيها جمودًا. وعند الغروب آوت الصبي إلى الفراش وجلست بجواره

تحكي له الحكايات في كآبة. راقبتها الساحرة العجوز، ورغم خبرتها الكبيرة فإنها لم تستطع سوى أن تُخمِّن ما سيحدث ولم تدرِ ما يجب عليها فعله.

قبل انقضاء الغروب قبَّلت ليرازِل الصبي وفتحت اللفافة الرَّقِّية. كان الغضب ما دفعها إلى أخذها من الصندوق المُقفَل، وما كانت لتفتحها لو لم تكن في يدها. والآن وجَّه بعض الغضب والفضول والمزاج المُتقلِّب عينيها إلى كلمات ملك الأرض السحرية المكتوبة بحروف غريبة سوداء.

أيًّا كان نوع السحر الذي تحمله تلك التعويذة الرونيَّة الرئيسة، الذي لا أعلم عنه سوى أنه قوي جدًّا، فإنها كُتبت بحبٍّ يفوق السحر قوَّة. لقد توهجت حروفها بحبِّ الملك لابنته. هكذا امتزجت في تلك التعويذة قوتان هائلتان: القوة العظمى في الأرض التي تنبسط وراء حاجز الشَّفق، والقوى العظمى في الأرض التي نعرفها؛ قوة السحر وقوة الحب. لو أراد ألقيرك أن يكفي حبُّه لأن تبقى ليرازِل معه دون أن تتأثر بالسحر لكان عليه أن يضع كل ثقته في ذلك الحب، لأن التعويذة الرونيَّة الرئيسة التي ابتدعها الملك أشدُّ قوة من رموز الكاهن.

حالما قرأت ليرازِل التعويذة بدأت الخيالات تتدفق من الأرض السحرية إلى حدودها مع أرض البشر. قد تحثُّ بعض هذه الخيالات مُوظَّفًا في المدن المعاصرة على مغادرة مكتبه رغبةً في الرقص على شاطئ البحر، وقد يدفع بعضها مُوظَّفي أحد المصارف إلى ترك الخزانات مفتوحة والخروج للتنزُّه، قاصدين المروج أو التلال التي يكسوها الخلنج. وقد يُلهِم بعضُها أحد الرجال شِعرًا وهو جالس في عمله. لقد استدعى الملك الساحر ذلك الفيض من الخيالات المؤثِّرة بقوة تعويذته الرونيَّة، وجلست ليرازِل وسطها عاجزة. وبينما الخيالات تتقدم عبر الحدود، تهتف وتغني وتتزاحم داخل عقلها المسكين، أصبح

جسدها أكثر خفَّة. ارتفعت قدماها وكأنها ستنهض. لقد عجزت الأرض عن التشبث بها، والآن تصبح ليرازِل طيفًا. لم يعد حبها للأرض ومن فيها قادرًا على إبقائها هنا.

الآن توافدت على ذهنها ذكريات طفولتها التي لا تتحدَّد بعُمر، بجوار بحيرات الأرض السحرية وغابتها الكثيفة ومروجها البهيجة، وفي القصر الذي نسمع به في الأغنيات فقط. رأت ذكرياتها بوضوح مثلما نرى الأصداف في المياه عندما ننظر إليها عبر طبقة جليدية شفافة تغطي بحيرة راكدة، لكنها باهتة قليلًا لأن مكانها في الجانب الآخر من الحاجز الجليدي. هكذا ومضت في ذهنها ذكريات الجانب الآخر من حاجز الشَّفق. تنسَّمت ليرازِل عطور الزهور العجيبة التي تتألق وسط المروج التي تعرفها. سمعت أصوات الموجودات في الأرض السحرية. مرَّت الأغنيات المسحورة بالحاجز ووصلت إلى حيث تجلس. جاءت تلك الأصوات والألحان والذكريات تطفو عبر الشَّفق؛ كانت الأرض السحرية كلها تهتف بها. ثم سمعت صوتًا عميقًا رصينًا، قريبًا إليها على نحو غريب. كان هذا صوت والدها.

عندئذٍ ارتفعت عن الأرض التي فقدت قبضَها عليها لأنها لم تعد ملموسة، وغادرت الغرفة طيفًا من الأحلام والخرافة والخيال. عجزت زيروندرِل عن إلقاء أي تعويذة لإبقائها، وعجزت ليرازِل عن الالتفات إلى ابنها وهي ترحل عن الغرفة.

في تلك اللحظة هبَّت رياح من الشمال الغربي. دخلت الغابة وجرَّدت أغصان الأشجار من أوراقها، ثم رقصت فوق التلال وهي تقود الأوراق الذهبية والحمراء التي خشيت هذه اللحظة، لكنها الآن ترقص احتفاءً بها. ارتفعت الرياح والأوراق المُلوَّنة تغمرها شمس الغروب بضوئها، وحملت ليرازِل بعيدًا عن الأرض.

***

الفصل العاشر

انزياح الأرض السحرية

في صباح اليوم التالي صعد ألڤيرك البرج يقصد الساحرة العجوز. كان قَلِقًا ومُرهَقًا جرَّاء البحث عن ليرازِل طوال الليل في شتَّى الأماكن. لقد أمضى ليلته يحاول تخمين أي خيال أغواها وإلى أين قادها. بحث عنها بجوار الغدير حيث جلست تصلِّي للأحجار، وبجوار البِركة حيث صلَّت للنجوم. هتف باسمها في جميع أبراج القلعة، هتف بها وسط الظلام، لكنه لم يتلقَّ غير الصدى جوابًا. لهذا أتى إلى الساحرة أخيرًا.

ولكيلا يلحظ الصبي خوفه لم يقل سوى: «إلى أين؟».

لكن أورايون لحظه وفهمه.

هزَّت زيروندرِل رأسها آسفة وقالت: «إلى طريق أوراق الأشجار، إلى طريق الجمال».

لكن ألڤيرك لم يسمع سوى المقطع الأول من جوابها، لأنه غادر بسرعة قَلِقًا مثلما جاء. ترك الغرفة، هبط الدرج، وخرج في الصباح العاصف كي يرى أين ذهبت أوراق الأشجار. لقد علقت عدَّة منها بالأغصان الباردة مدَّة أطول قليلًا لهذا لم تنطلق مع رفيقاتها، لكنها الآن تلحق بها. رآها ألڤيرك تتجه إلى الجنوب الشرقي في طريقها إلى الأرض السحرية. في الحال تقلَّد سيفه السحري، وأخذ مما قد يلزمه القليل. انطلق يجتاز الحقول، يتبع أوراق الأشجار التي يرشده بهاؤها الخريفي مثلما يرشد جميع البشر بمختلف الطرق. وصل إلى حقول التلال التي يكسو الندى عشبها ويعكس ضوء النهار فتتألَّق أوراق الأشجار في الهواء، لكن الماشية تخور فتصبغ الكآبةُ الأجواء.

في الصباح الهادئ الذي تجوبه الرياح الشمالية الغربية لم يستطع ألڤيرك الهدوء. كان ذاهلًا لأنه فقد عزيزًا فجأة. تحرك في عجلة واضطراب. طوال النهار شاهد الأفق في الجنوب الشرقي حيث اتجهت أوراق الأشجار. وفي المساء انتظر ظهور جبال الأرض السحرية، ثابتة أبديَّة، لا ينيرها ضوء نعرفه، وتصطبغ بلون زهور لاتنسني الباهتة، لكنها لم تظهر قط.

ثم رأى كوخ الدبَّاغ العجوز الذي صنع غمد السيف السحري. فكَّر في الأعوام التي مرَّت منذ أن رآه أوَّل مرَّة، رغم أنه لم يعرف عددها قط ولا يستطيع أن يعرفه، لأن أحدًا لم يصِغ المعادلة التي يمكن عن طريقها حساب مرور الزمان في الأرض السحرية. تطلع إلى الأفق مجددًا ينظر إلى موضع الجبال الذي يتذكره جيدًا؛ بعد نقطة محددة من واحدة من بلاط السقف الأردوازي تمتد السلسة الجبلية السحرية. ثم دخل الكوخ وكان الدبَّاغ العجوز في الداخل.

لقد تقدَّم الرجل في العمر كثيرًا. بدا أثر الزمان على طاولة عمله أيضًا. عندما رأى الرجلُ ألڤيرك تذكره ورحَّب بمجيئه. سأله ألڤيرك عن زوجته فقال: «لقد ماتت منذ وقت طويل».

عاود ألڤيرك الشعور بالحيرة من سرعة مرور تلك الأعوام، وزادته رهبة من الأرض السحرية. لكن هذا الشعور لم يكبح عجلته ولم يفكر في النكوص قط. واسى العجوز ببضع عبارات رسمية، ثم سأله: «أين جبال الأرض السحرية؟ ذات القمم الزرقاء الفاتحة؟».

ارتسمت الحيرة على وجه العجوز وكأنه لم يرها قط، وكأن ألڤيرك المُثقَّف يتحدث عن شيء يجهله. أجابه قائلًا إنه لا يعرفها. استنتج ألڤيرك أن العجوز يرفض الحديث عن الأرض السحرية مثلما حدث قبل أعوام. على أي حال، إن بضعة أمتار تفصل بينه وبين الحدود. سيجتازها وسيسأل هناك عن الطريق إن ظلَّت الجبال غائبة عن نظره. قدَّم العجوز له الطعام لكنه لم يبالِ به. أعاد سؤاله عن الأرض السحرية، فأكَّد العجوز أنه لا يدري شيئًا عنها. غادر ألڤيرك البيت إلى الحقل الذي يعلم أن حاجز الشَّفق الغامض يقع وراءه. هناك رأى جميع الفطريَّات تميل نحو الوجهة التي يقصدها. مثلما تنحني جذوع الأشجار القريبة إلى البحر بعيدًا عنه، فإن الفطريَّات وجميع النباتات التي مسَّها السحر، مثل: قفاز الثعلب، والبوصير، وبعض أنواع من الأوركيد، تميل ناحية الأرض السحرية عندما تنمو قريبة منها. هكذا يدرك المرء، قبل أن يسمع هدير الأمواج أو يشعر بأثر السحر، أنه وصل إلى البحر أو الأرض السحرية. عاليًا رأى ألڤيرك طيورًا ذهبية تحلِّق مضطربةً، فاستنتج أن عاصفة هبَّت في الأرض السحرية فابتعدت تلك الطيور إلى الجنوب الشرقي رغم أن الرياح في أرضنا قد هبَّت من الشمال الغربي. تقدَّم

إلى الأمام لكن الحاجز لم يظهر. قطع الحقل مثل جميع الحقول التي نعرفها، لكنه لم يصل إلى الأرض السحرية.

واصل السير وقلقه يشتدُّ. أصبحت الأرض عارية كئيبة يغطيها الحصى، بلا زهور أو ظلال أو ألوان، أو أي مناظر بديعة تستغرق في تخيُّلها بعد مغادرتها؛ لقد غاب عنها السحر. الآن رأى طائرًا ذهبيًّا يتجه إلى الجنوب الشرقي، فتبعه آملًا ظهور جبال الأرض السحرية التي ظنَّ أن ضبابًا سحريًّا يخفيها.

لكن السماء الخريفية كانت صافية، والأفق مُمتدًّا، ولم تظهر الجبال. لم يفهم ألقيرك أن الأرض السحرية قد انزاحت. لكنه عندما وصل إلى سهلٍ ناءٍ لم تصل إليه الرياح الشمالية الغربية، ورأى شجرة زعرور شاهدها مزدهرة في يوم ربيعي في طفولته، أدرك أن الأرض السحرية كانت هناك ولا بُدَّ أنها ابتعدت، لكنه لم يدرِ إلى أي مدى كان ابتعادها. لقد أدرك الحقيقة: مثلما يأتينا من الأرض السحرية بمختلف الطرق بهاءٌ تزدان به سنوات عمرنا، خاصة المبكرة منها، فإن الذكريات التي أضعناها، ودُمانا الوفيَّة التي خصصناها بمودتنا، تغادر أرضنا لتعود إلى الأرض السحرية مجددًا وتصبح جزءًا من سحرها. هذا تجلٍّ من تجليَّات قانون الأخذ والعطاء الذي يلحظه العلم في كل شيء. هكذا يسهم الضوء في نمو الغابات التي تنتج الفحم ويُستخدَم الفحم في الإضاءة؛ هكذا تصبُّ الأنهار في البحار، وتتجه تيارات البحار إلى الأنهار. إن جميع الأشياء، حتى الموت، تعطي وتأخذ.

على الأرض الجافة المنبسطة رأى ألقيرك لعبة من الخشب كانت قبل أعوام طويلة لا يستطيع إحصاءها تُبهِج أوقاته. ذات يوم تعيس كُسِرت، وذات يوم تعيس آخر طُرِحت بعيدًا. رغم مظهرها القديم فقد أحاطت بها هالة من الدهشة، من الغموض والروعة؛ إنه ذلك المزيج

الذي شعر به في طفولته. كانت مُلقاة هناك نبذتها الأرض السحرية مثلما ترقد بدائع البحر على الرمال وحيدةً عندما تنحسر الأمواج الزرقاء التي يعلوها الزَّبد.

بدا السهل الذي رحلت عنه الأرض السحرية كئيبًا. تناثرت في أرجائه أغراض ألڤيرك المنبوذة التي فقدها في طفولته. لقد تساقطت على مرِّ الزمان في الأرض السحرية الثابتة الأبدية لتصبح جزءًا من سحرها، والآن بعد انزياحها تُرِكت مُهمَلة. هناك سمع همهمة ألحان وأغنيات وأصوات قديمة تزداد خفوتًا، وكأنها لا تستطيع البقاء في الأرض التي نعرفها.

عندما غربت الشمس تألَّقت وردة بنفسجية شرقًا، حثَّت ألڤيرك على المضي قدمًا. لقد رأى بها بهاءً لا ينتمي إلى أرضنا، وكأن ضوء الأرض السحرية انعكس على سمائنا لينيرها. هكذا واصل السير يتأمل الأفق ويأمل أن يعثر عليها. ثم حلَّ الليل والتمعت نجوم الأرض. عندئذٍ وضع ألڤيرك جانبًا القلقَ المحمومَ الذي قاده منذ الصباح. جذب عباءته حوله، تناول بعض الطعام في حقيبته، ونام نومًا مضطربًا وسط أغراضه المنبوذة.

حالما بدأ طلوع الفجر أيقظه قلقه رغم ضباب أكتوبر الذي يواري الضوء. تناول ما تبقى من طعامه، واستكمل رحلته خلال الضباب. لم يبلغ سمعه صوتٌ من الأرض التي نعرفها لأن البشر لم يقصدوا قط هذه الناحية حيث كانت الأرض السحرية، والآن لم يذهب إلى ذلك السهل المهجور سوى ألڤيرك. لقد ترك وراءه صياح الديوك في بيوت البشر المريحة. والآن يسير في صمت غريب، تقطعه من حين لآخر همهمة الأغنيات المفقودة التي تخلَّفت عن انزياح الأرض السحرية، واليوم أصبحت أكثر خفوتًا منها بالأمس. عندما أشرقت الشمس لحظ ألڤيرك أن السماء تسطع بالضوء الأزرق المائل إلى الخضرة في أقصى الجنوب

الشرقي، فظنَّ مجددًا أنه يرى فيها انعكاسًا من الأرض السحرية، وأمل أن تلوح في الأفق قريبًا، لكن السهل امتد ولم تظهر قمم الجبال الزرقاء الفاتحة.

فكَّر أن الأرض السحرية ربما تكون قريبة منه تنير السحب بضوئها، لكنها تبتعد حالما يقترب منها، أو ربما ارتحلت قبل أعوام، لكنه واصل السير على أي حال. ثم وصل إلى مرتفع أرضي يخلو من العشب قد علَّق نظره وآماله عليه طويلًا. هناك وقف يُشرِف على الأرض المهجورة التي انبسطت أمامه حتى حافة السماء، لكنه لم يرَ معلمًا من معالم الأرض السحرية أو منحدرًا من منحدرات جبالها، حتى إن كنوز ذكرياته الصغيرة التي هجرها الانزياح أخذت تتضاءل لتحلَّ محلها أشياؤنا المعتادة. استلَّ ألڤيرك سيفه السحري الذي يستطيع التغلب على التعويذات، لكن هذا السيف لم يملك القدرة على إعادة السحر الغائب. لهذا، رغم تلويحه بسيفه فإن السهل المهجور ظلَّ كما هو: واسعًا وقاسيًا وموحشًا. ثم تقدَّم وسط الأرض المنبسطة، لكن الأفق تحرَّك معه دون أن يدري، وسرعان ما توقف عن الحركة وسط ذلك السهل الكئيب إذ اتضح له، مثلما يتضح لعديد من البشر عاجلًا أم آجلًا، أنه تاه عن الأرض السحرية.

***

الفصل الحادي عشر

في أعماق الغابة

في تلك الأيام، حاولت زيروندرِل تسلية الصبي بتعويذات وألاعيب أَلهته بعض الوقت. ثم بدأ يُخمِّن، في قرارة نفسه، أين كانت أمه. استمع إلى كل ما يُقال وتأمَّله طويلًا. مرَّت أيام كثيرة وأمه غائبة، لكنه لا ينطق بكلمة عمَّا يشغل فكره. لقد أدرك ممَّا لحظ، من النظرات والإيماءات والتعبيرات، أن رحيل أمه مثير للعجب. ورغم الأعاجيب الكثيرة التي خمَّنها فإنه لم يصل إلى الحقيقة. حتى قرَّر ذات يوم، أخيرًا، أن يسأل زيروندرِل عن الأمر.

على الرغم من الحكمة التي اكتسبتها الساحرة على مرِّ العصور، فإنها لم تدرك أن هذا السؤال الذي خشيت أن يطرحه يدور في ذهنه منذ أيام، ولم تُلهِمها حكمتها جوابًا أفضل من أن أمه قد ذهبت إلى الغابة. عندما سمع الصبي هذا الجواب قرَّر الذهاب إلى الغابة ليعثر عليها.

اعتاد أورايون في نزهاته مع زيروندرِل في وادي إيرل أن يرى المزارعين يسيرون في الجوار، والحدَّاد في ورشته المفتوحة، والأهالي جالسين عند مداخل بيوتهم، والرجال القادمين من مناطق بعيدة إلى السوق، وقد عرفهم جميعًا. كان أقربهم إليه ثريل هادئ الخُطى وأوث ذا الساقين الرشيقتين، لأنهما عندما يقابلانه يرويان له الحكايات عن التلال العالية والغابة الكثيفة. لقد راق أورايون في رحلاته القصيرة مع مُربِّيته أن يسمع الحكايات عن الأراضي البعيدة.

كانت توجد شجرة آس بجوار بئر تجلس زيروندرِل وتستند إليها في المساءات الصيفية، وأورايون يلهو على العشب أمامها. قد يمرُّ بهما أوث يحمل قوسه اللافت للنظر في طريقه إلى الغابة، وأحيانًا يمرُّ بهما ثريل. وفي كل مرة يرى أورايون أيًّا منهما فإنه يوقفه، ويسأله أن يسرد له حكاية عن الغابة. إن كان أوث المارَّ بهما فإنه ينحني في مهابة تحيةً للساحرة ويحكي للصبي عن سلوك الظباء، فيسأله الصبي تفسيرًا لسلوكها. عندئذٍ يشرد أوث بفكره وكأنه يتذكر أمورًا حدثت قبل زمن طويل، وبعد لحظات من الصمت يُفسِّر سلوك الظباء وفقًا للمتعارف عليه في التراث الشعبي.

وإن كان ثريل المارَّ بهما، فإنه لا ينظر إلى زيروندرِل ويسرد حكايته عن الغابة بصوت هادئ وإيقاع أسرع، ثم يمضي تاركًا أورايون يشعر أن الليل يزخر بالغموض. كانت حكاياته عجيبة تصف جميع أنواع الكائنات، ولم يَبُح بها لأحد سوى أورايون الصغير لأن الكثيرين، كما قال، يعجزون عن تصديق الحقيقة ولهذا لا يريدها أن تبلغ سمعهم. ذات مرة ذهب أورايون إلى بيته؛ كوخ صغير تملؤه جلود الحيوانات. على جدرانه عُلِّقت جلود الثعلب والغُرير والدَّلق، وتكدست أكوام منها في زواياه. كان كوخ ثريل الغريب أكثر إدهاشًا من أي بيت آخر دخله.

لكن الآن في الخريف قلَّما رأى الصبي ومُربِّيته ثريل وأوث، لأنهما في تلك الأمسيات الضبابية الباردة قلَّما يخرجان للجلوس بجوار شجرة الآس. لكن أورايون راقبهما من قلعته، وذات يوم رأى ثريل يغادر القرية مُتَّجِهًا إلى التلال فهتف به. ثبت ثريل في مكانه حائرًا قليلًا، لأنه عدَّ نفسه ضئيل الشأن، يصعب أن يلتفت إليه أحد في القلعة. ثم ركض أورايون نحوه وقال: «خذني إلى الغابة».

عندئذٍ استنتجت زيروندرِل أن أفكار الصبي بدأت تتجول فيما وراء الوادي، وأدركت أن لا تعويذة في جعبتها يمكنها أن تمنعه من اللحاق بتلك الأفكار.

أجابه ثريل قائلًا: «لا يا سيدي».

ونظر قلقًا إلى الساحرة التي تبعت الصبي وأبعدته عن ثريل، فواصل ثريل طريقه إلى العمل في أعماق الغابة وحده.

ولم يكن استنتاجها خطأً. لقد بكى الصبي ورأى الغابة في أحلامه. وفي اليوم التالي تسلل إلى بيت أوث وحده، وطلب منه أن يصطحبه معه عند الذهاب لصيد الظباء. وقف أوث على رقعة من جلد الغزال أمام حطب المدفأة المشتعل يُحدِّثه عن الغابة، لكنه لم يصطحب أورايون إليها، بل أعاده إلى القلعة. وشعرت زيروندرِل بالندم متأخرًا على قولها إن والدته ذهبت إلى الغابة، لأن كلماتها استدعت مبكرًا جدًّا روح التجوال التي كانت ستدركه لا بُدَّ. ولحظت أن تعويذاتها لم تعد تبهجه، لهذا سمحت له بالذهاب إلى الغابة أخيرًا. لكنها أولًا رفعت عصاها، وألقت تعويذة تستدعي بها روح الغابة إلى مدفأة غرفته كي تسكن الظلال، التي تزحف من النيران إلى الجدران، حتى أصبحت الغرفة غامضة مثل الغابة. وعندما لم تفلح تلك التعويذة في تسليته أو تلبية رغبته سمحت له الساحرة بالذهاب إلى الغابة.

ذات صباح، تسلل مرة أخرى إلى بيت أوث، يسير على العشب الجاف. لقد علمت الساحرة بخروجه، لكنها لم تُجبِره على العودة لأنها تعلم أن السحر لا يستطيع أن ينال من ميل البشر إلى التجوال بحُريَّة، صغارًا كانوا أو كبارًا، وأنها لن تستطيع إلجام ساقيه في حين أن قلبه قد ابتعد بالفعل. وإنَّ من طبع الساحرات أن يمِلن إلى الأشياء الأكثر غموضًا مثل القلوب. هكذا وصل الصبي إلى بيت أوث وحده، حيث الأزهار في حديقته ذابلة تتعلق بأغصان بُنِّية، إنْ تحسس بتلاتها يشعر باللزوجة؛ لقد حلَّ نوفمبر والصقيع ينتشر ليلًا. في تلك المرة كان أوث الذي يستعد للذهاب إلى الغابة في مزاج يسمح بتلبية رغبة الصبي. دخل أورايون الكوخ وأوث يتناول قوسه المُعلَّق على الجدار، وعندما أخبره الصبي بتوقه إلى الذهاب إلى الغابة لم يستطع الصياد في هذا المزاج رفضه.

حمل أوث أورايون على كتفه وغادرا الوادي. رآهما الأهالي على هذا الحال: يتقلَّد أوث قوسه، وينتعل خُفَّه الرقيق ويرتدي ثيابه الجلدية، وأورايون على كتفه يكسوه جلد شادنٍ دثَّره به أوث. بينما يبتعدان عن القرية ابتهج أورايون برؤية بيوتها بعيدةً لأنه لم يبعد عنها بهذا القدر من قبل قط. وعندما ظهرت التلال أمام عينيه شعر أنه لم يخرج للنزهة، بل انطلق في مغامرة. ثم لاحت الغابة الشتوية ذات الوقار الداكن فغمره الشعور بالمهابة والسعادة. لقد جاء به أوث إلى ظلامها وغموضها وملجئها.

دخل أوث الغابة بهدوءٍ شديد، حتى إن طيور الشحرور التي تحرسها جالسة على الأغصان يَقِظةً لم تفرَّ عند مجيئه. لقد أطلقت نغمات خافتة مرتابة، وأصاخت السمع وهو يمرُّ بها، ولم يتأكد لها قط أن إنسانًا قد اخترق روعة الغابة. عبر تلك الروعة والظلال والهدوء الشديد سار أوث

بثبات، وارتسمت على وجهه الجديَّة. في خطوات حذرة قطع الغابة، حيث يؤدي عمله الذي يحب. بعد قليل أنزل أورايون وسط السراخس البُنية وواصل التقدم وحده. شاهده أورايون يبتعد والقوس في يده اليسرى، حتى اختفى في الغابة مثل طيف في طريقه إلى لقاء أقرانه من الأطياف. وعلى الرغم من أن أورايون لم يواصل مغامرته فإن هيئة أوث دلَّته على أنه ذاهب إلى صيد خطير لن يبتهج بمشاهدته، لكنه ابتهج بتخيُّله أكثر من اللهو بالألعاب التي يمتلكها. وجلس في الغابة ينتظر عودة أوث حوله الغابة مهيبة فريدة.

بعد وقت طويل، سمع صوتًا أشد خفوتًا من الصوت الذي يُحدِثه الشحرور عندما يبعثر أوراق الأشجار الذابلة بحثًا عن الحشرات؛ لقد عاد أوث.

جلس أوث -الذي لم يعثر على ظبي- بجوار أورايون يطلق السهام على واحدة من الأشجار. بعد قليل جمع سهامه وحمل الصبي على كتفه عائدًا إلى المنزل. عندما خرجا من الغابة كانت عينا أورايون نديَّتين بالدموع. لقد أحبَّ أشجار البلُّوط الرمادية التي قد نمرُّ بها دون أن نلحظها، أو قد نراها فنشعر بحنين مؤقت إلى شيء نسيناه، أو نتلقَّى منها رسالة لا نفهم مغزاها. لكن أرواح تلك الأشجار أصبحت بمنزلة رفقائه. والآن يعود إلى إيرل وقد اكتسب صداقة تلك الجذوع الحكيمة التي أوحت إليه بمعانٍ كثيرة. كانت زيروندرِل في انتظاره عند بوابة القلعة عندما أعاده أوث. سألته قليلًا عن وقته في الغابة، واقتضبت في الإجابة عما قال، لأنها شعرت بالغيرة من الغابة التي اجتذبه سحرها الطبيعي بعيدًا عن تعويذاتها.

طوال تلك الليلة رأى أورايون في أحلامه أنه يصطاد الظباء في أعماق الغابة. في اليوم التالي غادر خلسةً إلى بيت أوث، لكنه لم يجده هناك. لقد خرج للصيد لأنه في حاجة إلى اللحم، لهذا ذهب إلى كوخ ثريل.

كان ثريل في كوخه الغريب وسط شتَّى أنواع الجلود عندما قال أورايون: «خذني إلى الغابة».

جلس ثريل على مقعد خشبي واسع بجوار المدفأة يتأمل رغبة الصبي، ثم تحدث عن الغابة. لم يكن حديثه عن الأمور البسيطة التي يعرفها أوث، مثل سلوك الظباء وصيدها واختلاف المواسم، بل تحدث عن الأمور التي أدركها وهو في أعماق الغابة وعندما يُظلِم الوجود؛ روى له حكايات عن البشر وجميع الحيوانات، أخبره الحقائق التي اكتشفها عن الثعالب والغُرير من مراقبتها عند الغروب. وبينما هو جالس هناك يُحدِّق إلى النيران، مُستغرِقًا في الحديث عن قاطني السراخس والعُلِّيق، غفل أورايون عن رغبته في الذهاب إلى الغابة، وجلس على مقعد صغير تكسوه الجلود مسرورًا. أخبر ثريل ما لم يخبر به أوث. قال إنه ظنَّ أن أمه قد تظهر عند واحد من جذوع أشجار البلُّوط يومًا ما، لأنها رحلت إلى الغابة لبعض الوقت. رأى ثريل أن ما قاله الصبي محتمل، لأن جميع الأمور الرائعة في نظره يمكن حدوثها في الغابة.

ثم جاءت زيروندرِل لتعيد أورايون إلى القلعة. في اليوم التالي سمحت له بالذهاب إلى أوث، وفي تلك المرة اصطحبه أوث إلى الغابة مجددًا. بعد بضعة أيام ذهب إلى كوخ ثريل الذي، فيما بدا، يكمن سحر الغابة في أركانه وفي خيوط العنكبوت التي تملأ زواياه، وهناك استمع إلى حكاياته المُشوِّقة.

ثم مرَّ الخريف وإذ بأوراق الأشجار داكنة وساكنة في الغابة عند غروب الشمس، وبدأ الشتاء يحطُّ رِحاله على التلال، وتنبأ ذوو الخبرة

في القرية بسقوط الثلوج. وذات يوم في الغابة رأى أورايون أوث يصطاد ظبيًا. شاهده يهيِّئه ويسلخه ويشطره، ويشدُّ أجزاءه بوثاق فتدلى رأس الظبي وقرناه. ثم ثبَّت الرأس إلى الكتلة الناتجة وحملها على كتفه، وبقوته الكبيرة سار بها إلى المنزل يرافقه الصبي الذي يفوقه ابتهاجًا.

في ذلك المساء ذهب أورايون إلى ثريل كي يحكي له ما شاهد، لكن حكايات ثريل كانت أكثر إمتاعًا.

ثم مرَّت الأيام واجتذبته زيارات الغابة وحكايات ثريل إلى كل ما يتعلق بالصيد. نمت بداخله روح تتناغم مع الاسم الذي يحمله، لكن الشِّق السحري من أصله لم يظهر بعد.

***

الفصل الثاني عشر

السهل غير المسحور

عندما أدرك ألڤيرك أنه فقد أثر الأرض السحرية كان المساء قد حلَّ ومرَّ يومان وليلة على رحيله عن إيرل. أمضى الليلة الثانية في السهل نفسه الذي انزاحت عنه الأرض السحرية. عند غروب الشمس رأى التقاء السماء الفيروزية والسهل الداكن المُغطَّى بالحصى في الأفق الشرقي. ومض الشَّفق، لكنه كان شفقًا أرضيًّا لا الحاجز الكثيف الفاصل بين أرضنا والأرض السحرية الذي يبحث عنه ألڤيرك. ثم بزغت النجوم التي نعرفها وأسفلها نام ألڤيرك.

استيقظ في الفجر الخالي من تغريد الطيور، يشعر بالبرد، يسمع أصواتًا قديمة خافتة تبتعد ببطء، وكأنها رؤى تعود إلى أرض الأحلام. تساءل إن كانت ستستطيع العودة إلى الأرض السحرية، أم أن الأرض السحرية قد أمعنت في الابتعاد ولن تلحق بها. فحص بنظره الأفق، لكنه

لم يرَ سوى السهل الصخري الموحش، لهذا التفت إلى الحقول التي نعرفها.

عاد سائرًا بلا عجلة وسط البرودة. شيئًا فشيئًا أدفأه المشي، ثم تولَّت شمس الخريف تدفئته. سار طوال النهار، وعندما تخضَّبت الشمس بالأحمر وبدت أكثر قربًا إلينا وصل إلى كوخ الدبَّاغ. بعدما رحَّب به العجوز سأله ألڤيرك بعض الطعام. كان يطهو عشاءه في قِدر بالفعل، وسرعان ما جلس ألڤيرك إلى الطاولة القديمة أمامه طبق مملوء بأرجل السناجب والقنافذ ولحم الأرانب. رفض العجوز تناول الطعام حتى ينهي ألڤيرك عشاءه. وقام على خدمته باهتمام شديد حتى شعر ألڤيرك أن الفرصة سنحت له. فالتفت إليه وهو يُقدِّم له قطعة لحم من ظهر الأرنب، وبدأ الحديث عن الأرض السحرية.

قال: «لقد ابتعد الشَّفق».

أجابه العجوز قائلًا: «أجل، أجل».

لكن صوته لم يوحِ بأي معنى، بغضِّ النظر عمَّا يدور في ذهنه.

- أين ذهب؟

- الشَّفق يا سيدي؟

- أجل.

- أجل، الشَّفق...

قال ألڤيرك: «الحاجز (ثم أخفض صوته دون أن يدري لماذا) الفاصل بيننا وبين الأرض السحرية».

عندما ذكر الأرض السحرية بدت الحيرة في عيني الرجل.

سأله ألڤيرك: «ألا تدري أن الأرض السحرية قد ابتعدت؟».

دُهِش العجوز ممَّا سمع وقال: «ابتعدت!».

فكَّر ألڤيرك أن دهشة العجوز بابتعاد الأرض السحرية لا بدَّ حقيقية. لكنها كانت تبعد عن منزله مسافة حقلين فقط، لهذا فهو على الأقل يعلم موضعها الأصلي.

قال: «كانت الأرض السحرية تقع على مقربة من هنا».

جالت عينا العجوز في الماضي، بدا وكأنه يبحث في سنوات بعيدة، ثم هزَّ رأسه حائرًا.

نظر ألڤيرك إلى عينيه مباشرة وقال: «أنت تدري بالأرض السحرية».

ظلَّ العجوز على صمته.

- أنت تدري أين كان الحاجز.

- إنني عجوز ولا يوجد من قد أشاوره ليُذكِّرني.

عندما قال ذلك أدرك ألڤيرك أنه يتحدث عن زوجته. أدرك أيضًا أنها لو كانت حيَّة تجلس معهما في تلك اللحظة لما أخبرته بشيء عن الأرض السحرية. عندئذٍ بدا أنه لا يوجد الكثير ليُقال، لكن الانزعاج دفع ألڤيرك إلى مواصلة الحديث رغم عدم جدواه.

سأل: «من يعيش في الجهة الشرقية من هنا؟».

أجابه العجوز: «الجهة الشرقية؟ لديك الشمال والجنوب والغرب يا سيدي. لم تبحث في الشرق؟».

وارتسمت على وجهه أمارات المناشدة لكن ألڤيرك لم ينتبه إليها. لهذا كرَّر سؤاله فأجابه العجوز: «لا يعيش أحد في الجهة الشرقية من هنا يا سيدي».

وكان هذا صحيحًا.

- ماذا كان يوجد هناك؟

التفت الرجل إلى القِدر الذي يغلي وتمتم بصوت غير مسموع قائلًا: «الماضي».

لم يُفسِّر ما قال ولم يقل المزيد. سأله ألڤيرك المبيت في كوخه تلك الليلة، فقاده العجوز إلى السرير الذي رقد فيه قبل أعوام كثيرة. قَبِلَ ألڤيرك السرير بلا اعتراض كيلا يشغل العجوزَ عن تناول عشائه. سرعان ما غلبه نوم عميق لينال قسطًا من الدفء والراحة أخيرًا. وجلس العجوز يتأمل كثيرًا من الأمور التي استنتج ألڤيرك أنه يعلمها.

عندما أيقظت طيور أرضنا ألڤيرك وهي تغرِّد في صباحٍ في نهاية أكتوبر يُذكِّرها بالربيع، نهض واجتاز باب الكوخ. قصد أعلى بقعة في الحقل الذي يقع أمام الجدار الخالي من النوافذ في بيت الدبَّاغ، والذي يواجه الأرض السحرية. هناك تطلع إلى الشرق، ورأى على امتداد خط الأفق السهل الصخري القاحل نفسه الذي رآه بالأمس وقبل الأمس. بعدما تناول الإفطار الذي أعدَّه له العجوز خرج مجددًا ليفحص الأفق. في أثناء الغذاء الذي تشاركه معه مُضيفه على استحياء، أثار الحديث عن الأرض السحرية. لحظ في كلمات العجوز وصمته ما قوَّى أمله في الوصول إلى معلومة عن موضع الجبال ذات القمم الزرقاء الفاتحة، لهذا اصطحبه إلى الخارج والتفت إلى الشرق، الذي تردَّد العجوز في الالتفات إليه. أشار إلى صخرة مُحدَّدة هي الأكثر قربًا ووضوحًا، ثم طرح سؤاله، يأمل أن يحصل على جواب مُحدَّد، عن شيء مُحدَّد: «منذ متى توجد تلك الصخرة هناك؟».

لكن الجواب نزل بأمله مثلما ينزل البَرَد بزهور التفاح، إذ قال العجوز: «إنها هناك، ويجب أن نعتاد وجودها».

تفاجأ ألڤيرك بهذا الجواب غير المتوقع، وعندما رأى أن الأسئلة المنطقية حول الأشياء المُحدَّدة لم تمنحه إجابة منطقية يئِس من

الحصول على معلومات عمليَّة تُوجِّه رحلته العجيبة. لهذا سار طوال النهار في الناحية الشرقية من الكوخ يشاهد السهل الكئيب الذي لم يتحرك أو يتغير قط. لم تظهر الجبال المنشودة، ولم تعد الأرض السحرية. في آخر النهار تألقت الصخور وسط أشعة الشمس الواطئة وأظلمت عند غروبها، يتبدَّل مظهرها مثلما يتبدَّل مظهر أرضنا كله، بلا مسحة من بهاء الأرض السحرية. حينئذٍ قرَّر ألڤيرك بدء رحلة كبيرة.

عاد إلى الكوخ، وأخبر الدبَّاغ أنه بحاجة إلى شراء لوازم كثيرة بقدر ما يستطيع حمله. في أثناء العشاء حدَّدا معًا الأغراض اللازمة. تعهَّد العجوز بالمرور ببيوت الجيران غدًا. أخبره ماذا سيجلب من بيت كل منهم، وما عساه يصطاد إن وفَّقه الرب في الصيد.

لقد عزم ألڤيرك على مواصلة الترحال شرقًا حتى يعثر على الأرض المفقودة. خلد إلى النوم مبكرًا، ونام نومًا طويلًا ينفض عنه تعب السعي وراء الأرض السحرية. ثم أيقظه العجوز عندما عاد من الصيد. وبينما يتناول ألڤيرك إفطاره وضع العجوز الحيوانات التي اصطادها في قِدر كبير فوق النيران. وأمضى النهار يتنقل بين بيوت الجيران القاطنين في المزارع الصغيرة على حافة أرضنا. اشترى اللحم المُملَّح من بيت، والخبز من غيره، والجبن من آخر، وعاد إلى بيته في الوقت المناسب مُحمَّلًا بالطعام ليعدَّ العشاء.

حمل ألڤيرك حقيبته وجِوالًا بعدما ملأهما بالطعام الذي أثقل كاهل العجوز. وملأ بالمياه زجاجته وقِربتين صنعهما الدبَّاغ، لأنه لم يرَ جداول في السهل المقفر. ثم خرج مُزوَّدًا بمؤونته يبتعد عن الكوخ قليلًا، ودقَّق النظر إلى السهل الذي انزاحت عنه الأرض السحرية، ثم عاد راضيًا لأنه يستطيع حمل مؤونة تكفيه أسبوعين.

وفي المساء، بينما يعدُّ العجوز لحم السناجب، خرج ألڤيرك مجددًا إلى الحقل أمام جدار البيت الخالي من النوافذ، يأمل أن تبرز الجبال الزرقاء الفاتحة من بين السحب التي يسبغ الغروب عليها صبغته، لكن الشمس غربت، ولم تظهر أي قمَّة جبلية، وانقضى أكتوبر.

في الصباح التالي تناول ألڤيرك الإفطار، ثم حمل مؤونته وأعطى مُضيفه أجرته وبدأ رحلته. عند باب الكوخ الذي ينفتح جهة الغرب ودَّعه الدبَّاغ العجوز وتمنَّى له التوفيق، لكنه لم يَدُر حول كوخه ليشاهده يتَّجه شرقًا، ولم يُشِر إلى رحلته قط. لقد بدا وكأن البوصلة في نظره تشير إلى ثلاثة اتجاهات فقط.

كان الصباح الخريفي في بدايته عندما غادر ألڤيرك الحقول التي نعرفها إلى السهل الذي رحلت عنه الأرض السحرية بلا عودة، يحمل جِواله على كتفه وسيفه على خاصرته. لقد ذبلت شجرة الذكريات، وأصبحت الأغنيات القديمة وأصوات الماضي التي تسكن ذلك السهل خافتةً مثل التنهيدات. بدا وكأنها أصبحت أقل عددًا؛ كما لو أن بعضها قد مات بالفعل، أو أنها ذاقت المشقة وهي تحاول العودة إلى الأرض السحرية.

قضى ألڤيرك اليوم كله سائرًا بحماس يَسِم بدايات الرحلات، أعانه على المضي قدمًا رغم المؤونة وحزمة الحطب التي يحملها، والدثار الكبير الذي يلفُّه حول كتفيه مثل عباءة ثقيلة، والعصا التي يمسكها بيده اليمنى. بدا مظهره غريبًا مُتنافِرًا بعصاه وسيفه وجِواله، لكن قلبه وعقله كانا يتبعان فكرة واحدة، إلهامًا واحدًا، أملًا واحدًا. في مثل هذا الموقف يبدو جميع البشر غرباء.

عند الظهيرة توقف لتناول الطعام وأخذِ قسط من الراحة، ثم واصل رحلته حتى المساء. عندئذٍ لم يسترح كما اعتزم أن يفعل لأن الشفق

أضاء السماء الشرقية، فواصل ألڤيرك السير كي يتأكد أن الضوء الذي يراه ليس ضوء الحاجز الذي يفصل الأرض التي نعرفها عن الأرض السحرية، لكن الشفق ظلَّ أرضيًّا، ثم ظهرت النجوم المعتادة التي تطلُّ على الأرض. جلس ألڤيرك وسط الصخور الخشنة الغليظة، تناول الخبز والجبن وشرب الماء. عندما بدأت البرودة تغشى السهل أشعل النيران في حزمة الحطب الصغيرة، ورقد بالقرب منها يتغطَّى بالدثار. وقبل أن تنطفئ الجمرات غلبه النوم.

ثم طلع الفجر دون زقزقة أو حفيف، طلع الفجر في صمت وبرد. ولم يُرحِّب شيء في ذلك السهل الممتد بعودة الضوء. فكَّر ألڤيرك أن الظلام لو خيَّم على تلك الصخور إلى الأبد لما انزعج، لأن الضوء يريه مظهرها الكئيب؛ الآن في غياب الأرض السحرية يَحسُن الظلام. ورغم أن الكآبة في ذلك السهل غير المسحور تسللت إلى روحه في برودة الفجر، فإن أمله الناري توهَّج، ولم يمنحه سوى قليل من الوقت لتناول إفطاره بجوار البقعة السوداء حيث اتَّقدت نيرانه الوحيدة، قبل أن يحثَّه على الإسراع إلى الشرق ويطأ الصخور. طوال ذلك الصباح سار بلا رفيق من العشب. لقد عادت الطيور الذهبية التي رآها قبلًا إلى الأرض السحرية، أمَّا طيور الأرض التي نعرفها وجميع الأحياء فيها فقد هجرت ذلك السهل الخراب. ارتحل ألڤيرك وحيدًا مثل رجل يعود بذاكرته إلى الوراء كي يزور مشاهد باهرة، لكن بدلًا من تلك المشاهد الباهرة أصبح في مكان غاب عنه البريق. كان حمله أقل ثقلًا لكنه أكثر إرهاقًا بعد سفر اليوم السابق. عند الظهيرة استراح طويلًا، ثم تابع الرحلة. انبسطت أمامه صخور تُعَد ولا تُحصى جعلت الأفق يبدو متعرجًا، ولم تظهر الجبال الزرقاء الفاتحة. في ذلك المساء أوقد ألڤيرك نارًا أخرى بمخزونه من الحطب الذي يتناقص. كشف لهبها الذي لا يرتفع سواه وسط القفر عن

وحدة ألڤيرك القاسية. بينما هو جالس بجوار النيران فكَّر في ليرازِل وتشبث بأمله، لكن نظرة سريعة على الصخور حوله كانت لتُحذِّره من الأمل. لقد دلَّ شيء في مظهرها الفوضوي على طبيعة السهل الذي يحتويها، وألمحت إلى أنه لا متناهٍ.

***

الفصل الثالث عشر

تكتُّم الدبَّاغ العجوز

أمضى ألڤيرك عدة أيام وسط الصخور الرتيبة حتى أدرك أن الرحلة نفسها تتكرر كل يوم، وأن سفره مهما طال فلن يُحدِث أي تغيير في مظهر الآفاق الوعرة، التي تتشابه في كآبتها ولا تلوح فيها الجبال الزرقاء الفاتحة. لقد جاب السهل عشرة أيام يخفُّ حِمله يومًا تلو آخر. والآن، إذ حلَّ المساء، أدرك ألڤيرك أخيرًا أنه إذا ابتعد أكثر ولم يستطع رؤية قمم جبال الأرض السحرية قريبًا فسيهلك جوعًا، لهذا تناول قليلًا من طعام العشاء في الظلام، إذ نفدت حزمة الحطب قبل وقت طويل، وفَقَدَ الأمل الذي حثَّه على التقدم. حالما ظهر خيط من الضوء يدلُّه على اتجاه الشرق، تناول القليل ممَّا ادخره من عشائه، ثم أخذ يخطو خطوات ثقيلة عائدًا إلى الحقول التي نعرفها، يطأ صخورًا ازدادت قسوةً لأنه يبتعد عن الأرض السحرية. طوال ذلك النهار لم يتناول سوى ما يسد الرمق، وبحلول الليل تبقى معه من المؤونة ما يكفيه أربعة أيام.

لقد أمل أن تصبح رحلة العودة أسرع لأن حِمله أخفَّ، لكنه لم ينتبه إلى أن وطأة تلك الصخور الرتيبة التي تُثقِل النفس والجسد ستشتدُّ عند ضياع الأمل. لم يكن قد فكَّر في العودة على الإطلاق حتى حلَّ المساء العاشر والجبال الزرقاء الفاتحة غائبة. ولم يكسر رتابة رحلة العودة سوى مخاوف عَرَضية من عجزه عن الوصول إلى الحقول الحدودية.

وعلى الرغم من أن تلك الصخور أكبر حجمًا وسُمكًا من شواهد القبور وليست منحوتة بدقة مثلها، فإن السهل شابه مقبرةً مترامية الأطراف، ذات شواهد قبور غير منقوشة تعلو جثثًا مجهولة. سار ألڤيرك في الصباحات الضبابية والظُّهورِ البليدة. استرشد بالشمس عند الغروب. أمضى مساءات كئيبة تخلو من الطيور وليالي قارسة. مرَّ أكثر من أسبوع منذ بدأ رحلة العودة ونفد ما معه من ماء، لكن الحقول التي نعرفها لم تظهر، ولم يرَ أي شيء يألفه أكثر من تلك الصخور التي كانت لتُضلِّه لولا شمس نوفمبر الحمراء وبعض النجوم العطوف. أخيرًا، عندما نزل المساء بذلك السهل الصخري، ظهرت غربًا نافذة أسفل سقف كوخ بشري، كانت شاحبة في ضوء الغروب الأخير، وازدادت وضوحًا شيئًا فشيئًا. تقدَّم ألڤيرك نحوها حتى غلبه التعب والظلام واستلقى لينام. تألقت تلك النافذة الصفراء الصغيرة في أحلامه، ومنحته أملًا هائلًا وكأن منبعه الأرض السحرية.

عندما استيقظ في الصباح بدا الكوخ عاديًّا بسيطًا، يختلف عن صورته في أحلامه التي مدَّته بالأمل وآزرته في وحدته. وقد تعرَّف إليه، إنه كوخ ليس بالبعيد عن كوخ الدبَّاغ العجوز. سار ألڤيرك حتى صادف بِركة ارتوى منها، ثم وصل إلى حديقة تعمل فيها امرأة سألته من أين يأتي. قال إنه آتٍ من الشرق وأشار إليه، لكنها لم تفهم جوابه. ثم عاد

إلى الكوخ الذي بدأ منه رحلته، كي يسأل الدبَّاغ العجوز الذي استضافه مرتين أن يستضيفه مرة أخرى.

كان العجوز واقفًا عند مدخل كوخه عندما وصل ألڤيرك متعبًا. رحَّب به كالمعتاد، وقدَّم إليه الحليب ثم الطعام. أكل ألڤيرك واستراح طوال النهار، وفي المساء شرع في الكلام. عندما جلس إلى طاولة العشاء وسط الدفء والنور شعرَ بحاجة ماسة إلى الحديث إلى إنسان. باح للعجوز بقصة رحلته الكبيرة في السهل الذي انقطع عنه البشر وهجرته الطيور والحيوانات والأزهار، أخبره بوقائع الوحدة والخراب. استمع العجوز إلى كلماته المؤثِّرة، لكنه لم يقل شيئًا. أدلى ببعض التعليقات فقط عندما تحدث ألڤيرك عن الحقول التي نعرفها، واستمع إليه في تهذيب لكنه لم يقل كلمة واحدة عن السهل الذي انزاحت عنه الأرض السحرية. بدا الأمر وكأن الأرض الواقعة جهة الشرق وهمٌ أفاق منه ألڤيرك، أو حلمٌ استيقظ منه، ولا يوجد ما يُقال حول غرائب الأحلام. لم ينطق العجوز بكلمة عن الأرض السحرية، أو أي شيء يبعد ثمانين مترًا شرق باب كوخه الريفي. أوى ألڤيرك إلى الفراش، وجلس الدبَّاغ العجوز بمفرده يفكر فيما سمع آسفًا حتى خفتت نيران مدفأته. في اليوم التالي أمضى ألڤيرك وقته في الاستراحة والتجول في حديقة الكوخ، وحاول الحديث مع مضيفه عن رحلته في السهل المقفر مجددًا، لكنه لم يسمع منه إقرارًا بوجود الأرض السحرية، ولحظ تجنبه الحديث عنها وكأن ذكرها سيجعلها تقترب.

لهذا استغرق ألڤيرك في تأمل عدة مسائل. هل ذهب العجوز إلى الأرض السحرية في شبابه وعاش تجربة صعبة؟ هل بالكاد نجا من الموت أو من حب كبير؟ هل الأرض السحرية حقيقة غامضة لا تتأثر بكلمات البشر؟ هل الأهالي الذين يعيشون على حدود أرضنا يعلمون

ببهاء الأرض السحرية، لكنهم يخشون أن يجتذبهم إليها الحديث عنها رغم إرادتهم التي بالكاد تمسكهم عنها؟ هل يمكن أن تؤدي كلمة عن الأرض السحرية إلى اقترابها من الأرض التي نعرفها كي تسبغ عليها السحر والغموض؟ لم يجد ألڤيرك جوابًا لكل هذه التساؤلات.

بعد يوم آخر من الراحة قرر ألڤيرك العودة إلى إيرل، وفي الصباح التالي تجهز للرحيل. خرج معه مُضيفه يودِّعه ويتحدث عن عودته إلى موطنه وشؤونه، إذ إنَّ إيرل مثار الحديث في كثير من الحقول الزراعية الحدوديَّة. بدا واضحًا التباين الكبير بين استحسان العجوز الطيب الحقول التي نعرفها، حيث بدأ ألڤيرك رحلته الآن، وإعراضه عن تلك الأرض الأخرى التي يهفو إليها ألڤيرك. ثم افترقا، خفت صوت العجوز بالوداع، ورجع إلى كوخه مرتاحًا تسُرُّه رؤية إنسان عرف الأرض السحرية يعود إلى موطنه عبر الحقول التي نعرفها.

في تلك الحقول انتشر الصقيع. سار ألڤيرك فوق العشب الرمادي الجاف يتنفس هواءً نقيًّا مُنعِشًا، لا يشغل فكره موطنه أو ابنه، بل يخطِّط للعودة إلى الأرض السحرية. فكَّر أن الشمال قد يقوده إلى وجهته. ربما يوجد طريق شمالي دائري يقود إلى الجبال الزرقاء الفاتحة. لقد أصبح واثقًا أن الأرض السحرية ابتعدت كثيرًا حتى لا يستطيع الوصول إليها. لكنه تصوَّر أن انزياحها ليس بطول حاجز الشَّفق كله، حيث تتماسُّ الأرض السحرية وأرضنا كما تغنَّى الشعراء. سيتجه إلى الشمال لا الشرق، وسيعثر على الحاجز ثابتًا هادئًا؛ سيرشده إلى الجبال الزرقاء الفاتحة، وسيرى زوجته مجددًا. دارت هذه الأفكار في ذهنه وهو يقطع الحقول البهية التي يغشاها الضباب.

في الظهيرة وصل إلى الغابة التي تُشرِف على إيرل مُفعَمًا بالخطط والأحلام حول تلك الأرض الخيالية. دخل الغابة مُستغرِقًا في أفكار

سافرت إلى مكان بعيد، وسرعان ما رأى دخان نيران على مقربة منه يرتفع وسط جذوع أشجار البلُّوط الداكنة. اتجه إليه ليرى من هناك، وهناك وجد ابنه وزيروندرِل يدفئان أيديهما.

حالما رآه أورايون سأله: «أين كنت؟».

- في رحلة.

أردف الصبي: «إن أوث يصطاد الآن».

ثم أشار إلى الاتجاه الذي تهب منه الرياح لتؤجِّج النيران. لم تقل زيروندرِل شيئًا لأنها رأت في عيني ألڤيرك أكثر ممَّا كان ليبوح به إن سألته. ثم أراه أورايون جلد الظبي الذي يجلس فوقه وقال: «أوث من اصطاده».

بدا أن السحر يصبغ كل ما يحيط بالحطب الذي يشتعل بهدوء في الغابة، حيث ألقى الخريف رداءه ليكسوها بجماله، لكن منبعه لم يكن الأرض السحرية ولم تستدعه زيروندرِل بعصاها، بل كان سحر الطبيعة نفسها.

هناك وقف ألفيرك صامتًا بعض الوقت، يشاهد الصبي والساحرة جالسين في الغابة بجوار النيران. وأدرك أن الوقت قد حان ليُخبر أورايون بأمور ليست واضحة وتثير حيرته حتى الآن. لكنه لم يتحدث عنها حينئذٍ، بل قال شيئًا عن إيرل، ثم استدار يتجه إلى قلعته. وعادت زيروندرِل والصبي مع أوث لاحقًا.

في القلعة طلب ألڤيرك تجهيز العشاء، وبينما يتناول الطعام وحده في القاعة الكبرى في قلعة إيرل فكَّر في الكلمات المناسبة للتعبير عمَّا يريد قوله. في المساء ذهب إلى غرفة ابنه وأخبره أن والدته رحلت إلى الأرض السحرية، إلى قصر والدها (الذي نسمع به في الأغنيات فقط).

أخبر أورايون مباشرةً بالحقيقة الموجزة التي جاء كي يسردها، وأخبره أيضًا أن الأرض السحرية قد اختفت.

قال أورايون: «لكن هذا غير ممكن، لأنني أسمع أبواق الأرض السحرية كل يوم».

سأله ألڤيرك: «هل تستطيع سماعها؟».

أكَّد أورايون: «أجل، أسمعها تدوِّي في المساء».

***

الفصل الرابع عشر

رحلة البحث عن جبال الأرض السحرية

نزل الشتاء بـإيرل وأحكم قبضته على الغابة، فأصبحت غُصَيناتها جافة مُتيبِّسة. في الوادي جمدت الجداول، وفي المراعي صار العشب هشًّا مثل الخزف. ارتفعت أنفاس الحيوانات وكأنها دخان نيران المُخيَّمات. ما يزال أورايون يذهب إلى الغابة متى يصطحبه أوث، وأحيانًا يذهب مع ثريل. عندما يذهب مع أوث يرى الغابة ملأى بحيوانات الصيد البديعة، وتلوح الظِّباء الرشيقة في الأرجاء البعيدة. لكن عند ذهابه مع ثريل يسكن الغابةَ غموض شديد، فلا يدري أي كائن قد يظهر أمامه أو ما يختبئ خلف جذوع الأشجار. حتى ثريل لم يدرِ بجميع الحيوانات التي تقطن تلك الغابة. كان دقيق الملاحظة فأدرك وجود أنواع كثيرة منها، لكن من يجزم أنه قد رآها كلها؟

عند غروب الشمس في الأمسيات السعيدة التي يطيل فيها الصبي المكوث في الغابة، دائمًا ما يسمع دويَّ الأبواق المُتعاقِب يأتي من

الشرق، بعيدًا وخافتًا، مثل نداء الاستيقاظ الذي يتسلل إلى الأحلام. دوَّت تلك الأبواق من وراء الغابة، من وراء التلال وأبعد منحدراتها، وقد عرفها أورايون باسم الأبواق الفضية للأرض السحرية. لم يتمتع أورايون بمميزات خاصة باستثناء قدرته على سماع تلك الأبواق السحرية، التي تتخطى موسيقاها نطاق السمع البشري قليلًا، ومعرفته بما تكون. بخلاف هذين الأمرين كان طفلًا بشريًّا تمامًا.

إنني لا أدري كيف اجتاز دويُّ الأبواق حاجز الشَّفق لتسمعه أذن بشرية، لكن الشاعر تنيسون يصف أبواق الأرض السحرية بأنها «تدوِّي خافتة» في أرضنا[1]. وإنني أعتقد أن اتباع الشعراء المُلهِمين يُجنِّبنا الخطأ. لهذا، رغم أن العلم قد يؤكد هذا الأمر أو ينفيه، فإنني أسترشد بالشطر الذي كتبه تنيسون حوله.

في تلك الأيام جاب ألڤيرك قرية إيرل واجمًا، تدور أفكاره حول الأرض السحرية. توقف عند بيوت كثيرة، يتحدث إلى الأهالي ويضع الخطط، وعيناه تبدوان مُثبَّتتين على أشياء لا يمكن لأحد سواه رؤيتها. كان يتطلع إلى آفاق بعيدة تلوح فيها الأرض السحرية. وفي أثناء انتقاله من بيت لآخر جمع عددًا من الرجال لتشكيل فِرقة.

لقد حلم بأن يعثر على حاجز الشَّفق في الشمال، بأن يقطع الأرض التي نعرفها بحثًا عن آفاق جديدة، حتى يصل إلى موضع لم تبتعد عنه الأرض السحرية. لقد كرَّس حياته لتحقيق هذا الهدف.

عندما كانت ليرازِل معه سعى إلى اكتسابها ثقافة أهل الأرض التي نعرفها. والآن بعدما رحلت سعى وراء الأرض السحرية التي سكنت أحلامه وتسكنها حبيبته. ملأ مستودعًا كبيرًا بالخيول والطعام من أجل فرقته، أثار دهشة من يرونه، وجعل الأهالي ينظرون إليه بارتياب. لقد

(1) شطر من قصيدة «The Splendour Falls» للشاعر ألفريد لورد تنيسون. م

سأل كثيرًا من الرجال الانضمام إلى فرقته الغريبة، لكن قلَّة منهم قبلوا الذهاب معه لمطاردة الآفاق. كان أول من وافق على الانضمام إلى تلك الفرقة شابٌ لوَّعه الحب، تلاه راعٍ يعتاد الأماكن الموحشة، يليه شابٌّ آخر سمع أغنية عجيبة غنَّاها أحدهم ذات مساء، أخذت أفكاره إلى أراضٍ وهمية، لهذا انتهز الفرصة التي سنحت له سعيدًا بملاحقة خياله. وفي ليلة صيفية دافئة أشرق بدر عملاق على شاب راقد وسط أكوام التِّبن، قال إنه رأى في ضوئه أشياء عجيبة. لم يرَ أحد في إيرل هذه الأشياء التي ربما توهَّمها، وانضم إلى فرقة ألڤيرك حالما حدَّثه عنها. استغرق عثور ألڤيرك على أولئك الرجال الأربعة أيامًا عديدة، ولم ينجح أن يضم إليهم سوى شاب آخر مجنون، كي يعتني بالخيول التي يفهمها جيدًا وتفهمه بدورها، رغم أنه لا إنسان يستطيع فهمه باستثناء والدته. لقد بكت عندما قرَّر الذهاب مع ألڤيرك لأنه عماد حياتها.

قالت إنه يعرف متى تهب العواصف ومتى تهاجر السنونوات. يعلم ألوان الزهور التي ستخرج من البذور التي زرعتها في حديقتها وأين تبني العناكب شباكها، ويسرد حكايات الحيوانات التراثية. قالت باكيةً إن ما سيغيب بغيابه أكثر ممَّا قد يتصوره أهل إيرل، لكنه رحل عنها مع ألڤيرك مثلما يرحل عنا كثيرون.

هكذا ذات صباح، اجتمعت ستة خيول مُحمَّلة بالمؤن عند بوابة قلعة ألڤيرك، بجوارها الرجال الخمسة الذين سيتجهون معه إلى حافة الأرض. لقد استشار زيروندرِل في هذه المسألة طويلًا. قالت إن سحرها الأرضي لا يستطيع الوصول إلى الأرض السحرية، أو أن يتخطى إرادة ملكها المهيبة. لكن ألڤيرك عهد إليها برعاية أورايون لأنه يعلم جيدًا أنَّ لا سحر غير أرضي، أو لعنة، أو تعويذة ضد الصبي، تستطيع إحباط تعويذاتها الحامية. أمَّا فيما يخصُّه فقد آمن بالفلاح الذي ينتظر المُثابرين في

نهاية الرحلات الطويلة المرهقة. تحدث إلى أورايون طويلًا، إذ إنه لا يدري كم من الوقت قد تستغرق تلك الرحلة حتى يعثر على الأرض السحرية مجددًا، أو كم ستصعب عودته عبر حاجز الشَّفق. وسأله ماذا يريد أن يفعل عندما يكبر.

أجابه الصبي: «أن أصبح صيادًا».

- ماذا ستصطاد في أثناء رحلتي؟

- الظباء.

امتدح ألڤيرك الصيد لأنه يهواه، ثم قال أورايون: «ويومًا ما سأذهب إلى التلال وسأصطاد كائنات غريبة».

- أي نوع من الكائنات؟

لم يستطع الصبي تسميتها، فاقترح والده أنواعًا مختلفة من الحيوانات.

قال أورايون: «لا، أقصد كائنات أكثر غرابة من الحيوانات».

- إلى أي نوع ينتمي ما ستصطاد؟

- سأصطاد كائنات سحرية.

لكن في الأسفل وسط البرودة تململت الخيول، وانتهى وقت الدردشة. ودَّع ألڤيرك ابنه والساحرة، وابتعد وهو لا يفكِّر كثيرًا في المستقبل الغامض الذي يُعجِز الفكر.

امتطى فرسه، ثم تحرك الرجال الستة. وقف الأهالي في الطريق يشاهدونهم يرحلون. لقد علم الجميع برحلة بحثهم العجيبة. وبعدما حيَّا الجميع ألڤيرك وودَّعوا آخر الرجال علت الهمهمة. في حديث الأهالي بدت الاستهانة والشفقة والسخرية. حينًا امتدحوا إقدام الرجال وحينًا تهكَّموا بهم، لكن الغيرة ملأت نفوسهم جميعًا. سخرت عقولهم من

خوض مغامرة تستلزم الترحال إلى أقاصي الأرض الموحشة، لكن قلوب الجميع هفت إلى الذهاب معهم.

على صهوة فرسه غادر ألڤيرك القرية، وراءه رِفقته من المُغامرين: الشاب المُلتاع، والراعي، والشاعر، والحالِم، والمجنون. لقد نصَّب ألڤيرك الراعي الشاب ڤاند قائد المُخيَّم، إذ رآه الأكثر عقلانية بين أتباعه. لكن الخلافات نشأت بين الجماعة حالما انطلقوا حتى قبل أن يُخيِّموا. ولمَّا أدرك ألڤيرك استياء رجاله خلص إلى أن القيادة، في رحلة كتلك، لا يجب أن تُمنَح إلى الأكثر عقلانية بل الأكثر جنونًا. لهذا نصَّب الفتى المجنون نيڤ قائد المُخيَّم. وقد أحسن نيڤ أداء مهمته، حتى يوم بعيد، بمعاونة الشاب الحالم زيند. لقد أطاعت الجماعة نيڤ وأخلصوا في تحقيق مسعى ألڤيرك.

وصلوا إلى التلال وقادوا خيولهم فوق الحقول، حتى بلغوا أبعد السياجات النباتية والبيوت التي شيَّدها البشر عند حافة الأرض، التي حتى أفكارهم ترفض التجوال فيما وراءها. مرَّ ألڤيرك وجماعته عبر صفوف المنازل على حافة تلك الحقول، يرون في كل ميل أربعة أو خمسة منها. كان كوخ الدبَّاغ العجوز بعيدًا في الجنوب وراءه. والآن اتجه شمالًا كي يجتاز منازل ويقطع حقولًا مرَّ بها حاجز الشَّفق ذات يوم، حتى يعثر على موضع لم تبتعد عنه الأرض السحرية حتى الآن. لقد فسَّر الأمر لرجاله فصفَّق القائدان نيڤ وزيند في الحال. امتدح ثيل، السابح في الأغنيات، خطة ألڤيرك المُحكَمة. تأثر ڤاند بالحماس الشديد الذي أبداه هؤلاء الثلاثة. أمَّا رانوك الولهان فلم يُشكِّل ما سمع أي فارق في نظره. عندما مسَّت الشمس الحمراء الأفق لم يكن الرجال قد ابتعدوا كثيرًا عن المنازل. أسرعوا إلى التخييم في الضوء المتبقي من ذلك اليوم الشتوي القصير. قال نيڤ إنهم سيُشيِّدون قصرًا مثل قصور الملوك.

ملأت هذه الفكرة زيند بالحيوية فهبَّ إلى العمل يبذلُ أقصى جهوده، وساعدهما ثيل بحماس. ثبَّتوا الأوتاد في الأرض، وبسطوا فوقها الدُّثُر وأنشأوا جدارًا من الأغصان، إذ كانت السياجات النباتية قريبة منهم. جمع ڤاند الحطب وشاركهم رانوك العمل ضَجِرًا. عندما أتمُّوا نصب الخيمة أعلن نيڤ أن القصر اكتمل. دخله ألڤيرك كي يستريح والرجال يشعلون نيران المُخيَّم في الخارج. طها ڤاند لهم الطعام مثلما يطهو لنفسه في التلال الموحشة كل يوم، واعتنى نيڤ بالخيول خير عناية.

عندما انقضى الغروب اشتدَّ برد الشتاء، وعندما لمع النجم الأول في السماء خلت الليلة، فيما بدا، من كل شيء سوى البرد القارس، لكن رجال ألڤيرك استلقوا بجوار نيرانهم يرتدون الجلود والفراء، وسرعان ما غلبهم النوم جميعًا عدا رانوك العاشق.

استلقى ألڤيرك على الفراء في مأواه، وبينما يشاهد الجمر الأحمر يتوهج وراء صورة رجاله الداكنة رأى أن رحلته واعدة. سيذهب إلى أقصى الشمال يراقب الأفق باحثًا عن أي أثر للأرض السحرية. سيتبع حدود الأرض التي نعرفها. وإن لم تظهر الجبال الزرقاء الفاتحة فسيواصل رحلته حتى يبلغ موقعًا لم تنزح عنه الأرض السحرية. في تلك الليلة أقسم له نيڤ وزيند وثيل أنهم سيعثرون على الأرض السحرية قريبًا، وقد نام متمسكًا بهذه الفكرة.

***

الفصل الخامس عشر

انسحاب ملك الأرض السحرية

بعدما رحلت ليرازِل مع أوراق الأشجار البديعة توقفت ورقة تلو الأخرى عن رقصتها في الهواء النقي، طارت فوق الحقول قليلًا، ثم تساقطت بجوار السياجات الشجيرية؛ لكن الأرض التي تجذب الأشياء كلها إلى مركزها لم تملك سلطة على ليرازِل، لأن التعويذة الرونيَّة التى خطَّها ملك الأرض السحرية عبرت حدودها تستدعي ابنته إلى موطنها. هكذا امتطت ليرازِل الرياح الشمالية الغربية الهائلة بلا اكتراث، تتطلع بفتور إلى الأرض التي نعرفها وهي تجتازها إلى أرضها. لقد فقدت ثِقلها (الذي تجذبنا به الأرض إليها) وفقدت معه اهتمامها بأرض البشر. تركت ورءاها الحقول حيث تنزَّهت مع ألڤيرك ذات يوم، ومرَّت ببيوت المزارعين، دون شعور بالأسى. ثم رأت حاجز الشَّفق كثيفًا عميقًا زاخرًا بالأزرق.

هتفت بها الأرض في صيحة أخيرة اختلطت فيها الأصوات: صراخ طفل، ونعيق الغربان، وخوار الماشية، وقرقعة عربة بطيئة يقودها مالكها إلى كوخه. لكن ليرازِل دخلت حاجز الشَّفق الكثيف فخفتت الأصوات الأرضية فجأة، ثم سكنت تمامًا عندما اجتازته. هَوَت رياحنا الشمالية الغربية عند الحاجز مثل فرس متعب سقط هامدًا، لأن الرياح التي تجوب الحقول التي نعرفها لا تهب على الأرض السحرية. أمَّا ليرازِل فهبطت بتمهُّل حتى وطئت أرض موطنها السحرية. رأت في الأفق قمم الجبال الزرقاء الفاتحة، وأمامها الغابة التي تحرس عرش ملك الأرض السحرية. وفيما وراء الغابة تلألأت الأبراج الشاهقة في الصباح السحري، الذي يفوق فجرنا النديَّ سطوعًا ولا يخفت تألُّقه.

فوق الأرض السحرية خطت سيدتها خطواتها الرشيقة، تمسُّ العشب مثلما يمسُّه زغب الزهور عندما تهدهدها رياح كسول في الحقول التي نعرفها، فتميل نحوه وتداعب قمَمه. رأت ذكرياتها في جميع الموجودات حولها: في التربة العجيبة، والزهور الغريبة، والأشجار المسحورة، والهواء المسكون بالسحر. فأحاطت بذراعيها جذع الشجرة العتيق القريب إليها، وقبَّلت لحاءه المُتغضِّن.

ثم وصلت إلى الغابة المسحورة، فانحنت أشجار الصنوبر الحارسة المُتوعِّدة واللبلاب اليقظ الذي يتمسك بأغصانها تحيةً لها. كانت الغابة على حالها نفسه يوم تركتها ليرازِل، حتى شعرت أنها غادرتها صباح الأمس. وبينما تجتازها رأت جروح الأشجار التي أحدثها سيف ألڤيرك ما تزال حديثةً.

الآن بدأ الضوء يلمع في الغابة، ثم ومضَ لونٌ تلو آخر؛ هذا بهاء الزهور التي تُطوِّق مروج والدها، وقد عادت إليها الآن. ما تزال آثار قدميها الخفيفة عند خروجها من القصر ومصادفتها ألڤيرك تظهر في

العشب المحنيِّ وشِباك العناكب وقطرات الندى. هناك في ضوء الأرض السحرية تألَّقت الزهور الهائلة، ووراءها لمعت البوابة التي تركتها ليرازِل مفتوحة على مصراعيها، والتي تقود إلى القصر الذي نسمع به في الأغنيات فقط. لقد عادت إليه ليرازِل، وأمام بابِه انتظر الملك الساحر ابنته، بعدما أسمعه السحرُ وقعَ قدميها الخافت.

عندما تعانقا غمرتها لحيته الطويلة. لقد أمضى ذلك الصباح السحري حزينًا على رحيلها، انتابته الحيرة رغم حكمته، شعر بالخوف رغم تعويذاته النافذة، اشتاق إليها مثلما تشتاق قلوبُ البشر رغم أن كيانه من السحر الذي لا تعرفه أرضنا. والآن، ابتهج بعودتها إليه فازداد صباح الأرض السحرية إشراقًا وتوهَّجت منحدرات جبالها.

عبر مدخل الباب الواسع ذي البريق اللامع دخلَ القصر الملك وابنته. عندما مرَّا بفارس حرس الملك السحري حيَّاهما بسيفه دون أن يجرؤ على النظر إلى ليرازِل، ثم وصلا إلى قاعة العرش المُشيَّد من الثلج وأقواس قزح. جلس الملك في عرشه وأجلس ليرازِل في حِجره، فغمر الهدوءُ الأرض السحرية.

ساد هدوء طويل ذلك الصباح السحري الأبدي. نالت ليرازِل الراحة بعد العناء في الأرض. استقرَّ الملك يملأ الرضا الشديد نفسه. ثبت الفارس في مكانه يشيرُ طرف سيفه إلى الأسفل مؤديًا التحية. والقصر يلتمع ويتوهَّج. بدت الأرض السحرية مثل منظر تراه في بِركة عميقة منعزلة، ذات أعواد قصب خضراء وأسماك برَّاقة، وأصداف تلمع في الشَّفق، لم يُعكِّر صفوها شيء طوال يوم صيفي. الآن استراح ساكنوها بمنأى عن تقلُّب الزمان. سكنت الساعات حولهم مثلما تسكن الموجات عندما يكسو الجليد الجداول، وارتفعت قمم الجبال الزرقاء الفاتحة فوقهم مثل رؤى ثابتة.

ومثل همهمةٍ تصل من مدينة صاخبة إلى الطيور في الغابة، أو نشيجٍ يُسمَع عند اجتماع الأطفال للمرح، أو ضحكةٍ بين جماعة من الباكين؛ مثل ريحٍ باردةٍ تتخلَّل البساتين في الصباح، أو ذئبٍ يتسلَّل إلى التلال حيث الخراف نائمة، شعر الملك أن أحدهم يتجه إلى أرضه السحرية عبر بقاع الأرض. كان هذا ألڤيرك وسيفه الخاص، وقد أدرك الملك سحره المختلف.

عندئذٍ نهض الملك من عرشه، أحاط ابنته بذراعه اليسرى ورفع ذراعه اليمنى. وبصوت عميق ترنَّم بتعويذة إيقاعيَّة بكلمات لم تسمعها ليرازِل من قبل، كانت سحرًا عتيقًا يستدعي الأرض السحرية ويُبعِدها عن الأرض. هكذا غمرت النغمات العميقة المروج، نهلت بتلات الزهور من الموسيقى، اهتزَّ القصر وازداد توهُّجًا؛ سرت رجفة في الغابة المسحورة حتى وصلت التعويذة إلى حاجز الشَّفق. واصل ملك الأرض السحرية الترنُّم بتعويذته. الآن وصلت النغمات النافذة الرنَّانة إلى الجبال السحرية، فتموجت قممها مثل التلال التي يغشاها الضباب، عندما ترتفع حرارة الصيف من الأراضي البريَّة وتتراقص في الهواء. استمعت الأرض السحرية بأكملها إلى تلك التعويذة وأطاعتها. الآن ابتعد الملك وابنته مثل دخان يطفو فوق «الصحراء الكبرى» بعيدًا عن خيام البدو، مثلما تتلاشى الأحلام بطلوع الفجر وتمرُّ السحب بسماء الغروب. وقد ابتعدت الأرض السحرية معهما مثلما ترافق الرياح الدخان، ويتزامن الليل مع الأحلام، ويلازم الدفء غروب الشمس. وتركت وراءها السهل المُقفِر، تلك المنطقة الموحشة الكئيبة، تلك البقعة غير المسحورة.

ولأن الملك ألقى التعويذة فجأةً وتحركت الأرض السحرية بسرعة كبيرة طاعةً له، فإن بعض الأغنيات الخافتة، والذكريات القديمة،

وأشجار الزعرور التي نعرفها، دُفِعت قليلًا نحو الشرق. ثم تُرِكت وسط الصخور بعدما اختفت المروج السحرية وانزاح حاجز الشَّفق.

إنني لا أعلم أين ذهبت الأرض السحرية، ولا أدري هل اتبعت منحنى الأرض أم ابتعدت عن اليابسة إلى الأثير. الحقيقة أن الأرض السحرية التي كانت توجد بالقرب من أرضنا قد اختفت، وأينما ذهبت فقد ابتعدت كثيرًا.

ثم توقف ملك الأرض السحرية عن الترنُّم وقُضي الأمر. في لحظة لا يستطيع أحد تحديدها، بهدوء مثلما تستحيل السماءُ الذهبيةُ ورديَّةً عند الغروب أو تُظلِم بعد إشراقها، تركت الأرض السحرية حافَّة الأرض، التي جاورت بدائعها عصورًا طويلة، وابتعدت إلى موضع لا أعرفه. ثم عاد الملك إلى الجلوس في عرشه وأجلس ابنته في حِجره، وعاد الهدوء التام -الذي قاطعته تعويذته- يغمرُ الأرض السحرية عميقًا. سكنت المروج. ثبتت أوراق العشب المَحنِيَّة مثلما قد تَجمُد الطبيعة حدادًا على نهاية العالم. تنعَّمت الزهور بنضارتها متحصنة من أثر الخريف والرياح. وفوق الأراضي البريَّة، حيث تعيش قبائل الترول، علق الدخان الذي يتصاعد من مساكنهم العجيبة في الهواء ساكنًا. في الغابة هدأ ارتجاف بتلات الورود، وركدت البِركات التي تعلو سطحها الزنابق الهائلة وأوراقها الضخمة، حتى استغرقت هي وانعكاساتها في حلم واحد سعيد. هناك، أسفل الأغصان الجامدة لأشجار مُستغرِقة في الحلم، كان الترول لورولو الذي زار الأرض جالسًا على إحدى الأوراق، يحدِّق إلى المياه تعلو الوقاحة وجهه.

في الأرض السحرية لم يتحرك شيء أو يتبدَّل. استمدَّت الموجودات السكينة من الرضا الشديد الذي يشعر به ملكها. أعاد فارس الحرس سيفه إلى غمده، ثم ثبت في مكانه كأنه بذلة مُدرَّعة مات صاحبها منذ

قرون. وجلس الملك وابنته في حِجره صامتًا ساكنًا، عيناه الزرقاوان ثابتتان على القمم الزرقاء الفاتحة التي تبدو من نوافذ القاعة الواسعة.

ظلَّ الملك على سكونه لا يتحرك أو يتبدَّل، بل تشبث بتلك اللحظة حيث وجد الرضا، وسخَّر شعوره من أجل صلاح الأرض السحرية ورخائها. لقد وجد ما ينشده العالم كله، لكنه نادرًا ما يجده وسرعان ما يفقده. لقد وجد الرضا وتشبث به.

وبينما السكون يسود الأرض السحرية، مرَّت عشرة أعوام على الأرض التي نعرفها.

***

الفصل السادس عشر

يصطاد أورايون الظبي

في الأرض التي نعرفها كبر أورايون عشرة أعوام. تعلَّم حرفة أوث وتمتع بفطنة ثريل. عرف الغابة ومنحدرات التلال وأوديتها، مثلما يعرف الفتية الآخرون حاصل ضرب عدد في آخر، أو استخلاص الأفكار بلغة أجنبية وكتابتها بلغتهم الأم. لكنه لم يعلم الكثير عن قدرات الحِبر: كيف يستطيع حفظ كلمات الموتى من الضياع ويخبر بوقائع الماضي، كيف يصبح صوتًا يعيننا على تخطي الأوقات العصيبة، وينقذ الهشَّ من الأشياء من مطرقة الزمان، أو يحمل إلينا أغنية صدحت بها شفاه رحلت قبل قرون طويلة فوق تلال منسيَّة. لم يعلم أورايون الكثير عن الحِبر، لكن آثار حوافر ظبي على أرض جافة وطئها قبل ساعات ثلاث رسمت أمامه طريقًا واضحًا. ولم يمرَّ بالغابة مخلوق لم يتقصَّ أورايون أمره. رأى جميع أصوات الغابة تزخر بالمعاني مثلما يرى الرياضياتي الرموز والأرقام عند حلِّ المعادلات. بملاحظة الشمس والقمر والرياح علِم أي

طائر سيدخل الغابة. تنبَّأ بحلول مواسم معتدلة أو قاسية مثل حيوانات الغابة، التي لا تملك عقل الإنسان أو طبعه لكنها تفوقه معرفةً.

لقد أَلِفَ أجواء الغابة، وطاف في أرجائها الغامضة. في الرابعة عشرة من عمره أصبح يدخلها وكأنه من ساكنيها على النقيض من كثير من الرجال، الذين لا يدخلون الغابة طوال حياتهم دون إرباك موجوداتها. إذ يدفعون الأغصان ويدهسون العشب، ويتحدثون ويُدخِّنون، ويعلو صوتهم. فتصيح طيور الزرياب في وجوههم وتطير الحمامات بعيدًا عن الأشجار، وتفرُّ الأرانب إلى الأمان، وتنسل حيوانات كثيرة لا يعرفونها بعيدة عن موضعهم. لكن أورايون تحرك مثل ثريل: ينتعل جلد الظباء، ويخطو بخفَّة صيَّاد محترف.

أصبح يمتلك كومة من جلود الحيوانات -مثل أوث- اصطادها بقوسه في الغابة. في ردهة القلعة علَّق قرون ظباء كبيرة عاليًا، وسط قرون أخرى قديمة تسكنها العناكب منذ دهور. رأى أهالي إيرل في ذلك علامة على أن عهد حاكمهم الجديد يبدأ، إذ لم يعد ألڤيرك من رحلته وكان جميع حُكَّام إيرل صيادين للظباء. وقد عادت الساحرة زيروندرِل إلى كوخها فوق التلِّ المرتفع، حيث ينمو الملفوف قريبًا إلى الرعد. هكذا أصبح أورايون يعيش في القلعة وحده.

أمضى أورايون ذلك الشتاء كله يصطاد الظباء، وعندما حلَّ الربيع وضع قوسه جانبًا، لكن طوال موسم الزهور والأغنيات ذاك انشغل فكره بالصيد. مرَّ من بيوت إلى أخرى يملك ساكنوها كلاب الصيد. قَبِلَ البعض أن يبيعوه كلابهم، ووعده البعض بإعارته إياها عندما تبدأ أيام الصيد. هكذا كوَّن أورايون قطيعًا من كلاب الصيد البنية ذات الشعر الطويل، وتطلع إلى انقضاء الربيع والصيف. وذات مساء ربيعي إذ يعتني أورايون بكلابه، والأهالي جالسون عند مداخل بيوتهم يراقبون

المساء، أتى رجل غريب عنهم. كان قادمًا من التلال، يرتدي ثيابًا بالية ضيقة، تتشبث بجسده وكأنها جزء منه، بل وجزء من الأرض أيضًا إذ لطَّخها طين الحقول البعيدة. لحظ الأهالي الخفَّة في خطواته والإرهاق في عينيه، ولم يتعرف إليه واحد منهم.

ثم قالت إحدى النساء: «هذا الرجل هو ڤاند الذي رحل شابًّا».

وقد صدقت فيما قالت. لقد عاد الراعي ڤاند الذي ترك خِرافه قبل أكثر من عشرة أعوام، كي يرحل مع ألڤيرك إلى وجهة لا يعلم أحد في إيرل أين كانت. اجتمع الأهالي حوله وسألوه عن حاكمهم، فاشتد الإرهاق الظاهر في عينيه.

قال: «إنه يواصل رحلة بحثه».

- أين؟

- في الشمال. ما يزال يبحث عن الأرض السحرية.

- لم تركتَه؟

- لأنني فقدت الأمل في العثور عليها.

عندئذٍ توقفوا عن طرح الأسئلة لأنهم يعلمون أن البحث عن الأرض السحرية يستلزم أملًا قويًّا، من دونه لن يحظى المرء بلمحة على الجبال ذات القمم الزرقاء الفاتحة التي تبثُّ الهدوء. ثم انضمت والدة نيڤ إلى الجمع مُهرولةً تتساءل: «أحقًّا عاد ڤاند؟» وبينما يهمهمون عن التغير الذي حلَّ بڤاند خلال الأعوام الماضية سألته الأم عن ابنها، فقال: «إنه قائد رحلة البحث. لا يوجد من يثق به سيِّدي أكثر من ثقته بنيڤ».

أثارت تلك الحقيقة دهشة الأهالي دون سبب حقيقي للدهشة، إذ إن تلك الرحلة في جوهرها عبث وجنون.

وحدها والدة نيڤ لم تندهش، بل غمرها الشعور بالرضا، وقالت: «كنت أعلم أنه سينجح».

إن لكل إنسان ما يناسب هواه من المواسم وما يجتذبه من الوقائع. وعلى الرغم من أن قلَّة منها قد تُوافِق مزاج نيڤ المُتقلِّب، فإنه عثر في رحلة البحث عن الأرض السحرية التي بدأها ألڤيرك على مبتغاه.

في تلك الليلة سمع أهالي إيرل من ڤاند حكايات عن مخيمات الفرقة ومسيراتها، عن قصة ارتحالٍ طارد فيه ألڤيرك الأفق عامًا تلو آخر بلا جدوى. أحيانًا، عندما يحكي ڤاند بعض الحماقات التي وقعت في المخيم، ترتسم الابتسامة على وجهه الآسِف لضياع تلك الأعوام سُدى. لكن القنوط بدا في سرده وقائع تلك الرحلة، التي لا تلائم الحديث عنها الشكوك أو الابتسامات الباهتة. لا يجب أن يحكي عن مثل تلك الرحلة سوى من آمن بمجدها. عندما يحكيها عقل نيڤ المجنون، أو مخيلة زيند التي ألهبها القمر، تسمع تفاصيل تنير العقول ببريق مغزاها، لا محض وقائع يسردها من فقد اهتمامه بها.

لقد بدأت النجوم تغيب وما يزال ڤاند يروي قصته. غادر الأهالي إلى بيوتهم واحدًا تلو الآخر، قد سئموا سماع المزيد عن رحلة البحث البائسة. لو تحدث عن تلك الرحلة من يتشبث بالأمل، الذي ما يزال يحثُّ ألڤيرك على مواصلة بحثه، لخبا ضوء النجوم وأولئك الأهالي يستمعون إلى مُحدِّثهم، ولتفاجؤوا بإشراق الصباح قبل أن يتركوه.

في اليوم التالي عاد ڤاند إلى التلال والخراف ولم يزعج نفسه بالمغامرات الحالمة. وفي الربيع ذاته عاد الأهالي إلى الحديث عن ألڤيرك؛ حينًا يتعجَّبون من رحلته، وحينًا يتساءلون عن ليرازِل ويُخمِّنون أين ذهبت ولماذا. وعندما يعجزون عن التخمين يسردون حكاية تُفسِّر

اختفاءها تناقلتها الألسنة حتى صدَّقها الناس. ثم انقضى الربيع، ونسوا ألڤيرك وأطاعوا أورايون.

بعد ذلك، في يوم ينتظر فيه أورايون انتهاء الصيف، إذ يهفو قلبه إلى الأيام الباردة ويحلم بنفسه على التلال مع كلابه، أتى رانوك العاشق عبر الطريق نفسه الذي قطعه ڤاند قاصدًا إيرل. عاد رانوك وقد تحرَّر قلبه أخيرًا، وتخلص من الكآبة، وكفَّ عن التنهُّد؛ عاد سعيدًا راضيًا خالي البال، يتطلع إلى الراحة بعد طول الترحال. هذا الحال الجديد هو ما جعل ڤيريا، الفتاة التي لوَّعه حبها، تميل إليه. فتزوَّجا وانتهى بدوره من الطواف العجيب.

وقد راقب البعضُ التلال البعيدة، وحاول البعضُ رؤية منحدراتها الأكثر بُعدًا طوال أمسيات عديدة، حتى انقضت الأيام ذات النهارات الطويلة ومسَّت الرياح أوراق الأشجار، لكنهم لم يروا أيًّا من فرقة ألڤيرك يعود عبر الطريق الذي قطعه ڤاند ورانوك. وعندما تبدَّل لون أوراق الأشجار الخضراء إلى القرمزي، غفل الأهالي عن ألڤيرك وأقرُّوا بحُكم ابنه أورايون.

وفي يوم من ذلك الموسم نهض أورايون قبل الفجر، تناول قوسه وذهب إلى كلابه. أفاقت كلاب الصيد من نومها متفاجئة بسماع وقع خطواته قبل طلوع الصباح ونبحت تهتف به. فكَّ أورايون وثاقها وطمأنها وقادها إلى مراعي التلال. إلى المراعي البعيدة وصلوا حيث الظباء تتغذى بالعشب النديِّ قبل استيقاظ البشر. في ذلك الصباح الرطب ركض أورايون وكلابه على المنحدرات اللامعة يمرحون معًا. عبق الهواء برائحة أعشاب الزعتر، التي تنسَّمها أورايون وهو يطأ رقعاتها المزدهرة في ذلك الوقت المتأخر من العام. أمَّا كلاب الصيد فتشمَّمت جميع الروائح التي تفوح في ذلك الصباح. هكذا علمت الإجابات

الصحيحة لتساؤلات أورايون التي أجابها تخمينًا، مثل: أي كائنات برية التقت على التل في الظلام؟ وأيُّها عبره في طريق رحلته؟ وهل ابتعدت جميعها عندما أشرقت الشمس؟ تشمَّمت كلاب الصيد بعض الروائح حَذِرةً، وازدرت بعضها، وتعقبت إحداها بلا جدوى لأن الظبي الأحمر الكبير لم يكن في المراعي في ذلك الصباح.

ثم أمعن أورايون في الابتعاد بكلابه عن الوادي، لكنه لم يرَ ظبيًا في ذلك اليوم. لم تعثر الكلاب على الرائحة التي تتعقبها في الأعشاب أو الأوراق، ولم تحملها الرياح إلى أنوفها. وعند الغروب والشمس قرمزية قريبة إلى الأرض، وأورايون في طريق العودة إلى القلعة مع كلابه ينادي المُتخلِّف من قطيعه ببوقه، بلغت سمعه تلك النغمات الخافتة لكنها واضحة؛ البعيدة عن مراعي الأرض وضبابها، التي تصدر عن أبواق الأرض السحرية تحيةً له كل مساء.

سار أورايون في ضوء النجوم يرافقه كلابه والإرهاق، حتى رأى نوافذ البيوت في إيرل تومض وكأنها ترحِّب بعودته. ذهبت الكلاب إلى مأواها، وتناولت طعامها وخلدت إلى نوم هانئ. وذهب صاحبها إلى قلعته وتناول الطعام بدوره. ثم جلس يتأمل وقائع يومه، الذي تملؤه المراعي وكلاب الصيد، حتى هدأ ذهنه وخلد إلى النوم.

مرَّت عدة أيام على الحال نفسه. ثم ذات صباح نديّ، بينما أورايون وكلابه وسط المراعي، رأى ظبيًا يرعى وحده بعد رحيل باقي القطيع. شرعت الكلاب في النباح ابتهاجًا والظبي يتحرك بخفة فوق العشب. رماه أورايون بسهمه لكنه أخطأ هدفه. ركضت كلاب الصيد تلاحق الظبي والرياح تتموج على طول ظهورها، لكنه ابتعد سريعًا وكأن كل قائم من قوائمه مُزوَّد بزنبرك راقص. فاقت كلاب الصيد أورايون سرعةً لكنه كان مُثابِرًا مثلها. وقد استطاع مواكبتها مُتَّخِذًا طرقًا أقصر حتى

وصلت إلى جدول، فتوقفت عن الحركة مُضطرِبةً، وتبدَّت حاجتها إلى توجيهٍ بشريٍّ. لقد أعطاها أورايون هذا التوجيه، وسرعان ما استأنفت الركض. مرَّ الصباح وهم ينتقلون من تل إلى آخر، لكنهم لم يعثروا على الظبي. طوال الظهيرة واصلت كلاب الصيد اقتفاء أثر الظبي بمهارة فائقة وكأنها ضرب من السحر. وعند الغروب رآه أورايون يسير ببطء على طول منحدر أحد التلال، فوق عشب خشن يلمع في ضوء الشمس المنخفضة. حثَّ الكلاب على الركض نحو الظبي حتى قطعت ثلاثة أودية صغيرة. عند سفح الوادي الثالث انعطف الظبي إلى جدول، ووقف وسط الحصى يرى كلاب الصيد تتقدم إليه. أتته الكلاب نابِحةً تحدج قرونه، ومزَّقته حتى الموت عند الغروب. ثم نفخ أورايون في بوقه جَزِلًا فقد تمَّ ما أراد. وبنغمات بهيجة مماثلة، في تلال لا يعرفها، ربما توجد في الجانب البعيد من الشمس، وكأنها تشاركه شعوره السعيد أو تسخر منه، أجابته أبواق الأرض السحرية.

***

الفصل السابع عشر

يظهر وحيد القرن في ضوء النجوم

حلَّ الشتاء، وكسا بالأبيض أسطح إيرل والغابة والتلال. في الصباح عندما اصطحب أورايون كلاب الصيد إلى الخارج شابه العالمُ كتابًا أتمَّت الحياة كتابته حديثًا، إذ خُطَّت قصة الليلة الماضية في سطور طويلة على الثلوج. هنا سار الثعلب وهناك ركض الغُرَير، ومن هنا غادر الظبي الأحمر الغابة؛ تتابعت آثار قوائمه على التلال ثم اختفت عن الأنظار، مثلما تظهر أفعال الملوك والجنود ورجال الحاشية والسياسيين في بضع صفحات من التاريخ ثم تنقطع. حتى الطيور كانت لها فقرتها في صفحة تلك المراعي البيضاء، حيث يمكن للعين أن تتبع خطوات مخالبها الثلاثية، حتى يظهر فجأةً على جانبي المسار الذي اتخذته ندوبٌ صغيرةٌ حيث نقرت أطراف ريشاتها الطويلة الثلج، ثم يختفي المسار تمامًا. شابه أثر تلك الطيور هتافًا شعبيًّا تُحرِّكه إرادة مُلتهِبة،

يظهر في كتاب التاريخ ظهورًا موجَزًا، في بضعة أسطر من صفحة واحدة، ولا يرد ذكره في أي موضع آخر.

ومن بين جميع أحداث قصة الليل يختار أورايون آثار قوائم ظبي كبير لم يمضِ على ابتعاده الكثير، ويتبعها مع كلابه وسط المراعي البعيدة حتى يصبح دويُّ بوقه غير مسموع في إيرل. أحيانًا يراه أهالي إيرل على قمة أحد التلال عائدًا إلى قلعته مع كلابه عند الغروب. وأحيانًا تتأخر عودته حتى يعكس الصقيع ضوء النجوم، وكثيرًا ما يعود حاملًا جلد ظبي أحمر على كتفيه، وعلى رأسه تتمايل قرون الظبي الضخمة وتومئ.

في تلك الفترة تقابل رجال برلمان إيرل في ورشة نارل التي لا يعلم عنها أورايون أي شيء. هناك اجتمعوا عند غروب الشمس بعدما انتهى كل منهم من عمله. تناولوا كؤوس نبيذ العسل، وجلسوا صامتين. ثم قطع نارل الصمت قائلًا إن عهد ألفيرك قد انتهى وأصبح ابنه الحاكم. ذكَّرهم بطموحهم إلى أن يصبح حاكمهم من سلالة سحرية كي يجعل واديهم مشهورًا، وأنهم توسَّموا في أورايون أن يصبح ذلك الحاكم المنشود. ثم سألهم: «لكن أين السحر الذي تطلَّعنا إليه؟ إن الفتى يصطاد الظباء مثل أجداده، ولم يمسَّه شيء من السحر البعيد، ولا يوجد جديد».

نهض أوث يدافع عن أورايون قائلًا: «إنه يضاهي كلابه سرعةً. ويذهب إلى الصيد من الفجر حتى غروب الشمس، ويقطع أبعد المراعي دؤوبًا ويعود إلى المنزل دون كلل».

أجابه جوهِك: «هذا حماس الشباب».

وقد وافقه الجميع في الرأي عدا ثريل، الذي نهض ليقول: «لديه معرفة كبيرة ببيئة الغابة وسلوك الحيوانات أكثر مما يعرفه البشر».

- أنت من علَّمه ودرَّبه. لا سحر في ذلك.

أكَّد نارل: «لم يكتسب هذه المهارات من *هناك*».

هكذا واصلوا النقاش بعض الوقت يأسفونَ لغياب السحر الذي تاقوا إليه، إذ لا يوجد وادٍ لم يذكره التاريخ مرَّةً ولا توجد قرية لا تتناقل الألسنة اسمها فترةً. وحدها قرية إيرل هي المَنسيَّة، ولا يعرفها أحد فيما وراء تِلالها. الآن بدا لهم أن الخطة التي وضعوها قبل أعوام طويلة قد ذهبت هباءً. ولم يجدوا عزاءً في غير النبيذ، فالتفتوا إلى الشراب في صمت.

لكن أفكارًا جديدةً لمعت في أذهانهم بعد مضي بعض الوقت، واستأنفوا النقاش. كانوا ليضعوا خطة وسياسة جديدتين لو لم ينهض أوث من مقعده ليتحدث. لقد تذكر سطرين قرأهما في واحدة من الصفحات القديمة في كتاب «الوقائع»، المحفوظ في بناءٍ حجريٍّ في قرية إيرل؛ ذلك المُجلَّد الذي كتب فيه القدماء عن كل الموضوعات: معرفة الفلاحين بمواقيت زراعة البذور، ومهارة الصيادين في اقتفاء أثر الفرائس، وحكمة الكهنة عند الحديث عن الأرض. الآن تلا أوث هذين السطرين -اللذين يتبعهما في الصفحة نفسها الحديث عن المعازق- على الرجال الجالسين ونبيذ العسل على الطاولة أمامهم:

«بالغموض تتوشَّح ربَّات القدر
ويغزلن ما يعجز عن التنبؤ به البشر».

عندئذٍ توقف رجال البرلمان عن وضع الخطط وسادهم الهدوء، إمَّا لأنهم شعروا بالمهابة عند سماع هذين السطرين، وإمَّا لأن أثر النبيذ أكثر قوة من أي كلمات خُطَّت في الكتب. وعندما بدأ ضوء النجوم في البزوغ والغربُ يتوهج بأشعة الشمس الأخيرة، غادر الرجال ورشة نارل إلى منازلهم. في طريقهم إليها أخذوا يتذمرون لأن حاكمهم ليس ساحرًا،

ويتلهَّفون إلى السحر كي تنجو قريتهم ووواديهم العزيزان من النسيان. وقد افترقوا عن هذا الجمع واحدًا تلو إلى الآخر حتى تبقى ثلاثة رجال، يسيرون في ذلك الجانب من القرية الذي يقع أسفل التلال. هناك، في ضوء النجوم وما تبقى من الشَّفق، ظهر وحيد قرن مُطارَد. رأوه قادمًا عبر التلال فجمدوا في أماكنهم. حدَّقوا إليه وهم يُظلِّلون أعينهم بأيديهم ويُمسِّدون لحاهم ويتعجَّبون، لكنه حقًّا كان وحيد قرن يركض واهنًا. ثم بلغ سمعهم نباح كلاب أورايون.

***

الفصل الثامن عشر

الخيمة الرمادية في المساء

في اليوم الذي مرَّ فيه وحيد القرن بوادي إيرل كان ألڤيرك قد أمضى في ترحاله ما يزيد على أحد عشر عامًا. قبل عشرة أعوام اجتاز ستة رجال البيوت على حافة الحقول التي نعرفها، يقضون الصباح تجوالًا وفي المساء ينصبون خيمة من أقمشة رمادية مُثبَّتة بالأوتاد. وسواء أأسبغت رحلتهم بعضًا من طبيعتها الحالمة على المشهد حولهم أم لا، فإن مُخيَّمهم دائمًا ما شذَّ عن البقعة التي ينزلون بها. وبينما تشتد ظلمة الليل حولهم تعاظم غموض رحلتهم.

وعلى الرغم من همَّة ألڤيرك العالية فإن تقدمهم كان بطيئًا: أحيانًا أمضوا في مخيمهم ثلاثة أيام، ثم واصلوا الرحلة ليسيروا تسعة أو عشرة أميال، ثم يُخيِّموا مجددًا. ذات يوم راود ألڤيرك شعورٌ قوي بأنهم حتمًا سيرون حاجز الشَّفق، وسيدخلون الأرض السحرية. وهو يعلم أن سير الزمان هناك يختلفُ عن هنا؛ ستبدو ليرازِل كما رآها أول مرة، دون أن

تنال وطأة الأعوام من ابتسامتها، دون تجعيدة نقشتها يد الزمان. لقد تشبَّث بهذا الأمل الذي قاد جماعته الطريفة من مخيم إلى آخر، وأبهج جلستهم حول النيران في ليالي الوحدة، وأعانهم على السفر شمالًا وهم يتقدمون على أطراف الحقول التي يعرفها البشر لكنهم يديرون ظهورهم لها. هكذا ارتحل الرجال دون أن يراهم أحد أو يلتفت إليهم. لكن ڤاند نظر بارتياب إلى ذلك الأمل المُفرِط. وبمرور الأيام استنكر ذلك الإغواء الذي يجتذب البقية، حتى فقد إيمانه بوجود الأرض السحرية. وذات يوم عاصف إذ المطر يُبلِّل الجمع والبرد يلسعهم والخيول متعبة، رحل عنهم.

ثم تبعه رانوك لأنه لم يؤمن بتلك الرحلة قط، بل أراد خوضها كي يبتعد عن لوعة الحب. حتى أتى يوم سطعت فيه الشمس، وغرَّدت طيور الشحرور على أغصان الأشجار في الحقول التي نعرفها، فبارحَهُ اليأس. فكَّر في البيوت المريحة حيث يعيش البشر، وسرعان ما رحل عن المخيم ذات مساء يقصد الأراضي العامرة.

الآن تشاطر الرجال الأربعة الباقون الرأي والشعور ذاتهما، وأسفل القماش الخشن المُثبَّت إلى الأوتاد ساد جلستهم الرضا الشديد. لقد تشبَّث ألڤيرك بأمله بقوة كبيرة تمتعت بها سلالته، التي انتصرت في معارك قديمة باسم إيرل وقامت على شؤونها على مرِّ القرون. وبداخل عقلَي نيڤ وزيند البسيطين تجذَّرت فكرته ونمت، مثل زهرة نادرة قد يزرعها بستاني مصادفةً في أرض برية مُهمَلة. وقد تغنَّى ثيل بالأمل، وزادت الخيالات الجامحة -التي أفصح عنها في أغنياته- مسعى ألڤيرك تفرُّدًا. لقد اتحد الرجال فِكرًا وشعورًا. وفي وجود مثل هذا الاتحاد تتقدم المساعي الكبرى، سواء أكانت منطقية أم لا، وتخفق في غيابه.

لقد أمضوا أعوامًا في السير شمالًا، لكنهم ذات يوم، عندما تتخذ السماء مظهرًا غير مألوف، أو تتبدى مسحة من طرافة في المساء، أو يراود نيڤ شعور قوي بأن الأرض السحرية قريبة؛ سيتجهون شرقًا. عندئذٍ، سيسلكون السهل الصخري الذي يحدُّ الحقول التي نعرفها حتى يلحظ ألڤيرك أن مؤونتهم تنفد، فيستدير إلى بيوت الأهالي الحدودية. لكن نيڤ، الذي يتعاظم حماسه كلما تقدَّموا، سيصر على مواصلة السير فوق الصخور، وسيغني ثيل متفائلًا بنجاحهم، وسيقول زيند إنه رأى قمم الأرض السحرية وأبراجها. لكن سيتضح أن ألڤيرك كان مُحقًّا، لهذا سيتجهون إلى بيوت الأهالي كي يبتاعوا المؤن. هناك سيثرثر نيڤ وزيند وثيل عن رحلة البحث بحماس تنبض به قلوبهم، لكن ألڤيرك لم يتحدث عنها لأنه قد أدرك أن الأهالي في تلك الحقول يتجنبون الحديث عن الأرض السحرية ولا يلتفتون إليها، دون أن يدري السبب في ذلك.

ثم يستأنفون رحلتهم تتبعهم نظراتُ دهشةٍ من الأهالي الذين باعوهم إنتاج الحقول التي نعرفها، وكأن الجنون أو الأوهام التي يوحي بهما القمر هما منبع الحديث الذي سمعوه من نيڤ وزيند وثيل.

لقد استمر ترحالهم على هذا الحال، يستكشفون بقاعًا جديدة قد يرون الأرض السحرية منها. على يسارهم هبَّ النسيم مُحمَّلًا بروائح الحقول التي نعرفها: عبير زهور الليلك من حدائق الأكواخ، ثم الزعرور والورود، حتى ملأت الهواء رائحة القش المجزوز حديثًا. على يسارهم سمعوا خوار الماشية وهمهمة البشر وتغريد الطيور، سمعوا جميع الأصوات التي تعلو في المزارع السعيدة. أمَّا على يمينهم فامتدَّ السهل المُقفِر والصخور بلا زهرة أو عشب. لقد فقدوا رفقة البشر، لكنهم لم يعثروا بعد على الأرض السحرية. وفي هذا الوضع اشتدَّت الحاجة إلى أغنيات ثيل وأمل نيڤ الأكيد.

لقد ذاع الحديث عن رحلة البحث التي يقوم بها ألڤيرك وسبق نبؤها خطواته، فأصبح جميع الأهالي الذين يمرُّ بهم يعلمون بقصته. قابله البعض باستهانة ينظرون بها إلى من يُكرِّسون حياتهم من أجل رحلة، واحتفى به البعض الآخر، لكنه لم يسألهم جميعًا سوى المؤونة، وقد ابتاعها ممن يملكونها ليواصل مع رجاله البحث نهارًا، والبقاء في الخيمة الرمادية في الأمسيات المظلمة. كان نزولهم بأي بقعة هادئًا كالمطر، وشابه رحيلهم عنها ضبابًا يبتعد طافيًا. أُطلِقت بشأنهم الدُّعابات وأُلِّفت الأغنيات. ذاعت تلك الأغنيات وردَّدتها الألسنة. وفي النهاية أصبحوا أسطورة خالدة في تلك الحقول. ذكرهم الأهالي عند حديثهم عن رحلات البحث اليائسة، هزأ بهم البعض وبجَّلهم البعض الآخر.

طوال ذلك الوقت راقب ملك الأرض السحرية مسار تلك الرحلة، يدلُّه سحره على موضع سيف ألڤيرك؛ ذلك السيف الذي أثار الاضطراب في مملكته مرَّةً وشعر بمعدنه يلوح في الهواء. لقد أبعد أرضه عن ذلك السيف تاركًا وراءه السهل الصخري. ورغم أنه لا يدري بطول الرحلات البشرية فإنه ابتعد مسافةً طويلةً من شأنها أن تُرهِق مُذنَّبًا، وهكذا عدَّ أرضه في أمان.

لكن عندما أمعن ألڤيرك وسيفه في السفر شمالًا أرخى الملك قبضته التي أزاح بها الأرض السحرية، مثل القمر عندما تَوهُن جاذبيتُه للأمواج. فأسرعت الأرض السحرية إلى موضعها مثل المدِّ على رمال الشاطئ؛ عادت طافيةً يحدُّها شريط الشَّفق، جالبةً معها الأغنيات والذكريات والأصوات القديمة. ثم قام حاجز الشَّفق لامعًا وامضًا بالقرب من الحقول التي نعرفها، وكأنه مساءٌ صيفيٌّ أبديٌّ باقٍ من العصر الذهبي. لكن بعيدًا في الشمال الكئيب حيث يرتحل ألڤيرك ما تزال الصخور تملأ السهل الموحِش. لقد عاد مدخل الأرض السحرية قريبًا من الحقول التي

ابتعد عنها ألڤيرك وسيفه وفرقته المُغامِرة. على بعد ثلاثة حقول من كوخ الدبَّاغ العجوز ومزارع جيرانه استقرت الأرض العامرة بالبدائع، منهل الخيالات والأحلام، التي ينشدها الشعراء. وعلت الجبال السحرية ساكنةً وكأن قممها الزرقاء الفاتحة لم تتحرك قط. هنا على امتداد تلك الحدود رعت وحيدات القرن كعادتها. أحيانًا تتغذى على الزنابق عند سفوح الجبال في الأرض السحرية، موطن جميع الكائنات الخرافية، وأحيانًا تتسلل عبر حاجز الشَّفق ليلًا وحقولنا هادئة كي تتغذى على العشب الأرضي. نظرًا إلى اشتهاء تلك الكائنات الخرافية -التي تولد في الأرض السحرية- العشبَ الأرضي من حين لآخر، مثلما تتوق الظباء الحمراء التي تعيش في المرتفعات الجبلية إلى البحار أحيانًا، فإن البشر يدرون بوجودها. إن الثعالب التي تولد في أرضنا تعبر حاجز الشَّفق في أوقات محددة. هناك تكتسب الغموض وتعود به إلينا. ومثلها مثل وحيدات القرن تُعَدُّ الثعالب خرافية في الأرض السحرية.

لكن الأهالي في تلك الحقول نادرًا ما رأوا وحيدات القرن أو ظلالها، لأن وجوههم تُعرِض عن الأرض السحرية دائمًا. إن تأمُّل الجمال والانشداه بالسحر وتقصِّي البدائع من شأن العقول التي تملك وقتًا شاغرًا للاهتمام بمثل هذه الأمور، لكن المحاصيل والحيوانات غير الخرافية، والسقوف القشيَّة والسياجات النباتية، وكثيرًا من الأعمال بحاجة إلى أولئك الرجال، الذين بالكاد ينتصرون في معركتهم ضد الشتاء. لقد أدركوا جيدًا أنهم إن سمحوا لأفكارهم بالتجول في الأرض السحرية لحظاتٍ، فإن بهاءها سيستحوذ عليهم وستسلبهم وقتهم، سيغفلون عن تصليح السقوف وتشييد السياجات وحرث الحقول التي نعرفها. لكن أورايون الذي اجتذبه صوت الأبواق التي تدوِّي في الأرض السحرية مساءً -التي لا يسمعها غيره في أرضنا لأن أذنيه حسَّاستان للأصوات السحرية- قد

وصل مع كلابه ذات مساء إلى حقل انبسط أمامه حاجز الشَّفق. هناك رأى وحيدات القرن فتسلل على طول سياج الحقل النباتي تتبعه كلابه، ثم وقف بين الحاجز وواحد من تلك الكائنات، وطارده بعيدًا عن الأرض السحرية. كان عُنق وحيد القرن ذاك برَّاقًا، تكسوه رُقَطٌ فضيَّة تلمع في ضوء النجوم، يعدو لاهثًا قَلِقًا واهنًا. إنه وحيد القرن نفسه الذي مرَّ بوادي إيرل مثل فكرة مُلهَمة، مثل حاكم مُجدِّد إلى أرض مُكبَّلة بالعادات والتقاليد، مثل نبأ عن قارَّة سعيدة بعيدة اكتشفها البحَّارة مصادفة.

***

الفصل التاسع عشر

اثنا عشر كهلًا يعوزهم السحر

قلَّما يمرُّ شيء بأي قرية دون أن يثير الحديث، ولم يخالف وحيد القرن تلك القاعدة. بعدما رآه الرجال الثلاثة يعدو في ضوء النجوم أخبروا عائلاتهم بالأمر على الفور، فغادر كثير من أفراد تلك العائلات منازلهم كي يخبروا الجيران بالخبر السعيد. في إيرل تُعَدُّ جميع الأخبار الغريبة سعيدة لأنها تثير الحديث. وإنَّ الحاجة إلى الحديث ضرورية عند انتهاء العمل لتمضية الأمسيات، لهذا تحدَّث الأهالي طويلًا عن وحيد القرن ذاك.

وفي ورشة نارل، بعد يومين من ذلك الحدث، اجتمع برلمانُ إيرل مجددًا؛ أمامهم كؤوس نبيذ العسل، يناقشون أمر وحيد القرن. ابتهج بعضهم قائلين إن أورايون ساحر لأن وحيدات القرن كائنات سحرية تأتي من خارج أرضنا.

أردف أحدهم: «هذا يعني أنه قد ذهب إلى تلك الأرض التي لا ندري عنها سوى أنها سحرية مثل جميع الكائنات بها».

وافقه البعض في هذا الرأي، وخلصوا إلى أن خططهم قد أتت بثمارها.

لكن منهم من قال إن ذلك الحيوان الذي مرَّ في ضوء النجوم، إن كان حقًّا حيوانًا، لا يستطيع أحد أن يجزم بأنه كان وحيد القرن. قال آخر إن من الصعب رؤية وحيدات القرن في ضوء النجوم. وقال آخر إن من الصعب التعرف على وحيدات القرن عند رؤيتها. ثم بدأ النقاش حول شكل تلك الكائنات وحجمها، وجميع الأساطير التي تتناولها، لكنهم لم يستطيعوا الإجماع على أن حاكمهم اصطاد وحيد قرن. ولمَّا رأى نارل أن النقاش إذا استمر على هذا الحال فلن يتوصلوا إلى الحقيقة، التي يجب إثباتها بطريقة أو أخرى، نهض وأخبرهم أن وقت التصويت قد حان. وللإدلاء بأصواتهم بشأن وحيد القرن، مثلما أمرَهم نارل، ألقوا بأصداف مختلفة الألوان في مخروط يُمرَّر من رجل إلى آخر كعادة الأهالي في إيرل. ثم سادهُم الصمت ونارل يحصي الأصوات. وقد أقرَّت نتيجة التصويت أن وحيد القرن لم يمرَّ بالوادي.

أَسِفَ رجال برلمان إيرل لأن الخطة التي وضعوها -أملًا في أن يصبح لديهم حاكم ساحر- قد أخفقت في تحقيق المرجو منها. لقد تقدَّموا جميعًا في العمر، ولأنهم الآن خسروا الأمل الذي تمسكوا به طويلًا، فإنهم لم يباشروا وضع خطط جديدة بسهولة مثلما حدث قبل زمن طويل. تساءلوا: ماذا يجب أن يفعلوا الآن؟ كيف يدركون السحر؟ وما الذي يستطيعون فعله كي يتذكر العالم إيرل؟ جلس الاثنا عشر كهلًا يعوزهم السحر، يتناولون شرابهم، لكنه لم يستطع الترويحَ عنهم.

لكن أورايون قد خرج مع كلابه قاصدًا حاجز الأرض السحرية، الذي يرتفع مثل مدٍّ عالٍ يمسُّ عشب الحقول التي نعرفها. لقد اتجه إلى هناك في المساء يسترشد بدويِّ الأبواق، وعند حافة تلك الحقول انتظر أن يتسلل وحيد القرن عبر الحدود، لأنه لم يعد يصطاد الظباء.

عند الأصيل، في طريقه إلى وجهته، يُرحِّب به الفلاحون في الحقول ترحيبًا حارًّا، لكنه يواصل التقدم شرقًا فيقلُّ حديثهم إليه. وعندما يقترب إلى الحدود يُعرِضون عنه، ويدعونه هو وكلابه وشأنهم.

وعندما تغرب الشمس يكون واقفًا بهدوء بجوار السياج النباتي، أمامه حاجز الشَّفق، وكلابه مُجتَمِعة أسفل السياج تراقبها عيناه خشية أن يجرؤ أي منها على الحركة. ثم تعود الحَمامات إلى بيوتها فوق أشجار الحقول التي نعرفها، وتغرِّد طيور الزرزور، وتدوِّي الأبواق السحرية فتثير موسيقى سحريةٌ ناعمةٌ الهواءَ البارد، وتتبدل ألوان السحب. حينئذٍ، والضوء يختفي والسحب تُظلِم، يرتقب أورايون جسمًا أبيض ضبابيًّا قليلًا يخطو خارجًا من حاجز الشَّفق.

وفي هذا المساء عندما أَسكَت أورايون واحدًا من كلابه بإشارة من يده، والظلام يغشى أرضنا، خرج من الحاجز وحيد قرن أبيض ضخم ما يزال يمضغ زنابق لا تنمو مثلها في حقولنا أبدًا. مشى وحيد القرن بخفوت قرابة خمسة أمتار، ثم وقف ساكنًا وكأنه ضوءٌ قمريٌّ يصيخ السمع إلى الوجود. لم يتحرك أورايون، ولزمت كلابه الصمت لمهارة خاصة تمتلكها أو فطنة تتمتع بها. بعد دقائق سار وحيد القرن خطوة أو اثنتين إلى الأمام، وشرع يأكل العشب الأرضي الحلو الطويل، ثم عَبَرَت مزيدٌ من وحيدات القرن الحاجزَ الأزرق، حتى اجتمع خمس منها ترعى هناك. وظلَّ أورايون وكلابه في الانتظار.

شيئًا فشيئًا تحركت وحيدات القرن بعيدًا عن الحاجز، يجتذبها العشب الأرضي لتتقدم وسط الحقول في سكون الليل. إن نبح كلب أو صاح ديك تتوقف عن الحركة وتنتصب آذانها يقظةً، ترتاب في كل شيء في أرض البشر ولا تجرؤ على التوغُّل فيها.

لكن وحيد القرن الذي عبر حاجز الشَّفق أولًا ابتعد عن موطنه السحري مسافةً تُمكِّن أورايون من الوقوف بينه وبين الحاجز، وتبعته كلابه. لو كان أورايون يلتهي بالمطاردة، أو يصطاد بدافع من هوى مؤقت لا حب عميق لحرفة الصيد لا يشعر به سوى الصيادين، لخسر كل شيء، لأن كلابه كانت لتطارد وحيدات القرن القريبة منها، التي كانت لتختفي عبر حاجز الشَّفق سريعًا، ولخسرها أورايون. ولو تبعتها كلابه عبر الحاجز لخسر كلابه أيضًا، ولضاع مجهود ذلك اليوم سُدى، لكن أورايون قاد كلابه إلى مطاردة وحيد القرن البعيد وهو يراقب أي محاولة منها لمطاردة القريبات. وعندما حاد واحد من كلاب الصيد عن الوجهة التي حدَّدها أورايون، كان سوطه جاهزًا. هكذا فصَل فريسته عن موطنها، وأخذت كلابه تنبح وراء وحيد قرن للمرة الثانية.

حالما سمعَ وحيد القرن قوائم كلاب الصيد تدبُّ على الأرض ولم يستطع العودة إلى موطنه السحري، انطلق يعدو بسرعة مثل السهم في الحقول التي نعرفها. عندما وصل إلى السياجات النباتية لم يقفز، بل بدا أنه ينساب فوق السياج وعضلات قوائمه ساكنة، لكنه استأنف الركض عندما مسَّت قوائمه العشب مجددًا.

باندفاعها المحموم ابتعدت كلاب الصيد كثيرًا عن أورايون، الذي تولَّى قطع طريق وحيد القرن كلما انعطف محاولًا العودة إلى الأرض السحرية. وكلما اتخذ وحيد القرن تلك المنعطفات قصرت المسافة بينه وبين كلاب الصيد. وبعد انعطافته الثالثة التي تصدى لها أورايون،

واصل وحيد القرن الركض إلى الأمام وسط حقول البشر. شقَّ نباح كلاب الصيد هدوء المساء مثل موجة طويلة تثير اضطراب بحيرة ساكنة، إذ تتبع مسارًا خفيًّا يتخذه غوَّاص دخيل. لكن وحيد القرن قد أمعن في الركض في خط مستقيم، حتى رآه أورايون بقعةً بيضاء تتحرك على امتداد منحدر في ضوء الغروب الأخير، ثم بلغ رأس الوادي واختفى عن الأنظار، لكن رائحته الغريبة القوية عبَّقت العشب وقادت كلاب الصيد إليه بسلاسة، فلم تتعثر خطواتها أو تتردد لحظةً إلا عند الجداول، حتى هناك التقطت أنوفها المرهفة الرائحة السحرية قبل أن يصل أورايون ليرشدها.

استمرت المطاردة حتى انقضى الغروب وتجهزت السماء لبزوغ النجوم. الآن لمعت بضعة نجوم، وارتفع الضباب من الجداول ينتشر فوق الحقول، لهذا لم يكن ذلك الجمع ليرى وحيد القرن حتى لو كان قريبًا منه. بدت الأشجار نائمة عندما مرَّ بها أورايون وكلاب الصيد. أمَّا البيوت فكانت صغيرة منعزلة يحيط بها الدردار، وتعزلها سياجات الطقسوس العالية عمَّن يجوبون الحقول. لم يرَ أورايون تلك المنازل من قبل حتى قاده المسار العشوائي الذي اتخذه وحيد القرن إلى المرور بأبوابها فجأة. نبحت الكلاب في تلك البيوت عندما مرَّ أورايون وقطيعه بها، وطال نباحها لأن الرائحة السحرية العالقة في الهواء، والاندفاع وأصوات قطيع أورايون، دلُّوها على أن أمرًا غريبًا يجري. في البداية نبحت رغبةً في المشاركة فيما يحدث ثم تحذيرًا لأصحابها منه. ولم يهدأ نباحها طوال المساء.

ثم مرَّ أورايون وقطيعه ببيت صغير انفتح بابه فجأة، ووقفت عند عتبته امرأة تحدِّق إليهم. من موضعها لم تستطع أن ترى سوى خيالات رمادية، لكن أورايون أبصر ضوء المنزل الأصفر الوهَّاج يتدفق

إلى الليل البارد. هتف به الدفء، وكان ليستريح بعض الوقت في تلك الواحة الصغيرة وسط الحقول النائية. لكن كلاب الصيد واصلت الركض فتبعها. وسمع أهالي تلك البيوت نباحها يبتعد مثل بوق تتلاشى أصداؤه وسط التلال البعيدة.

سمع ثعلب جلبة المطاردة فوقف ساكنًا يصغي إليها. في البداية كان في حيرة من أمره. ثم اشتمَّ رائحة وحيد القرن فاتضح له ما يجري، إذ أخبرته تلك الرائحة العجيبة بوجود كائن من الأرض السحرية. لكن تلك الرائحة أفزعت الخراف فشرعت في الركض طويلًا حتى كلَّت عنه. هبَّت الماشية من نومها، وتطلعت حولها ناعسة حائرة. لكن وحيد القرن مرَّ بها مرورًا خاطفًا، مثل نسيم مُعطَّر بالورود يشرد من بساتين الوادي إلى شوارع المدينة، ليهبَّ خفيفًا على حركة مرورية صاخبة، ثم يختفي.

وسرعان ما أشرفت جميع النجوم على الحقول حيث احتدمت المطاردة، وشقَّ بضعة من الكائنات المفعمة بالحيوية الليل والصمت. لكن وحيد القرن، مع أنه بعيد عن الأنظار، فقد تباطأت حركته عند قفز السياجات. في البداية لم يفقد من سرعته عند قفزها أكثر مما يفقده طائر يعبر سحابة، في حين أن كلاب الصيد تجهد في المرور عبر أي فتحة تجدها، أو ترقد على جانبها وتتلوَّى كي تمر بين جذوع الشجيرات. لكن الآن بالكاد استجمع وحيد القرن قواه عند قفز السياجات، وأحيانًا اصطدم بقممها فتعثر. وقد تباطأ ركضه أيضًا، إذ لا تقوم وحيدات القرن برحلة مثل تلك وسط السكون الغامر في الأرض السحرية. وقد شعرت كلاب الصيد أنها تقترب منه فتبدَّت البهجة في نباحها، وبعدما عبرت بضعة سياجات لاحت الغابة القاتمة أمامها. عندما دخل وحيد القرن الغابة سمع نباح الكلاب واضحًا. رآه زوج من الثعالب يتقدم

ببطء، فركضا معه كي يشهدا ما سيحل بهذا الكائن المرهق القادم من الأرض السحرية. ركض كل منهما على جانب من جانبيه يجاريان سرعته البطيئة ويراقبانه. ورغم أنهما سمعا نباح كلاب الصيد لم يشعرا بالخوف منها، لأنهما أدركا أن ما يتبع تلك الرائحة السحرية لن يلتفت إلى أي شيء أرضي. هكذا ركض وحيد القرن عبر الغابة مرهقًا يشاهده الثعلبان الفضوليَّان طوال الطريق.

الآن دخلت كلاب الصيد الغابة يرنُّ نباحها وسط أشجار البلُّوط، وتبعها أورايون بسرعة وقوة ربما اكتسبهما من أرضنا أو أتتاه من وراء حاجز الشَّفق. رغم ظلام الغابة الشديد فقد استرشد بصوت كلابه، التي لم تلزَمها الرؤية في وجود تلك الرائحة القوية. وفي سعيها وراء تلك الرائحة لم تتذبذب قط، بل تقدمت ركضًا في ضوء الغروب، ثم ضوء النجوم. ولم تشبه تلك المطاردة صيد ثعلب أو ظبي، حيث يتقاطع طريق ثعلب مُطارَد مع آخر، وقد يخترق ظبي مُطارَد قطيع ظباء أو أيائل؛ حتى قطعان الخراف قد تثير حيرة كلاب الصيد إن قطعت الطريق التي تتبعه.

لكن وحيد القرن ذاك كان الكائن السحري الوحيد في أرضنا في تلك الليلة، وعلقت بالعشب الأرضي رائحته النفَّاذة؛ تلك النفحة اللاذعة من السحر وسط الروائح المعتادة. لاحقته كلاب الصيد عبر الغابة حتى الطريق المؤدي إلى الوادي، والثعلبان يلحقان به ويراقبانه في صمت. بينما يهبط التل رفع قوائمه بحذر، وكأن ثقله يؤلمها عند نزول ذلك المنحدر، لكنه ما يزال يسبق كلاب الصيد. عندما بلغ سفح التل التفت يسارًا ورأى كلاب الصيد تتقدم نحوه، فركض إلى التل المقابل، لكنه لم يعد يستطيع إخفاء الإجهاد الذي نال منه، الذي تحاول جميع الكائنات

البرية إخفاءه حتى النهاية. أصبحت خطواته ثقيلة وكأنه يجرُّ قوائمه، وقد شاهده أورايون من التل المقابل.

وعندما وصل وحيد القرن إلى قمة ذلك التل كانت كلاب الصيد قريبة منه، لهذا التفت فجأةً ووقف أمامها يتوعَّدها بقرن وحيد كبير مثل السوط. نبحت الكلاب وهي تطوِّقه، لكنه لوَّح بقرنه بسرعة كبيرة لا تستطيع مجاراتها. إن كلاب الصيد تعرف مصدر الخطر عندما تراه. وعلى الرغم من حماسها الشديد للإجهاز عليه، فإنها قفزت إلى الوراء بعيدًا عن ذلك القرن الخَطِر. ثم أتى أورايون معه قوسه، لكنه لم يصوب سهامه؛ ربما لأن إطلاق سهم الآن قد يُعرِّض كلابه للخطر، وربما لشعور قديم ما يزال يراودنا حتى اليوم، وهو أن وحيد القرن لا يستحق ذلك.

على أنه استل سيفًا قديمًا يتقلَّده وتقدَّم وسط كلابه، واشتبك مع القرن المميت. قوَّس وحيد القرن عنقه يهاجم أورايون بقرنه. وعلى الرغم من إجهاده فإن عنقه العضلية تمتعت بقوة عظيمة فكانت ضرباته شديدة بالكاد تفاداها أورايون. حاول أورايون طعن عنق وحيد القرن، لكن الأخير دفع السيف بعيدًا عن هدفه وهاجمه بقرنه. صدَّ أورايون هجومه بقوة ذراعه وسيفه الطويل. صوَّب نحو عنقه مجددًا، لكن وحيد القرن صدَّ ضربته حانقًا وأخذ يهاجم صدره. خطا الكائن الأبيض الضخم إلى الأمام يدفع أورايون إلى الوراء. وبعنقه الرشيقة المُقوَّسة، تلك الكتلة العضلية التي تُحرِّك القرن المميت، أجهد ذراعَ أورايون في صدِّ هجومه. حاول أورايون أن يضرب عنقه مرة أخرى، لكنه أخفق في مسعاه. رأى عيني وحيد القرن تلمعان توعُّدًا في ضوء النجوم، رأى قوس عنقه الأبيض، فأدرك أنه لا يستطيع صدَّ مزيد من ضرباته. لكن واحدًا من كلابه انقض بفكِّه على وحيد القرن، وسرعان ما هاجمته باقي

الكلاب تُعمِل فيه أنيابها كيفما اتفق. توقف أورايون عن توجيه الطعنات إذ فصلت كلابه بينه وبين عنق العدو. تأوَّه وحيد القرن تأوُّهات مُروِّعة لا تشبه أي صوت نسمعه في أرضنا. ثم لم تُسمَع سوى زمجرة كلاب الصيد فوق الجسم الهامد، وهي غارقة في دمائه السحرية.

***

الفصل العشرون

حقيقة تاريخية

خطا أورايون بسوطه وسط كلابه المُجهَدة، التي أنعشها الغضب والنصر، وقادها بعيدًا عن الجسم الضخم الهامد. حرَّك بإحدى يديه السوط يرسم دوائر عريضة في الهواء، وبيده الأخرى التقط سيفه وقطع به رأس وحيد القرن. سلخ جلد العنق الأبيض ليتدلى من الرأس فارغًا. في أثناء عمله نبحت كلاب الصيد، واندفعت نحو تلك الجثة السحرية كلما سنحت لها الفرصة للإفلات من السوط. لهذا لزم أورايون كثير من الوقت للحصول على تذكاره، إذ اضطُر إلى العمل بجدٍّ بكلٍّ من سيفه وسوطه. وقد حصل عليه أخيرًا. ربطه إلى حمالة كتف جلدية، ثم تقلَّدها بحيث يعلو القرن الطويل الرأس الكبير ويشير طرفه إلى السماء، ويتدلى جلد العنق المسلوخ على ظهره.

وبينما يُنسِّق تذكاره بهذه الطريقة سمح لكلابه بالعبث بالجسم الهامد وتذوق دمائه. ثم هتف بها، نفخ في بوقه، وعاد على مهل إلى

قلعته تتبعه كلابه. عندئذٍ تسلل الثعلبان، اللذان تواريا عن الأنظار في انتظار تلك اللحظة، كي يتذوقا الدماء العجيبة.

عندما كان وحيد القرن يصعد التل الأخير شعر أورايون بإرهاق شديد كاد يُعجِزه عن إتمام المطاردة. لكن الآن والرأس الثقيل يتدلى من كتفيه، اختفى تعبه كله وسار بخفة كما كان في الصباح، جَذِلًا بنجاحه للمرة الأولى في صيد وحيد قرن. وانتعشت كلاب الصيد كأن الدماء التي لعقتها مدَّتها بطاقة عجيبة. وكانت عودتها صاخبة؛ تقفز مرحًا وتركض نشيطةً مثلما تفعل في الصباح عندما تخرج من مأواها.

على هذا الحال قطع أورايون التلال حتى رأى وادي إيرل أمامه يغشاه دخان نيران الإضاءة، الذي ينبعث من نافذة واحد من أبراج قلعته. وبعدما هبط المنحدرات مُتَّخِذًا الدروب التي يألفها أدخل كلابه مأواها. وقبل أن يمسَّ الفجر قمم التلال، وهو واقف أمام بوابة قلعته الخلفية، نفخ في بوقه. وعندما فتح الحارس العجوز البوابة لأورايون رأى قرن وحيد القرن يتمايل فوق رأسه.

إن هذا هو القرن نفسه الذي أرسله البابا هديةً إلى الملك فرانسوا الأول في الأعوام اللاحقة. لقد ذكر النحَّات الإيطالي بنفينوتو تشيليني الأمر في مذكراته. كتب أن البابا كليمنت أرسل في طلبه هو وتوبيا، صائغ المشغولات الذهبية، وأمرهما بوضع التصاميم لقاعدةٍ سيرتكز عليها أجمل قرن قد تراه الأعين. لنتصور إذًا جذل أورايون وبحوذته ذلك القرن؛ تذكار المغامرة حيث اصطاد وحيد قرن للمرة الأولى، الذي ستعدُّه الأجيال اللاحقة أجمل قرن قد تراه الأعين في مدينة مثل روما، مُجتَمع الرفيعِ من الأغراض. ولا شك أن البابا انتقى ذلك القرن من بين تشكيلة من القرون التي تجتذب الأنظار، لكن في تلك الأيام البدائية حيث تدور أحداث قصتي، كانت القرون من النُّدرة بحيث تُعَدُّ وحيدات

القرن كائنات خرافية. إن توبيا هو من صمَّم القاعدة الذهبية التي ارتكز عليها ذلك القرن وليس بنفينوتو تشيليني، وتلقَّى الملك فرانسوا الأول هذه الهدية في عام ١٥٣٣. إنني أذكر هذا التاريخ لأن من القراء من يفقدون اهتمامهم بالقصة إن لم يدعمها التاريخ، ويكترثون بالوقائع أكثر من الحكمة منها. إن تابع قارئ منهم حكاية أورايون حتى الآن فسيرغب في قراءة تاريخ أو حقيقة تاريخية. فيما يتعلق بالتاريخ فها أنا أذكر العام ١٥٣٣، أمَّا الحقيقة التاريخية فإنني أختار الهدية السخية التي كتب عنها بنفينوتو تشيليني[1]، لأن الحديث عن وحيدات القرن قد يجعل هذا القارئ يشعر بالوحشة لأنه بعيد عن التاريخ ووقائعه. لكن الحديث عن كيفية خروج ذلك القرن من قلعة إيرل، وأي أيادٍ حملته، وكيف وصل إلى مدينة روما يستلزم كتابًا آخر.

الآن أريد أن أقول إن أورايون أخذ رأس وحيد القرن إلى ثريل الذي سلخ جلده ونظَّفه، وغلى جمجمته ساعات، وبدَّل جلد عنقه وملأه بالقش، أمام أورايون الجالس وسط الكوخ حوله رؤوس الحيوانات المُعلَّقة على الجدران. وقد ذاع خبر اصطياد أورايون الكائن السحري سريعًا مثلما يعدو وحيد القرن. لهذا اجتمع برلمان إيرل في ورشة نارل مجددًا. جلسوا إلى الطاولة يناقشون صحة الخبر. لقد أبصر بعضهم الرأس مثل ثريل، لكن في بداية النقاش، لأن الاختلاف عادتهم، فقد تشبث البعض الآخر برأيهم القائل إن وحيد القرن لم يظهر في الوادي. وبينما يتناولون شراب نارل أنكروا وجود ذلك الكائن. لكن بعد برهة، سواء أقنعتهم حجة ثريل أم أن السماحة التي تنبت مثل زهرة جميلة من شراب نبيذ العسل ألانت عنادهم، فقد قَبِلوا ما عارضوه. وبعد التصويت

(1) كان القرن الذي أرسله البابا كليمنت إلى الملك فرانسوا الأول في عام ١٥٣٣ م مأخوذًا من كركند البحر. م

أقرُّوا بأن أورايون قتل وحيد قرن أتى من وراء الحقول التي نعرفها بعدما طارده إلى الوادي.

عندئذٍ ابتهجوا جميعًا، إذ تأكد وجود السحر الذي تاقوا إليه، والذي وضعوا الخطط للظفر به قبل أعوام طويلة، عندما كانوا أكثر شبابًا وأملًا في نجاح مسعاهم. وحالما انتهى التصويت جلب نارل مزيدًا من نبيذ العسل، فشربوا الأنخاب احتفالًا بتلك المناسبة السعيدة. قالوا إن قدرة أورايون السحرية قد تجلَّت أخيرًا، وإن وادي إيرل ينتظره مستقبل واعد. وفي الورشة الطويلة التي تضيئها الشموع، حيث الرجال على وفاق يبث فيهم الشراب الشعور بالراحة، سهل النظر إلى المستقبل وتصوُّر عام من الأمجاد لم يأتِ بعد. تحدثوا عن الأيام التي تبدو أكثر قربًا الآن، إذ ستعرف البلاد البعيدة اسم واديهم الحبيب؛ وعن صيت حقول إيرل الذي سيذاع في مدينة تلو أخرى. امتدح أحدهم قلعة الوادي، وامتدح آخر التلال الواسعة العالية التي تحيط به. أثنى أحدهم على الوادي نفسه الخفيِّ عن الأنظار، وأبدى آخر إعجابه ببيوته الدافئة ذات الطراز الفريد التي بناها القدماء، وأشاد آخر بالغابة الكثيفة التي تلوح في الأفق. وتطلعوا جميعًا إلى الوقت الذي سيعرف فيه العالم الرحب بهذا البهاء كله بفضل السحر الذي يملكه أورايون. لقد أدركوا جيدًا أن العالم مرهف السمع فيما يتعلق بالسحر ويلتفت إلى العجائب أيًّا كانت. وبينما أصواتهم عالية تمتدح السحر وتعيد الحديث عن وحيد القرن ومستقبل إيرل، رأوا الكاهن عند مدخل الورشة. هناك كان واقفًا في ردائه الأبيض ذي الزركشة البنفسجية والليل خلفه. في ضوء الشموع لحظوا حول عنقه السلسلة الذهبية التي تحمل رمزًا. رحَّب به نارل، ونقل آخر كرسيًّا إلى الطاولة، لكن الواعظ قد سمع حديثهم عن وحيد القرن. فرفع صوته

حيث يقف وخاطبهم قائلًا: «اللعنة على وحيدات القرن وطبيعتها وجميع الكائنات السحرية».

ووسط الرهبة التي حلَّت محل الراحة في الغرفة هتف أحدهم: «لا تلعنَّا يا سيدي!».

قال نارل: «نحن لم نصطد وحيدات القرن يا سيدي».

لكن الواعظ رفع يده وواصل صبَّ اللعنات: «اللعنة على قرونها والأرض التي تقطنها، والزنابق التي تتغذى عليها. اللعنة على الأغنيات التي تتحدث عنها. اللعنة التامَّة عليها وعلى كل ما يقطن في تلك الأرض البعيدة عن الخلاص».

توقف عن الحديث يمنحهم الوقت لاستيعاب كلماته كي يمقتوا وحيدات القرن، ووقف عند المدخل ساكنًا يجيل نظره في الغرفة صارمًا.

فكَّر الرجال في نعومة جلد وحيد القرن وسرعته، ورشاقة عنقه، وجماله في ضوء المساء الخافت عندما وصل إلى إيرل. فكروا في قرنه القوي المهيب، تذكروا الأغنيات القديمة التي تحكي عن نوعه. ساد الصمت والاضطراب جلستهم، لكنهم لم يستطيعوا مقت وحيد القرن.

أدرك الواعظ ما يفكرون فيه فرفع يده مجددًا في ضوء الشموع وقال: «اللعنة على سرعة وحيدات القرن، وجلدها الأبيض الناعم، وبهائها وكيانها السحري، وكل ما يشرب من الجداول المسحورة».

ورغم ما قال فقد رأى في أعينهم محبة لتلك الكائنات التي لعنها، لهذا لم يتوقف عن الكلام. علا صوته أكثر يتابع الحديث وعيناه الصارمتان على وجوههم المضطربة: «اللعنة على الترول والأقزام والعفاريت والجنِّ على الأرض، والهيبوجريف والبيجاسوس في الهواء، وقبائل عرسان وعرائس البحر في أعماق البحار. إن عقائدنا تُحذِّر من تلك الكائنات.

واللعنة على كل الشكوك والأوهام الغريبة والخيالات الجامحة. وليُعرِض البشر الطيبون عن السحر. آمين».

ثم استدار فجأة وخرج إلى الليل. عند الباب هبَّت الرياح فأغلقته. وعادت الغرفة الكبيرة في ورشة نارل كما كانت قبل لحظات، لكن المزاج الرائق قد تعكر وغابت الراحة. نهض نارل عند طرف الطاولة وتحدث يشقُّ الصمت الكئيب: «هل وضعنا خططنا ثقةً في السحر منذ أعوام طويلة كي نمقت الكائنات السحرية ونلعن جيراننا؛ أولئك القوم المسالمون الذين يعيشون وراء الحقول التي نعرفها، والكائنات الجميلة التي تُحلِّق في الهواء، ومن يعيشون في أعماق البحار ويهيمون بالبحَّارة الموتى؟».

أجابه أحدهم: «لا، لا».

وأقبلوا على نبيذ العسل مجددًا. ثم نهض أحدهم يرفع القرن الذي يتناول فيه شرابه، وتبعه الباقون حتى نهضوا جميعًا، يقفون قاماتهم منتصبة حول ضوء الشموع، ثم هتف آخر: «نخب السحر!».

فردَّد الباقون بصوت واحد: «نخب السحر!».

في طريقه إلى بيته سمع الكاهن ذلك الهتاف. فأحكم رداءه حوله وتمسك بأغراضه المقدسة، وتلا صلاة تُحصِّنه من الشياطين وما تَخفى ماهيتُه في الضباب.

***

الفصل الحادي والعشرون

على حافة الأرض

في ذلك اليوم أراح أورايون كلابه، لكنه في اليوم التالي استيقظ مبكرًا وذهب إلى مأواها وأطلق القطيع السعيد إلى الصباح البهيج، ثم قاده من الوادي إلى التلال قاصدًا حاجز الشَّفق مجددًا. لم يعد يأخذ قوسه معه، بل سيفه وسوطه فقط. لقد راقته مشاهدة ابتهاج كلابه الخمسة عشر باصطياد وحيد القرن، وشعر أنه يشاطر كلًّا منها فرحته. لكن إطلاقه السهام على فريسته سيخلق متعة فرد واحد فقط.

أمضى النهار كالمعتاد يقطع الحقول، يُحيِّي فلاحيها والعاملين فيها هنا وهناك، ويتلقى منهم التحيات والتمنيات بصيد سعيد. لكن عندما حلَّ المساء وهو يقترب إلى الحاجز قلَّ من يُحيُّونه عند مروره بهم، إذ بدا واضحًا أنه يقصد الموضع الذي لا يذهب إليه أي منهم وتُحجِم عقولهم عن التفكير به. هكذا سار وحده، لكن أفكاره أبهجته وسعد برفقة كلابه؛ لقد اتجهت أفكاره وكلابه إلى المطاردة.

هكذا وصل إلى حاجز الشَّفق مجددًا، الذي تحاذيه السياجات النباتية المحيطة بالحقول التي نعرفها، التي ينيرها ضوء خافت غريب عن أرضنا، وتليها كتل الشَّفق. لقد وقف مع كلابه يستند إلى واحد من تلك السياجات أمامه الحاجز. كان الضوء الذي ينير ذلك السياج، إن حاولنا تمثيله بشيء في أرضنا، يشبه ضبابًا وامضًا يغشى سياجًا يمسُّه طرف قوس قزح. إن قوس قزح يبدو زاهيًا في السماء، لكن طرفه يبهت إن وصل إلى سياج حقل واسع. على أنه إذا مسَّ السياج يترك به أثرًا سماويًّا ويتبدَّل مظهره. في مثل هذا الضوء تألقت أشجار الزعرور البعيدة النامية في حقول البشر الحدودية. ووراء ذلك السياج امتد حاجز الشَّفق مثل عقيق سائل يسبح فيه الضوء، لا يستطيع أي إنسان أن يرى ما وراءه، ولا ينتقل عبره صوتٌ سوى دويٍّ أبواق الأرض السحرية، الذي لا يسمعه سوى قلَّة من الآذان البشرية. الآن كانت الأبواق تُدوِّي، يخترق الرنين السحري لنغماتها العذبة الواضحة حاجز الضوء الخافت والصمت؛ تتخطى كل ما قد يعيقها كي تصل إلى أذن أورايون، مثلما يقطع ضوء الشمس الأثير كي ينير أودية القمر.

ثم سكتت الأبواق، ولم تصدر همسة من الأرض السحرية. أصبحت جميع الأصوات المسموعة تعود إلى المساء الأرضي العادي. حتى تلك الأصوات أخذت تخفت، لكن وحيدات القرن لم تظهر.

في البعيد علا نباح كلب. على الطريق كانت عربة وحيدة في طريقها إلى بيت سائقها المُتعَب. وفي درب بالجوار قاطع رجلٌ الصمتَ بحديثه، لكنه سرعان ما سكت عن الكلام، إذ بدا أن الكلمات تسيء إلى ذلك الصمت المهيب الذي يسود حقولنا في تلك الساعة. وفي ذلك الصمت حدَّق أورايون إلى الحاجز يترقب وصول وحيدات القرن، التي لم تأتِ قط، يتوقع أن يخطو واحد منها خارج الحاجز في أي لحظة.

لكنه لم يحسن التصرف عندما ذهب إلى الموضع نفسه حيث صادف وحيدات القرن قبل يومين. إن وحيدات القرن، من بين جميع الكائنات، هي الأكثر احتراسًا، وتحرس جمالها من أعين البشر بيقظة دؤوب. تعيش وراء الحقول التي نعرفها وقلَّما تدخل أرضنا مساءً، عندما يهدأ الوجود، وعندئذٍ تلزم أقصى درجات اليقظة ولا تغامر بالابتعاد كثيرًا عن الحدود. وإن احتمال مصادفة تلك الكائنات مرتين في المكان نفسه خلال يومين، بعد مطاردة واحد منها وصيده، كان ضئيلًا أكثر مما ظنَّ أورايون. لكن قلبه امتلأ بنشوة النصر، وإن لمواقع الصيد الثمين سطوة تجتذب الصيادين، لهذا عاد إلى تلك البقعة مجددًا. والآن تعلَّق نظره بالحاجز ينتظر ظهور واحد من تلك الكائنات الفخور؛ يتلهف إلى أن يرى الجسم الأبيض خارجًا من الوميض الخافت، لكن وحيدات القرن لم تأتِ.

وبينما أورايون واقف يطيل النظر أمامه بدأ ذلك الحاجز العجيب يغويه، حتى سبحت أفكاره مع ضوئه ورغب في الوصول إلى الجبال السحرية. إن المزارعين الذين يعيشون في الحقول على امتداد حافة الأرض يدركون جيدًا ذلك الإغواء، لهذا أبقوا أعينهم بعيدة عن تلك الأعجوبة ذات الألوان البديعة القائمة بالقرب من ظهور بيوتهم. إن لذلك الحاجز بهاءً لا يوجد مثله في أرضنا. وفي صباهم أُخبِر أولئك المزارعون أنهم إن نظروا إلى ضوئه الوامض فسيفقدون الابتهاج بالحقول الجميلة، وأخاديدها البُنِّية الدقيقة، والأمواج التي ترسمها سنابل القمح، وكل شيء أرضي. ستتعلق قلوبهم بالأرض السحرية، ستهفو دائمًا إلى جبال مجهولة وإلى قوم لا يباركهم الكاهن.

وبينما أورايون واقف عند حافة الشَّفق السحري، إذ المساء الأرضي يمضي، غادرت الأرض وعيه ولم يكترث لشيء غير الأرض السحرية.

من بين جميع البشر الذين ساروا في دروب الأرض لم يتذكر سوى أمه. أدرك فجأة، وكأن الشفق همس له، أنها من سلالة سحرية. لم يكن قد أخبره أحد بهذه الحقيقة، لكنه أدركها الآن.

لقد أمضى مساءات طويلة خلال أعوام كثيرة يتساءل أين ذهبت أمه ويُخمِّن إجابات لتلك التساؤلات. أتى بتخميناته في صمت ووحدة فلم يدرِ أحد فيما يفكر الصبي. والآن كانت الإجابة، فيما بدا، معلقة في الهواء. شعر أن أمه وراء ذلك الشفق المسحور، الذي يفصل حقول أرض البشر عن الأرض السحرية. اتخذ ثلاث خطوات إلى الأمام يواجه الحاجز. أصبحت قدماه أبعد ما يقف في الحقول التي نعرفها. قابل وجهه الحاجز الضبابي الذي تتراقص بداخله جميع ألوان اللآلئ. عندما تحرك تبعه واحد من كلاب الصيد، والتفت القطيع كله ينظر إليه مُتأهِّبًا. الآن توقف فهدأ القطيع. حاول أن ينظر من خلال الحاجز لكنه لم يرَ سوى الضوء الوامض، الذي يتألَّف من أشفاق ظهرت في الآفاق في نهاية آلاف النهارات، وقد حفظها السحر لتشييد ذلك الحاجز هناك. ثم هتف بأمه عبر تلك الهوَّة الهائلة، حيث تقع الأرض ومساكن البشر والزمان، الذي نقيسه بالدقائق والساعات والأعوام، على واحد من جانبيها، وعلى جانبها الآخر تقوم الأرض السحرية وطريقة أخرى لعمل الزمان. هتف بأمه مرتين وصمت ينتظر جوابًا، ثم هتف بها مجددًا. لكن لا صرخة أو همسة صدرت من الأرض السحرية. شعر بعِظم الفجوة التي تفصل بينه وبين أمه. أدرك أنها شاسعة وغامضة وقاطعة، مثل الفجوات التي تقصي حاضرنا عن يوم مضى، أو تلك التي تفصل بين الحياة اليومية والأحلام، بين العاملين في الحقول وأبطال الملاحم، بين من لا يزالون على قيد الحياة ومن رحلوا عنها. لقد ومض حاجز الشَّفق وتلألأ وكأن

ذلك الحدَّ الخرافيَّ بريء من الحيلولة بين أعوام منسيَّة واللحظة العابرة التي تُدعى الآن.

هناك ثبت أورايون في مكانه، خلفه المساء بأصواته الخافتة ووميض الشَّفق الأرضي. وأمامه، بالقرب من وجهه، قابله صمتٌ مطبقٌ يخلقه حاجزُ الأرض السحرية ذو الجمال العجيب الوامض.

وبينما يُحدِّق إلى حاجز الشَّفق شابه العرَّافين الذين يعبثون بالمحظور، إذ يحدِّقون إلى البلورات الضبابية. لقد اجتذب ضوءُ الحدِّ المُشيَّد من الشَّفق كلَّ ما هو سحري في دماء أورايون؛ كل ما ورثه من السحر من أمه. فكَّر أن أمه تعيش في راحة بعيدًا عن قسوة الزمان. فكَّر في بهاء الأرض السحرية الذي عرفه من ذكريات مُلتبِسة انتقلت إليه من أمه. لم يعد يسمع دويَّ المساء الأرضي أو ينتبه إليه. تضاءلت في نظره احتياجات البشر وأساليب عيشهم، والأشياء التي يخططون لها، وما يكدحون من أجل تحقيقه ويأملون في نيله، وكل الإنجازات الصغيرة التي يحققها صبرهم. عندما أدرك أنه من سلالة سحرية أراد أن يغادر الأرض التي يجلدها تسلُّط الزمان كي يتخلص من سطوته، أن يرحل عنها مُتَّخِذًا ما لا يزيد على خمس خطوات كي يدخل الأرض السحرية، حيث تجلس أمه مع أبيها على عرشه الضبابي، في قاعة ذات جمال مدهش حاولت الأغنيات وصفه. لم تعد إيرل موطنه، لم تعد حقولها أرضه، وشعر أنه بعيد عن البشر. أصبح يرى قمم الجبال السحرية مثلما يرى عمَّال الأرض أسقف البيوت القشيَّة وهم عائدون من عملهم في المساء؛ أصبحت الأرض السحرية موطنه. لقد سحره حاجز الشَّفق فرآه أكثر بهاءً من أي شيء أرضي.

من الممكن أن يُحدِّق البشر إلى الحاجز السحري طويلًا وينجحوا في الإعراض عنه، لكن أورايون لا يستطيع فعل ذلك. فعلى الرغم من

أن السحر له تأثير على الموجودات الدنيوية فإنها تستجيب له ببطء وتثاقل. لكن السحر في دماء أورايون هبَّ استجابةً للسحر الذي يتألق في حدِّ الشَّفق. لقد تألَّف ذلك الحاجز من الأضواء الأكثر ندرة التي تنتشر في الأثير، وومضات ضوء الشمس الأكثر بريقًا التي تباغت أرضنا خلال العواصف، والضباب الذي يعلو الجداول، والزهور التي تسطع في ضوء القمر، وأطراف أقواس قزح الفاتنة، وقطع من أشفاق أمسيات ثمينة محفوظة في ذاكرة المُسنِّين. خطا أورايون نحو ذلك السحر كي ينتهي من الأرض. لكن حالما مسَّت قدمه الشَّفق تمطَّى واحد من كلابه، كان جالسًا خلفه أسفل السياج، وأتى بصوت خافت كأنه يتثاءب مللًا. وكعادته التفت أورايون إلى الوراء عند سماعه ذلك الصوت، وذهب إلى كلبه يداعبه لحظات. كان ليُودِّعه، لكن باقي القطيع اجتمع حوله، يتمسح بيديه ويتطلع إلى وجهه. وبينما أورايون واقف وسط كلابه، بعد لحظات من طواف أفكاره في الأرض السحرية ذات الكائنات الخرافية وتسلُّقها قمم جبالها، أصبح تحت تأثير شِقِّه الأرضي. لا يعني هذا أنه رغب في الصيد أكثر من أن يصبح برفقة أمه بعيدًا عن تقلبات الزمان، في كنف والدها الذي لا تصفه الأغنيات حقَّ وصفه. ولا يعني هذا أيضًا أن حبه الشديد لكلابه أعجزه عن تركها. الحقيقة أن أجداده قد مارسوا الصيد جيلًا تلو آخر، مثلما تبعت سلالة أمه الخالدة السحر. لهذا كان السحر يجذبه بقوة عندما يتطلع إلى الأشياء السحرية، وكانت لدمائه الأرضية القوة نفسها التي تجتذبه إلى الصيد. لقد اجتذبه حاجز الشفق البهيّ إلى الأرض السحرية في لحظة، وفي اللحظة التالية اجتذبته كلابه إلى جهة أخرى؛ إن من الصعب على كل منا الإفلات من قبضة المؤثرات الخارجية.

وقف أورايون وسط كلابه مُستغرِقًا في التفكير، يحاول أن يُقرِّر إلى أين سيتجه، يحاول أن يوازن بين المروج الهادئة في الأرض السحرية التي لا تعرف زمانًا وبهائها الساكن، والحقول والمراعي والسياجات النباتية في أرض البشر. لكن كلابه العزيزة كانت حوله، تتمسح به، تنبح، تتطلع إلى عينيه، وتخاطبه إن استطاعت ذيولها وقوائمها وأعينها البنية الواسعة الحديث قائلة: «لنبتعد! لنبتعد!». وسط ذلك الاضطراب تشوشت أفكار أورايون ولم يستطع اتخاذ قرار. فاستجاب لرغبة كلابه، وعادوا إلى القلعة يقطعون معًا الحقول التي نعرفها.

***

الفصل الثاني والعشرون

يُعين أورايون مُساعِدًا

وبينما الشتاء ينقضي عاد أورايون مع كلابه إلى ذلك الحدِّ البديع مرارًا، وهناك انتظر حتى غاب الشَّفق الأرضي. في بعض الأحيان رأى وحيدات القرن؛ تلك الكائنات البيضاء الفاتنة، تخرج في صمت وخفَّة إذ حقولنا هادئة لكنه لم يعد بمزيد من قرونها إلى قلعة إيرل، ولم يحاول الصيد في الحقول التي نعرفها مجددًا، لأن وحيدات القرن لم تخطُ سوى بضع خطوات في أرضنا ولم يستطع أورايون إبعادها عن الحاجز السحري. لقد حاول أن يفعل ذلك مرَّة، لكنه كاد يفقد قطيعه كله. لقد اقتربت الكلاب من حاجز الشَّفق فركض يبعدها عنه بسوطه، على أنها لو أمعنت قليلًا في الاقتراب إلى ذلك الحاجز لما استطاعت سماع بوق أورايون الأرضي مجددًا أبدًا. لقد علَّمته هذه التجربة أن على الرغم من سلطته على قطيعه، المُدعَّمة بشيء من السحر، فإن رجلًا

واحدًا لا يستطيع السيطرة على كلاب الصيد، بخاصة عندما تقترب من تلك الحافة، التي إن شردت نحوها فستضيع إلى الأبد.

لهذا شاهد أورايون الفتية يخوضون المنافسات الرياضية في المساءات في إيرل، حتى حدَّد ثلاثة منهم يفوقون الباقين سرعةً وقوة. واختار اثنين منهم كي يصبحا مُساعدين له. عندما انتهت المباريات وأضيئت مصابيح البيوت، ذهب إلى كوخ فتى منهم كان طويلًا تتمتع ساقاه بسرعة كبيرة. عندما دخل والده الكوخ ومعه أورايون نهض الفتى وأمه لتحيتهما. سأل أورايون الفتى إن كان يقبل أن يرافقه هو وكلابه حاملًا سوطًا كي يمنعها من الشرود. عمَّ الصمت لأن جميع الأهالي يعلمون أن أورايون يصطاد كائنات عجيبة ويأخذ كلابه إلى أماكن غريبة، ولم يجرؤ أحد منهم على اجتياز الحقول التي نعرفها. لقد خشي الفتى أن يجتازها وتردد والداه في السماح له بالرحيل. أخيرًا قطعت الصمتَ اللعثمة والتمتمة والأعذار، وأدرك أورايون أن الفتى لا يناسب تلك المهمة.

بعد ذلك ذهب إلى كوخ الفتى الثاني. هناك كانت الشموع مضاءة وطاولة العشاء جاهزة، تجلس إليها امرأتان مُسِنَّتان بجوار الفتى. أخبرهم أورايون أنه يحتاج إلى مساعد، وسأل الفتى مرافقته في رحلات الصيد. لكن المرأتين المُسِنَّتين أعربتا عن خوفهما بوضوح. صاحتا معًا تقولان إن الفتى صغير السن، وإنه ليس بتلك السرعة، وإنه لا يستحق نيل مثل هذا الشرف، وإن كلاب الصيد لن تثق به. وواصلتا تقديم الأعذار حتى فقد كلامهما ترابطه. فغادر أورايون كوخهما ليذهب إلى كوخ الفتى الثالث، وهناك تكرر الأمر نفسه. لقد أراد الأهالي أن يحكم السحر إيرل، لكن لمسة حقيقية منه، أو حتى التفكير فيه، أثارت قلقهم. لم يسمحوا لأبنائهم بالذهاب إلى المجهول، حيث سيواجهون أشياءً

ضخَّمتها الشائعات الذائعة في قرية إيرل، حتى شابهت ظلًّا كبيرًا ينذر بالشر. لهذا اصطحب أورايون كلابه من الوادي وذهب وحده إلى الشرق، يقطع الحقول التي يتجنبها أهل الأرض.

في الصباح الباكر في الأيام الأخيرة من شهر مارس، وأورايون نائم في برجه، بلغ سمعه من البعيد صراخ الطواويس. سمع ثغاء الخراف في المراعي البعيدة يوقظه أيضًا. وصاحت الديكة عاليًا إذ يملأ الربيع المشمس الهواء. نهض أورايون وذهب إلى كلابه، وسرعان ما رآه العمَّال في إيرل يصعد الجانب المنحدر من الوادي تتبعه كلابه السمراء فوق العشب الأخضر. هكذا مرَّ عبر الحقول التي نعرفها. ووصل قبل غروب الشمس إلى الشريط الأرضي الذي ينصرف عنه البشر، الذي تقوم بيوتهم وسط حقول الطين البني الغليظ إلى الغرب منه، وتبدو جبال الأرض السحرية لامعةً فوق حدِّ الشَّفق إلى الشرق منه.

مرَّ مع كلابه عبر السياج الأخير إلى الحاجز. وحالما وصل هناك رأى ثعلبًا ينسلُّ خارجًا من الشَّفق الحدوديِّ، يركض بضعة أمتار على امتداد حافة أرضنا، ثم ينسلُّ عائدًا إلى الشَّفق. لكن أورايون لم يلقِ بالًا للأمر لأن الثعالب اعتادت أن تتردَّد على حافة الأرض السحرية وأن تعود إلى أرضنا مجددًا. هكذا تجلب إلى أرضنا شيئًا لا نعرفه. لكن ذلك الثعلب سرعان ما خرج من الشَّفق مرة أخرى ليركض قليلًا، ثم عاد إلى الحاجز المضيء. راقبه أورايون كي يرى ماذا يفعل فتكرر الأمر نفسه. وقد راقبته كلاب الصيد أيضًا، لكنها لم تُبدِ رغبة في صيده بعدما ذاقت دماءً عجيبة.

عندما لحظ أورايون خروج الثعلب المتكرر من حقولنا وعودته إليها بسرعة تعاظم فضوله حول هذا السلوك الغريب، وسار في الاتجاه الذي يمشي فيه الثعلب. تبعته كلاب الصيد ببطء وسرعان ما فقدت الاهتمام

بما يفعل الثعلب. ثم جاء تفسير السلوك الغريب فجأة، إذ قفز الترول لورولو عبر حاجز الشَّفق إلى أرضنا. هكذا اتضح أن الثعلب كان يمرح معه.

رفع الترول صوته يُحدِّث نفسه أو رفيقه الثعلب قائلًا بلغة الترول: «إنسان!».

عندئذٍ تذكر أورايون الترول الذي جاء إلى غرفته مُحصَّنًا بتعويذة ضد الزمان، وقفز من رفٍّ إلى آخر، وأثار غضب زيروندرِل التي خشيت تحطُّم أوانيها الخزفية، فقال: «الترول!».

وقد نطق تلك الكلمة بلغة الترول. لقد حدَّثته بها والدته عندما كان طفلًا، وهي تهمس له بحكايات الترول وأغنياتهم التقليدية.

سأل لورولو: «من هذا الذي يتقن لغة الترول؟».

أخبره أورايون باسمه لكنه لم يعنِ للترول شيئًا. فجلس الأخير القرفصاء ونقَّب فيما يملكه الترول نظيرًا للذاكرة التي يملكها الإنسان. وبينما يبحث في الذكريات البسيطة، التي أفلتت من بطش الزمان في أرضنا ومن السكون الأبدي في الأرض السحرية، تذكر فجأةً زيارته إلى إيرل. نظر إلى أورايون واستغرق في التفكير، عندئذٍ أخبره أورايون باسم أمه الجليل فأدَّى لورولو حركةً تُعرَف وسط الترول في الأرض السحرية باسم «خضوع النقاط الخمس». هذا يعني أنه انحنى ليمسَّ الأرض بركبتيه ويديه وجبهته. ثم قفز إلى الهواء لأنه لا يحتمل الجديَّة طويلًا.

سأله أورايون: «ماذا تفعل في أرض البشر؟».

- أمرح.

- ماذا تفعل في الأرض السحرية؟

- أشاهد الزمان.

- هذا غير مُسلٍّ.

- لكنك لم تفعله قط. أنت لا تستطيع مشاهدة الزمان في أرض الإنسان.

- لماذا؟

- لأنه يتحرك بسرعة كبيرة جدًّا.

تأمل أورايون هذه المسألة لكنه لم يستطع البتَّ فيها لأنه لم يغادر الأرض التي نعرفها قط، ولم يخبر سوى وتيرة واحدة لمرور الزمان، لهذا لم يستطع المقارنة.

سأله الترول: «كم عامًا مرَّ منذ جئتُ لزيارة إيرل؟».

- تسأل عن الأعوام؟

خمَّن الترول عددها قائلًا: «مئة؟».

- اثنا عشر عامًا تقريبًا. كم عامًا مرَّ هناك؟

- لا نزال في اليوم نفسه.

عندئذٍ توقف أورايون عن الحديث عن الزمان. لقد سئم النقاش حول موضوع لا يعلم عنه، فيما بدا، ما يعلمه ترول بسيط.

قال: «ما رأيك في أن تحمل سوطًا وتركض مع كلاب الصيد خاصَّتي عندما نخرج إلى حقول الأرض كي نصطاد وحيدات القرن؟».

دقَّق لورولو النظر إلى كلاب الصيد، وتأمل أعينها البنية. اتجهت الكلاب بأنوفها الحذرة إلى الترول وتشمَّمته مُتسائلة.

قال لورولو: «إنها كلاب (وكأن هذا يعيبها) لكن أفكارها طيبة».

- إذًا ستحمل السوط؟

- أجل، أجل.

عندئذٍ أعطاه أورايون سوطه الخاص ونفخ في بوقه. ثم أمر لورولو بأن يُبقي القطيع معًا وأن يقوده خلفه، ثم ابتعد عن حاجز الشَّفق.

لكن كلاب الصيد اضطربت لمرأى الترول، تشمَّمته مرارًا فتأكد لها أنه ليس بشريًّا، ورفضت طاعة مخلوق يصغرها حجمًا. ركضت نحوه فضولًا لتبتعد نفورًا، ثم شردت عصيانًا. لكنها لم تستطع التغلب على الترول السريع واسع الحيلة. وارتفع السوط فجأةً، يبدو في يده الصغيرة أكثر ضخامة، ليهبط على طرف أنف واحد من كلاب الصيد. صاح الكلب مدهوشًا، وظن باقي القطيع المضطرب أن ما حدث كان مصادفة. لكن السوط ارتفع مرة أخرى ليهبط على طرف أنف آخر. فأدركت كلاب الصيد أن المصادفة لم توجِّه هاتين الضربتين اللاسعتين بل عينًا دقيقة ثاقبة النظر. ومنذ ذلك الحين فصاعدًا أطاعت الترول رغم أن رائحته لا تشبه البشر.

هكذا عاد أورايون وقطيع كلاب الصيد إلى القلعة ليلًا يتبعهم لورولو. ولم تكن أمهر كلاب الراعي لتستطيع أن تُبقي قطعان الخراف في الأراضي التي تسكنها الذئاب أكثر قربًا وأمنًا مما أبقى لورولو قطيع كلاب أورايون. وقد اختفت القمم الزرقاء للجبال السحرية عن الأنظار قبل أن يبتعد أورايون عن حاجز الشَّفق قرابة مئة خطوة، إذ غابت قممها في ظلام الأرض الذي يغشى الحقول التي نعرفها.

في طريقهم إلى القلعة سرعان ما ظهرت كوكبات النجوم التي نراها من أرضنا. من حين لآخر رفع لورولو بصره إليها مأخوذًا بجمالها مثلما نفعل في بعض الأوقات، لكنه إذ يقطع الحقول الأرضية جذب اهتمامه ما يوجد على الأرض، وركَّز انتباهه على كلاب الصيد معظم الوقت. متى يتلكأ كلب يقرع سوط لورولو طرف ذيله، فتتناثر الشعرات

وفتلات السوط، ويصيح الكلب وينضم إلى البقية، ويدرك القطيع أن عليه الذهاب إلى القلعة لتفادي تلك الضربات السديدة.

إن الخفَّة في استخدام السوط والدقَّة في التصويب تتحققان عندما يُكرِّس المرء حياته لحمل السوط وسط كلاب الصيد؛ تتحققان، لنَقُل، بعد عشرين عامًا من ممارسة ذلك النشاط. أحيانًا تكونان مهارتين تتوارثهما العائلات فتختصر سنوات من الممارسة. لكن سنوات الممارسة، والمهارة التي قد تُورَّث، لا يمكنهما أن تُكسِبا ضربات السوط ما يُكسِبه السحر. لقد رمى لورولو السوط رميات سريعة مثل طرفة العين، وكانت تسديداته مُباشِرةً مثل نظرات تُصوَّب بلا عائق. ومع أن المارَّة من البشر ما كانوا ليلحظوا غرابةً في قرعات ذلك السوط، فإن كلاب الصيد أدركت أن بها شيئًا لا ينتمي إلى أرضنا.

كان الفجر قد مسَّ السماء عندما رأى أورايون قرية إيرل، تعلوها أعمدة دخان نيران الإضاءة. ثم هبط مع كلابه ومُساعِده الجديد منحدرات التلال. وبينما يقطع الطريق لم ترمقه سوى نوافذ البيوت، ووسط الصمت والبرد وصل إلى مأوى الكلاب. بعدما استقر القطيع في مكانه عثر أورايون على موضع مناسب للترول في مخزن متهالك به بعض الجِوالات وأكوام من التِّبن، خلفه برج للحمام شردت منه بعض الحمامات إلى السقف. هناك ترك أورايون لورولو وعاد إلى برجه يشعر بالبرد لأن الطعام والنوم يعوزانه. ونال منه التعب كما لم يكن ليشعر لو طارد وحيدات القرن، لكن ضجيج ثرثرة الترول عندما قابله عند حاجز الشَّفق لم يسمح له بترقُّب تلك الكائنات الحذرة في ذلك المساء، ثم استغرق في النوم. في المخزن المتهالك جلس الترول طويلًا على كومة تِبن يراقب الزمان. عبر شقوق نافذة قديمة رأى النجوم تتبدل مواضعها، رآها تبهت إذ يظهر الضوء الآخر. رأى الشمس تشرق كالمعجزة. شعر

بكآبة المخزن الذي يحيط به هديل الحمامات الحزين وشاهدها تتململ. سمع تغريد الطيور البرية فوق أشجار الدردار القريبة، وخطوات الرجال الذين يغادرون بيوتهم إلى الصباح، وقرقعة العربات وصهيل الخيول وخوار الأبقار، لحظ كل شيء يتبدل إذ يتقدم النهار. إن سِمَة تلك الأرض التبدُّل! بدا أن الألواح القديمة من الخشب العَفِن في مخزن التِّبن، والحزاز الذي يكسو ملاط الجدران في الخارج تُشير إلى حقيقة واحدة: التبدُّل واستحالة الدوام. فكَّر لورولو في السكون الأبدي الذي يحفظ بهاء الأرض السحرية، ثم فكَّر في قبيلة الترول التي تركها، يتساءل كيف قد يرى قومه الحياة في أرض البشر. ثم ضحك فجأة عاليًا، فأفزعت ضحكاته الحمامات.

***

الفصل الثالث والعشرون

بشاهد لورولو خراك الأرض

بينما النهار يتقدم وأورايون مستغرق في نوم عميق، على مسافة قصيرة منه ترقد كلاب الصيد في مأواها هادئة، والأهالي يروحون ويجيئون سيرًا أو فوق عرباتهم، شعر لورولو بالوحدة. إن الترول من الكثرة بحيث لا يشعر أي منهم بالوحشة في الأودية التي يسكنونها. هناك يجلسون في صمت يستمتعون ببهاء الأرض السحرية، أو يستغرقون في أفكارهم الوقحة، أو يُغرِقون في الضحك في تلك اللحظات النادرة عندما يضطرب سكون الأرض السحرية. هناك يشبهون جماعات الأرانب المُتآنِسة. لكن الآن لم يوجد في جميع بقاع الأرض سوى ترول واحد، لهذا شعر ذلك الترول بالوحدة.

على بعد عشرة أقدام من مخزن التِّبن كان باب برج الحمام الذي يبلغ ارتفاعه ستة أقدام مفتوحًا. يوجد سلم يقود إلى الطابق العلوي من مخزن التِّبن مُثبَّت إلى جداره بمفصلات حديدية، لكن برج الحمام كان

منعزلًا لم يُثبَّت إليه أي شيء كيلا تصل إليه القطط. ومنه صَدَرَ هديرُ الحياة الذي جذب الترول الوحيد. على أن القفز من باب إلى باب آخر بعيد لم يصعب على الترول، وهبط في برج الحمام تعلو وجهه ابتسامة وقحة كالمعتاد. لكن الحمامات رفرفت بقوة وغادرت عبر النوافذ، هكذا ظلَّ الترول وحيدًا.

لقد أعجبه برج الحمام حالما رآه. راقته أمارات الحياة التي تملؤه: مئات المقصورات الصغيرة من الجصِّ والأردواز، والريشات في جميع الأرجاء، والرائحة العفنة. راقه التناغم الذي ساد ذلك المكان الهادئ على مدار السنين، واسترعت انتباهه شباك العناكب الضخمة التي تكسو زواياه وتحمل غبار زمان طويل. لم يدرِ ما عساها تكون تلك الشِّباك لأنه لم يرَ مثلها في الأرض السحرية، لكن مظهرها البديع أعجبه.

إن الزمان الذي ملأ زوايا برج الحمام بخيوط العنكبوت، وشقَّق الجصَّ الذي يكسو جدرانه ليظهر الطوب الأحمر أسفله، ونزع عن سقفه بعض ألواح الأخشاب والأردواز، منحه طابعًا يشبه قليلًا سكون الأرض السحرية. رغم ذلك فقد لحظ لورولو حراك الأرض في كل شيء حوله، حتى ضوء الشمس النافذ عبر ثقوب التهوية الصغيرة الذي ينير الجدران كان يتحرك.

بعد قليل عادت الحمامات ترفرف بقوة وحطَّت أقدامها على سطح الأردواز فوق رأسه، لكنها لم تعد إلى مقصوراتها. رأى ظلَّ ذلك السقف المائل وظلال الحمامات المُتململة تنعكس على سطح آخر أكثر انخفاضًا. كان ذلك السقف المنخفض مُغطىً في معظم أجزائه بالحزاز الرماديِّ، الذي تغطيه بقع مستديرة من الحزاز الأصفر المُتكوِّن حديثًا. سمع بطَّة تزعق زعيقًا بطيئًا، ورجلًا يدخل إسطبلًا في الجوار ويقود فرسًا إلى الخارج. استيقظ كلب صيد وأخذ ينبح. حلَّقت الغربان

عاليًا وهي تنعق بعدما طارت بعيدًا عن أحد الأبراج. رأى سحبًا ضخمة تمرُّ سريعًا فوق قمم التلال البعيدة. سمع حمامة تسجع فوق شجرة مُجاوِرة. مرَّ بعض الأهالي يتحدثون. وبعد برهةٍ أدرك دَهِشًا أنه في زيارته السابقة إلى الأرض، لم يملك وقتًا لينتبه إلى أن كل شيء بها يتحرك حتى ظلال البيوت! لقد لحظ أن ظلَّ السطح الذي يجلس أسفله تحرك قليلًا على السطح المغطى بالحزاز الرمادي والأصفر. إن الأرض في حراك وتبدُّل دائمين! أخذ يقارن بينها وبين سكون موطنه الشديد، حيث تتحرك كل لحظة بوتيرة أبطأ كثيرًا من ظلال بيوت الأرض، ولا تنقضي حتى تستخلص جميع كائنات الأرض السحرية كلَّ ما تحمله من الرضا.

بعدئذٍ خفقت الحمامات بأجنحتها تعود من قمم أسوار أبراج إيرل، حيث التجأت بعض الوقت تحتمي بارتفاعها الشاهق ورسوخها من الكائن الجديد الغريب الذي أفزعها. حطَّت على عتبات النوافذ الصغيرة ونظرت بعينٍ واحدة إلى الداخل حيث يوجد الترول. كانت بعض الحمامات بيضاء اللون، أمَّا الرمادية منها فتخضَّبت أعناقها بألوان قوس قزح التي تضاهي ألوان الأرض السحرية جمالًا. وبينما تراقب بارتياب الغريب الجالس في إحدى الزوايا تاق لورولو إلى رفقتها. ولأن تلك الكائنات الأرضية كثيرة الحركة التي تُحلِّق في هواءٍ حَرونٍ أبت الدخول، حاول لورولو طمأنتها بالحراك الذي ظنَّ أنها تعتاده وأن أهل الأرض يبتهجون به. لهذا قفز إلى الهواء فجأة، وارتمى نحو صندوق صغير مُثبَّت عاليًا إلى واحد من الجدران، ثم وثب منه إلى الجدار التالي وعاد إلى الأرض، لكن الأجنحة اصطفقت وطارت الحمامات. عندئذٍ أدرك لورولو أن الحمامات تميل إلى الهدوء. لقد عادت إلى السطح تدقُّ أقدامها الأردواز، ولم ترجع إلى بيتها قبل وقت طويل. نظر الترول

الوحيد عبر نوافذ برج الحمام يلاحظ الحياة على الأرض. حطَّ طائر الذعرة البيضاء على السطح المنخفض فشاهده حتى غادر. ثم حطَّ عصفوران يلتقطان حبَّات الذُّرة على الأرضية فشاهدهما أيضًا. كانت تلك الطيور أجناسًا لا يعرفها الترول ويراها للمرة الأولى، وقد أظهر اهتمامًا كبيرًا بكل حركة تأتي بها مثلما قد نَفعل إن رأينا طائرًا مجهولًا لدينا. بعدما طار العصفوران بعيدًا زعقت البطَّة بتمهُّلٍ وتأنٍّ فظلَّ لورولو قرابة عشر دقائق يحاول تفسير ما قالت. ومع أنه توقف عن المحاولة لأن أشياءً أخرى جذبت انتباهه، فقد كان واثقًا أن ما قالته كان مهمًّا. نعقت الغربان مجددًا لكن العبث بدا في أصواتها فلم يكترث لها لورولو. لقد استمع إلى الحمامات التي تلزم السطح وتأبى العودة إلى بيتها. لم يحاول تفسير ما تقول، بل شعر أنها تحكي قصة الحياة وأن كل شيء على ما يُرام. شعر وهو يستمع إلى هديلها أن الأرض لا بدَّ راسخة عتيقة.

وراء الأسطح انتصبت الأشجار الطويلة عاريةً من الأوراق، باستثناء أشجار البلوط وبعض أشجار الغار والصنوبر والطقسوس دائمة الخضرة، واللبلاب الذي يتسلق الجذوع، لكن براعم أشجار الزَّان كانت جاهزة للتفتُّح. سطع ضوء الشمس على البراعم والأوراق، ولمع اللبلاب والغار. هبَّ النسيم فأثار دخانًا تصرفه مدخنة قريبة. في البعيد رأى لورولو سورًا عاليًا من الحجر الرمادي يُطوِّق حديقة ترقد تحت الشمس، وفي ضوئها رأى فراشة طائرة أسرعت في طيرانها فجأة عندما وصلت إلى الحديقة. رأى طاووسين يمشيان على مهل. لحظ أن ظلال الأسطح تغشى الجزء السفلي من الأشجار اللامعة. سمع ديكًا يصيح في مكان ما، ونبح كلب صيد مرة أخرى. ثم نزل المطر على الأسطح فجأةً فابتغت الحمامات العودة إلى بيتها. هبطت إلى النوافذ

مجددًا، ونظرت إلى الترول نظرات جانبية. ثبت لورولو في موضعه هذه المرة. وبعد مضي بعض الوقت، رغم أن الحمامات تدرك أنه لا ينتمي إلى جنسها، فقد اتفقت على أنه ليس قطًّا. هكذا عادت أخيرًا إلى مقصوراتها، وهناك واصلت الهديل تروي قصصًا قديمة. ودَّ لورولو أن يكافئ الحمامات بسرد حكايات مُشوِّقة عن الترول والأساطير المُبجَّلة في الأرض السحرية، لكنه أدرك عجزه عن أن يُفهِمها لغة الترول. لهذا جلس يستمع إلى حديثها حتى بدا له أنها تحاول تهدئة حراك الأرض، وظنَّ أن هديلها الخافت تعويذة تنطق بها ضد الزمان كي تمنعه من أن يضرَّ أعشاشها، لأنه لم يدرك سلطان الزمان بعد ولم يدرِ أن لا شيء في أرضنا يستطيع الوقوف في وجهه. لقد بَنَت الحمامات أعشاشها فوق أطلالِ أعشاشٍ قديمة في برج الحمام ذاك، الذي يقوم على يابسة تتألَّف ممَّا قد تداعى بفعل الزمان، مثلما يملأ ما يتفتَّت من التلال أرضَ الوادي في الخارج. لكن الترول لم ينتبه إلى ذلك الزوال المُمتدِّ المتواصل لأن عقله مُهيَّأ لحياة السكون والهدوء في الأرض السحرية، وقد انشغل فكره بأمور أقل تعقيدًا. ولمَّا رأى الحمامات مُسالِمات قفز إلى مخزن التِّبن، ثم عاد بحزمة تِبن صغيرة وضعها في زاوية كي يجلس مرتاحًا. عندما لحظت الحمامات حركته نظرت إليه نظراتها الجانبية تهز أعناقها مرتابة، لكنها أخيرًا قرَّرت قبوله نزيلًا. فاستراح في جلسته يستمع إلى تاريخ الأرض. لقد صدَّق أن هذا ما تحكيه الحمامات رغم أنه لا يعرف لغتها.

لكن النهار يمرُّ بطيئًا، والترول شعرَ بالجوع أسرع كثيرًا ممَّا يحدث في الأرض السحرية. هناك لم يلزمه سوى مدِّ يده وجمع التوت الذي يتدلى من الأشجار التي تنمو في الغابة التي تحدُّ أودية الترول. ولأن الترول يتناولون التوت متى يشعرون بالجوع، وهذا أمر نادر الحدوث،

فقد سُمِّيت تلك الثمار باسم «توت الترول». الآن قفز لورولو من برج الحمام، وركض إلى الخارج يبحث عن توت الترول في كل مكان، لكن التوت لم يكن موجودًا لأن أشجاره تزدهر في موسم واحد كما نعلم جميعًا؛ هذه واحدة من حيل الزمان. لكن اختفاء التوت كله من الأرض فترةً كان أمرًا مُذهِلًا لا يستطيع الترول استيعابه. والآن بينما يقف وسط أبنية المزارع رأى جرذًا يركض نحو كوخ مظلم. لم يكن لورولو يعرف لغة الجرذان، لكن عندما يتصادف كائنان يسعيان وراء الشيء نفسه فإن كلًّا منهما، بطريقة ما، يدرك إلام يسعى الآخر حالما ينظر إليه. إننا نجهل مِهن الغرباء عنا، لكننا عندما نلتقي شخصًا يؤدي مهنتنا سرعان ما ندرك هذه الحقيقة بطريقة ما دون أن يخبرنا بها. هكذا حالما رأى لورولو الجرذ يتجه إلى الكوخ أدرك أنه يبحث عن الطعام، لهذا تبعه بهدوء. سرعان ما وصل الجرذ إلى جِوال مملوء بالشوفان، ولم يستغرق في فتحه وقتًا أطول من اللازم لتقشير حفنةٍ من البازلاء، وشرع في تناول الشوفان.

سأله الترول بلغته الأم: «هل مذاقه طيب؟».

نظر إليه الجرذ بارتياب، وقد لحظ الشبه بينه وبين الإنسان من ناحية واختلافه عن الكلاب من ناحية أخرى، لكن ما رآه لم ينل رضاه بأي حال. وبعد نظرة طويلة إلى الغريب استدار في صمت وخرج من الكوخ. ثم تناول لورولو الشوفان ووجده جيد المذاق.

بعدما تناول لورولو ما يكفي من الشوفان عاد إلى برج الحمام، وهناك جلس عند نافذة يراقب أفعال الزمان الغريبة. ارتفع الظلُّ الذي يغشى الأشجار، واختفى اللمعان من الغار وأوراقه السفلية، ثم استحال الضوء الفضي الذي ينير أوراق اللبلاب والبلُّوط ذهبيًّا شاحبًا، والظلُّ آخذ في الارتفاع. إن العالم يحفل بالتبدُّل.

سار ببطء رجلٌ عجوز ذو لحية بيضاء طويلة حتى وصل إلى مأوى كلاب الصيد، فتح بابه ودخل يُطعِمها لحمًا جلبه من مخزن مجاور. ضجَّ المساء بنباح كلاب الصيد ثم خرج العجوز. وبدا انصرافه المُتأنِّي في نظر الترول المُتيقِّظ مظهرًا من مظاهر حراك الأرض.

ثم جاء رجل يقود فرسًا إلى الإسطبل بتمهُّل، ثم رحل تاركًا الفرس يأكل العلف. الآن ازداد ارتفاع الظلال على الجدران والأسطح والأشجار، حتى أصبح الضوء ينير قمم الأشجار وأعلى برج الناقوس فقط. بدت البراعم الحمراء على أغصان الزَّان كأنها ياقوت باهت. آنست السكينةُ السماءَ الزرقاء. وتخضبت السحب الصغيرة القليلة، التي تتروَّى في حركتها على صفحتها، باللون البرتقالي. ومرَّت بها طيور الغداف نحو تجمُّع من الأشجار أسفل التلال. كان ذلك المشهد هادئًا لكن الترول الجالس في برج الحمام يحيط به الريش، يشاهد الطيور تُحلِّق زاعقةً، ويسمع صوت الفرس الخافت يتناول طعامه، ووقع الأقدام في طريقها إلى البيوت، والبوابات تنفتح وتنغلق، رأى فيما يحدث دليلًا على أن لا شيء في الأرض يعرف السكون. لقد بدت القرية الكسول المنسيَّة في وادي إيرل، التي تجهل الكثير عن البقاع الأخرى ولا تدري البقاع الأخرى بتاريخها، في نظر هذا الترول البسيط دوَّامة لا تهدأ.

الآن رحل ضوء الشمس عن القمم، وتألَّق هلالٌ عمره بضعة أيام فوق برج الحمام، لا يستطيع لورولو أن يراه من نافذته، لكنه يملأ الهواء بصبغة جديدة غريبة. لقد أثارت هذه التغييرات حيرة لورولو حتى فكَّر في العودة إلى الأرض السحرية، لكن الرغبة في إدهاش قبيلته قد عاودته، لهذا انسلَّ من برج الحمام وخرج يبحث عن أورايون.

***

الفصل الرابع والعشرون

يتحدث لورولو عن الأرض وسلوك البشر

لقد عثر لورولو على أورايون في قلعته وأخبره بخطته. تضمنت الخطة بإيجاز تعيين مزيد من السِّياط للسيطرة على القطيع، لأن سوطًا واحدًا لا يكفي دائمًا لحماية جميع كلاب الصيد من الشرود عند حاجز الشَّفق، الذي تقع على بُعد بضعة أمتار منه أرضٌ إن ضاع فيها كلب صيد واستطاع العودة إلى موطنه، كما قد تعود الكلاب التائهة إلى مأواها، فسيصبح مُنهَكًا مُثقَلًا بالعمر بعد غياب قد لا يطول عن نصف ساعة أرضية. قال لورولو إن كلَّ كلب صيد يجب أن يلازمه ترول يُوجِّهه، ويركض معه عند المطاردة، ويخدمه عندما يعود إلى مأواه جائعًا ومُوحلًا. أدرك أورايون الميزة الكبيرة في أن يصبح قطيعه تحت مسؤولية كائنات يقظة، وإن لم تكن على قدر كبير من الذكاء، وأمر لورولو بالمغادرة لإحضار الترول. لهذا، الآن، بينما كلاب الصيد يرقد الذكور منها في بناء والإناث في بناء آخر، ركض الترول يقطع الحقول

التي نعرفها، إذ يختلج الشَّفق الأرضي على حافَّة ضوء القمر، قاصدًا الأرض السحرية.

مرَّ ببيت مزرعة طلاؤه أبيض، ذي نافذة صغيرة ينيرها ضوء أصفر، لكن القمر أضفى على جدرانه مسحة زرقاء شاحبة. نبح عليه كلبان وركضا يطاردانه. كان لورولو ليحتال عليهما وليسخر منهما في أي وقت آخر. لكنه الآن انشغل بمهمته، ولم يكترث لهما أكثر ممَّا كان زغب الثمار ليكترث لهما في يوم شديد الرياح من سبتمبر. وواصل القفز فوق أطراف العشب حتى تخلَّفا عنه يلهثان.

وقبل أن تبهت النجوم إثر لمسةٍ من الفجر بوقت طويل، وصل الترول إلى الحاجز الذي يفصل الحقول التي نعرفها عن الكائنات التي تشبهه. ثم قفز إلى الأمام يغادر الليل الأرضي عبر حاجز الشفق، ليهبط على أطرافه الأربعة فوق تربة موطنه، في اليوم الأبدي الذي تعيشه الأرض السحرية.

وعبر ذلك الهواء الكثيف ذي الجمال الخلاب الذي يفوق بحيراتنا عند شروق الشمس أَلَقًا، وتبهت ألوان أرضنا كلها مقارنةً به، ركض لورولو يحمل أنباءً سيُدهِش بها جماعته. وصل إلى الأرض البريَّة حيث يعيش الترول في مساكنهم الغريبة، وأطلق الصرير الذي يستدعي الترول به جماعتهم. ثم وصل إلى الغابة حيث أقام الترول مساكنهم في جذوع الأشجار الضخمة. إن ترول الغابة وترول البريَّة قبيلتان مُتحابَّتان ذاتا قرابة. هناك أطلق صرير استدعاء الترول مجددًا، وسرعان ما سُمِع حفيف الزهور في جميع أنحاء الغابة، وكأن رياحًا قوية تهب من جميع الاتجاهات. علا الحفيف شيئًا فشيئًا حتى ظهر الترول، وجلسوا واحدًا تلو الآخر بالقرب من لورولو. اشتدَّ الحفيف والترول قادمون من جميع أنحاء الغابة ليجلسوا حول لورولو. خرجوا من جذوع الأشجار،

والمنخفضات التي تملؤها السراخس، ومن «الجوماك»؛ تلك المساكن العالية التي يقيمونها في الأرض البريَّة من مادة غريبة مثل القماش الرمادي حول الأوتاد. إن تلك المساكن تشبه الخيام، لكن لا يوجد لاسمها الغريب مقابل أرضيٌّ. لقد اجتمعوا حول لورولو في الضوء الوامض الذي يطوف بين أغصان تلك الأشجار السحرية ذات الجذوع الشاهقة التي تفوق أشجار الصنوبر في أرضنا طولًا، وينير أشواك صبار هائلة يصعب أن نتصورها في أرضنا. وعندما اجتمع حشد الترول البُنِّي بدت أرضية الغابة وكأن الخريف حلَّ بالأرض السحرية بعدما شرد من أرضنا؛ وعندما سكن الحفيف وعاد الصمت ثقيلًا مثلما كان منذ عصور طويلة هناك، روى لهم لورولو حكايات الزمان.

لم تُروَ تلك الحكايات في الأرض السحرية من قبل قط. لقد جاء الترول إلى الحقول التي نعرفها مسبقًا وعادوا حائرين، لكن وحده لورولو من وصل إلى مساكن إيرل واختلط بالبشر. قال إن الزمان يتحرك في القرية بسرعة كبيرة تفوق سرعته في الحقول الحدودية. حدَّثهم عن حركة الضوء، وحكى لهم عن الظلال. قال إن الهواء أبيض فاتح ومُشرِق. أخبرهم أن الأرض في فترةٍ ما من اليوم تكاد تشبه الأرض السحرية، إذ يدفأُ الضوء ويتلوَّن فيتذكَّر الترول موطنه، لكن الضوء سرعان ما يغيب وتختفي الألوان. تحدث عن النجوم. أخبرهم عن الأبقار والماعز والهلال؛ تلك الموجودات الثلاث ذات القرون أكثر ما لفت نظره. لقد وجد الأرض مُدهِشة أكثر مما نتذكرها، رغم أننا قد رأيناها مثله للمرة الأولى ذات يوم. وبدافع من دهشته من سير الحياة في الأرض، أسهب في سرد حكايات ملكت انتباه الترول الفضوليين فجلسوا صامتين، وكأنهم حقًّا أوراق أشجار بنية تساقطت في أكتوبر ويكسوها الصقيع. علموا بوجود المدخنات والعربات للمرة الأولى، وشعروا بالإثارة عندما سمعوا

بطواحين الهواء. استمعوا إلى حديث لورولو عن سلوك البشر مذهولين. ومن حين لآخر، مثلما حدث عند وصفه القبعات، رنَّت ضحكاتهم في الغابة.

ثم قال إن عليهم رؤية القبعات والمجرفات وبيوت الكلاب، والنظر عبر النوافذ ومشاهدة طواحين الهواء تدور. أثار حديثه فضول حشد الترول لأنهم كائناتٌ فضولية جدًّا، لكن لورولو لم يعتمد على إثارة فضول الترول لإقناعهم بالذهاب إلى الحقول التي نعرفها فقط، بل واجتذبهم بعاطفة أخرى. لقد تحدث عن وحيدات القرن، تلك الكائنات المُتحفِّظة الفَخُور ذات الرفعة والبريق، التي لا تُقبِل على الحديث إلى الترول مثل الماشية التي لا تتكلف عناء الحديث إلى الضفادع عندما ترد الماء في البِركات. قال إن الترول يعرفون الأماكن التي تتردد إليها وحيدات القرن، وإن عليهم مراقبتها وإخبار البشر بما يعرفونه عنها. هكذا سيشاركون في صيد وحيدات القرن مثل الكلاب. ومع أن معرفة الترول بالكلاب ضئيلة فإنها، كما ذكرت، تخشاها مثل جميع الكائنات التي تركض. وقد ضحكوا عاليًا عندما تصوَّروا وحيدات القرن تطاردها الكلاب. هكذا اجتذبهم لورولو إلى الذهاب إلى الأرض عبر الفضول والحقد. وقد أدرك نجاح خطته فضحك ضحكات مكتومة وابتهجت نفسه، لأن أعلى الترول منزلة هو القادر على أن يثير دهشتهم، أو أن يريهم أي شيء غريب عنهم، أو من يراوغهم أو يثير حيرتهم بروح الدعابة. سيريهم لورولو الأرض ذات السُّنن التي يراها من يجيدون الحكم غريبة وفريدة تمامًا، ما يوافق رغبة أي مُراقِب فضوليٍّ. ثم تحدث ترول أشيب كثيرًا ما عبر حاجز الشَّفق ليراقب سلوك البشر. ولأنه استغرق في مراقبتهم طويلًا فقد شيَّبه الزمان.

قال: «هل سنعبر الغابة ونسلك الطرقات التي يعرفها جميع الأهالي فقط كي نرى شيئًا جديدًا، ثم يهلكنا الزمان؟».

سرت همهمة وسط حشد الترول، دوَّت عبر الغابة وتلاشت، مثل حفيف الخنافس الأرضية في طريقها إلى بيتها.

أردف: «ألسنا نعيش اليوم؟ هناك يعيشون اليوم أيضًا، لكن اليوم لديهم مسألة غامضة؛ إن عبرت الحاجز إلى الأرض فستجده قد انقضى. إن الزمان هناك هائج، مثل الكلاب التي تشرد عبر حاجزنا نابحةً وخائفةً وغاضبةً، وعازمةً على العودة إلى موطنها».

رغم أن الترول لا يدركون ما يتحدث عنه هذا الترول الأشيب، لكن رأيه كان مهمًّا وله ثقله في غابتهم. لهذا قالوا: «صدقت».

واصل الترول ذو الشأن حديثه قائلًا: «لنتمسك باليوم ما دمنا نملكه، ودعونا من الإغواء الذي يستدرجنا إلى حيث يُفقَد اليوم بسهولة. إن البشر كلما خسروا يومًا يخطُّهم الشيب، وتَوهُن أطرافهم وتظهر علامات الحزن على وجوههم، ويقتربون من المستقبل».

لقد نطق بتلك الكلمة الأخيرة بجدية شديدة أثارت خوف الترول.

قال أحدهم: «ماذا يحدث في المستقبل؟».

أجاب الترول الأشيب: «يموتون. فيحفر الآخرون الأرض، كما رأيتهم، ويضعونهم فيها. ثم يذهبون إلى الفردوس، هذا ما سمعتهم يقولونه».

الآن سرت قشعريرة في حشد الترول المُجتمِع في الغابة. أمَّا لورولو الذي استمع غاضبًا إلى الترول ذي الشأن يتحدث بسوء عن الأرض، حيث خطَّط أن يصطحب جماعته كي يدهشهم بغرابتها، فقد تحدث الآن دفاعًا عن الفردوس.

رغم أنه لم يسمع عنها الكثير، فقد اندفع بحدَّة يقول: «إن الفردوس مكان جيد».

أجابه الترول الأشيب: «إليها يذهب الطيبون وتملؤها الملائكة. ما فرصة عيش ترول في نعيم هناك؟ ستمسك به الملائكة التي تملك الأجنحة كما يقول البشر. ستمسك به وستصفعه إلى الأبد».

عندئذٍ بكى جميع الترول في الغابة.

قال لورولو: «ليس من السهل الإمساك بنا».

أجابه الترول الأشيب: «لكن الملائكة تملك الأجنحة».

الآن انتابهم جميعًا الأسى، وهزُّوا رؤوسهم أسفًا لأنهم يعلمون كم أن الأجنحة سريعة.

ارتفعت طيور الأرض السحرية في الهواء الثقيل بتمهُّل، ونظرت إلى البهاء الأبدي حيثُ تجدُ طعامها وتبني أعشاشها، وتُغرِّد عنه أحيانًا. لكن الترول الذين يلهون بالقرب من الحدود ويتطلعون إلى الحقول التي نعرفها، رأوا طيور الأرض تعلو وترتفع في طيرانها بخفَّة وسرعة. لقد أثارت دهشتهم مثل الكائنات السماوية في نظرنا، وأدركوا أن الأجنحة إذا لاحقت واحدًا منهم فلن يستطيع المسكين الهرب منها.

قال حشد الترول: «يا للأسف!».

لم يقل الترول الأشيب المزيد ولم يوجد داعٍ إلى ذلك، إذ سادَ الغابة حزن الترول وهم يفكرون في الفردوس، ويخشون عواقب الذهاب إليها إن اجترؤوا على العيش في الأرض.

توقف لورولو عن الجدال لأن الوقت لم يعد مناسبًا لذلك، إذ استبدَّ الحزنُ بالترول ولن يُحدِث المنطق فارقًا. لهذا شرع في التحدث إليهم برصانة عن مسائل جديَّة، نطق بكلمات فصيحة يتخذ مسلك

أصحاب الوقار. ولأن لا شيء يثير ضحك الترول مثل الجديَّة والفصاحة فسيضحكون ساعات على أي مظهر من مظاهرها. هكذا استطاع لورولو أن يعيدهم إلى مزاج العبث والمزاح، وعندما تحقَّق مسعاه حدَّثهم عن الأرض مجددًا، وأخبرهم حكايات غريبة عن سلوك البشر.

إنني لا أرغب في سرد ما حكاه لورولو عن البشر كيلا أنال من احترام القارئ لذاته، فأؤذيه في حين أنني لا أسعى إلى شيء سوى تسليته. على أن الغابة ضجَّت بالضحك، ولم يستطع الترول الأشيب قول المزيد كي يكبح الفضول الذي يتنامى بداخل الحشد للتعرف إلى ذلك الكائن الذي يسكن البيوت، وتعلو رأسه القبعات والمداخن؛ ذلك الإنسان الذي يصاحب الكلاب لا الخنازير، ذي الجديَّة التي يجدها الترول أكثر تسلية من أي شيء يمكنهم فعله. انتابت جميع الترول الرغبة في الذهاب إلى الأرض، ورؤية الخنازير والعربات وطواحين الهواء والتهكُّم على الإنسان.

لقد أخبر لورولو أورايون أنه سيحضر عددًا كبيرًا من الترول، والآن كان يحاول أن يحول دون قدوم الحشد كله إلى الأرض. إن مزاج الترول ورغباتهم تتغير سريعًا. لو سمح لهم بفعل ما يريدون فلن يتبقى أي ترول في الأرض السحرية، حتى الترول الأشيب الذي بدَّل رأيه مثل البقية. لهذا اختار فقط خمسين منهم، وقادهم نحو حدود الأرض المحفوفة بالأخطار، وانطلقوا يقطعون الغابة مثل أوراق بلُّوط بنية تدور في دوامة في يوم عاصف من أيام نوفمبر.

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الخامس والعشرون

تتذكر ليرازِل الأرض التي نعرفها

بينما الترول يسرعون نحو الأرض كي يتسلُّوا بمراقبة سلوك الإنسان تململت ليرازِل حيث جلست في حِجر والدها، الذي استقر هادئًا رصينًا على عرشه المُشيَّد من الضباب والجليد اثني عشر عامًا من أعوامنا الأرضية. تنهَّدت فتموجت تنهيدتها فوق التلال البديعة وأقلقت الأرض السحرية قليلًا. مسَّ أثرٌ من حزنها الفجر والغروب والشَّفق ووميض النجوم الأزرق الباهت، التي تمتزج معًا إلى الأبد ليتكوَّن ضوء الأرض السحرية، واضطرب وهجه. إن السحر الذي جمع تلك الأضواء، والتعويذات التي دمجتها معًا كي تضيء إلى الأبد تلك الأرض التي لا تدين للزمان بالولاء، ليسوا بشدَّة المزاج الحزين الملكيِّ الذي انتاب أميرة تنتمي إلى سلالة سحرية. ورغم الرضا الذي يحيط بها، والهدوء الذي يسود الأرض السحرية، فقد تنهدت إذ لاحت الأرض في خاطرها. لهذا، وسط بهاء الأرض السحرية الذي تحاول الأغنيات وصفه، تذكرت ليرازِل

زهور الربيع المعتادة والحشائش البسيطة في الحقول التي نعرفها. وقد رأت بعين الخيال أورايون يسير في تلك الحقول في الجانب الآخر من حاجز الشَّفق، تفصله عنها أعوام طويلة لا تعرف عددها. لذا فإن بدائع الأرض السحرية وروعتها التي نعجز عن تصوُّرها، والسكون العميق الذي يسودها دون أن يثيره الزمان أو أن يتعجَّله؛ وقدرة والدها على حماية الزنابق من الذبول، والتعويذات القادرة على تحقيق الأحلام والأمنيات، كل هذا أصبح عاجزًا عن كبح خيال ليرازِل عن التحليق ولم يعد يرضيها. فطافت تنهيدتها فوق الأرض السحرية وحرَّكت الزهور قليلًا.

لقد شعر والدها بحزنها، وعلم أنه ما حرَّك الزهور وهزَّ الهدوء الذي يسود الأرض السحرية، مثل طائر يهز ستارًا وهو يرفرف بجوار طيَّاته، عندما ضلَّ طريقه في ليلة صيفية. ومع أنه علم أنها تحزن شوقًا إلى الأرض، وتُفضِّل الحياة الدنيوية العادية على سكينة الأرض السحرية العجيبة وهي جالسة معه على العرش الذي نسمع به في الأغنيات فقط، فإن قلبه السحري رقَّ لحالها مثلما قد نشفق على طفل يُمجِّد ما نراه تافهًا. وكلما بدت الأرض في نظره غير جديرة بالحزن لأنه يراها بقعةً فانية، فريسةً عاجزة للزمان، مشهدًا زائلًا يُرى من حدود الأرض السحرية ولا يجذب اهتمامَ ذهنٍ يشغله السحر، اشتدت شفقته على ابنته التي تبعت رغبتها المندفعة إلى الأرض وخالطت -وا أسفاه!- الأشياء التي تزول. لقد أدرك أن ليرازِل ليست راضية، على أنه لم يشعر بالسخط على الأرض التي اجتذبت أفكار ابنته إليها. لقد أدرك أن ليرازِل ليست راضية بحال الأرض السحرية. كانت تتوق إلى المزيد، وعليه أن يُسخِّر قدرته كي يمنحها ما تريد. لهذا رفع ذراعه اليمنى عن ذلك الجزء من

عرشه السحري المُشيَّد من الموسيقى والسراب. لقد رفع ذراعه اليمنى فساد الصمت الأرضَ السحرية.

الآن توقفت أوراق الأشجار الهائلة عن الحفيف في أعماق الغابة. صمتت الطيور والحيوانات الخرافية وكأنها منحوتات رخامية، وتوقف الترول الذين يقصدون الأرض عن الركض فجأة.

ثم علت همهماتُ اللهفة؛ أصواتٌ خافتةٌ وكأنها تتلهف إلى ما تعجز الأغنيات عن التعبير عنه؛ أصواتٌ وكأنها جَرْس الدموعِ إن بُثَّت الحياة في قطرات الملح الصغيرة تلك وأصبحت صوتًا للأسى. ثم تراقصت تلك الهمهمات في لحن استحضره ملك الأرض السحرية بيده. حكى هذا اللحن عن فجرٍ يحلُّ بحقل بعيد في الأرض أو كوكب آخر لا تعرفه الأرض السحرية، يبزغ وسط الظلام الحالك وضوء النجوم والبرد القارس. تحجبه ظلال العاصفة وتمقته الأشياء المظلمة. يأتي ضعيفًا باردًا جادًّا، لكنه يغلب النجوم. ثم ينتشر ويترسَّخ ويتوهج حتى تأتي لحظة مجيدة، وسط الظلمة والبرد، تظهر فيها الألوان. ويواصل الفجر انتصاره فتستحيل السحبُ الداكنةُ ورديَّةً تسبح في بحر أبيض، وتتألق الصخور القاتمة التي كانت تحرس الليل في ضوء ذهبي.

وعندما لم يعد لحن الملك يستطيع قول المزيد عن هذه الظاهرة البديعة، الغريبة عن الأرض السحرية، حرَّك الملك يده ورفعها عاليًا مثلما قد يومئ المرء للطيور. واستحضر فجرًا إلى الأرض السحرية يجتذبه من واحد من الكواكب القريبة إلى الشمس، وقد جاء الفجر نقيًّا صافيًا من خارج النطاق الجغرافي، من عصر فائت خارج نطاق التاريخ، وحلَّ بالأرض السحرية التي لم تعرف فجرًا من قبل. ركَّزت قطراتُ الندى العالقة على أطراف العشب المحنيَّة ضوءَ الفجر بداخلها، فالتمعت تعكس بهاءَ سماءٍ تشبه سماءنا، لكنها لم تشهد فجرًا من قبل قط.

وتقدَّم الفجر بطيئًا فوق تلك الأرض العجيبة، يفيض عليها من الألوان التي تمتصها زهور النرجس والنسرين لدينا يومًا تلو آخر في موسمها، بمرح صامت تمامًا. أنار ضوء جديد لا تألفه الغابة أوراق الأشجار الطويلة، سقطت ظلال لا تعهدها الأرض السحرية من جذوع الأشجار الضخمة فوق العشب الذي تفاجأ بها. علمت أبراجُ القصر أنها تشهد قدوم غريبٍ أقل بهاءً منها لكنه يظلُّ سحريًّا، فأجابته ببريق من نوافذها الحصينة انعكس على التلال السحرية، وامتزج الضوء الورديُّ بزرقة جبال الأرض السحرية.

أمَّا المُراقِبون العاكفون على المراقبة فوق الجروف منذ قديم الزمان، خشية أن يأتي غريب من الأرض أو من أي كوكب غريب إلى الأرض السحرية، فقد لحظوا انطباع السماء عندما استشعرت قدوم الفجر. فرفعوا أبواقهم وأطلقوا ذلك الإنذار الذي يُخطِر الأرض السحرية بوجود غريب. ورفع حراس الوديان البريَّة أبواقًا صُنِعت من قرون الثيران الخرافيَّة، وأطلقوا الإنذار نفسه مرة أخرى من المنحدرات الوعرة. فردَّدت وجوه الصخور الخشنة هذا الإنذار وحمله الصدى بعيدًا. هكذا ضجت الأرض السحرية بإنذار يعني أن غريبًا يتطفل عليها. وعلى تلك الأرض المُترقِّبة الحذرة، حيث تلمع سيوف سحرية على طول الجروف النائية، استُلَّت من أغماد سوداء لصدِّ العدو بعدما دوَّت الأبواق، طلع الفجر ذهبيًا مُمتدًّا؛ تلك الأعجوبة التي نألفها. وسطع القصر ذو البهاء الأزرق الجليدي ترحيبًا أو تنافسيَّة، فأكسب الأرض السحرية رونقًا قد نسمع به في الأغنيات فقط.

عندئذٍ رفع الملك يده لتُحاذي قمة تاجه الكريستالية ولوَّح بها تجاه جدران قصره السحري يلقي تعويذة كي ترى ابنته جميع مملكته مترامية الأطراف. رأت ليرازِل الغابات الخضراء الداكنة والتلال في

الأرض السحرية، والجبال الزرقاء الفاتحة والأودية التي تحرسها جماعة غريبة الأطوار، وجميع المخلوقات الخرافية التي تسكن الأوراق الداكنة على أغصان الأشجار الضخمة، والترول المشاغبين في طريقهم إلى الأرض، والمُراقِبين يرفعون إلى أفواههم أبواقهم، ينيرهم ضوءٌ كان أعظم إنجاز حققته قدرة والدها؛ إنه ضوء الفجر الذي استحضره من فضاء نجهله لإرضاء ابنته وتلبية رغبتها وإبعاد خيالاتها عن الأرض. رأت المروج حيث تراخى الزمان قرونًا، ولم تذبل زهرة واحدة من الزهور التي تُطوِّقها. وشاهدت الضوء الجديد ينزل بتلك المروج العزيزة لديها عبر الضوء الكثيف الذي يغمر الأرض السحرية، فيمنحها جمالًا لم تعرفه قط حتى قام الفجر بتلك الرحلة المديدة ليقابل الشفق المسحور. وفي أثناء ذلك كانت أبراج القصر التي نسمع بها في الأغنيات فقط تلمع وتومض وتتوهج.

نقل الملك نظره من هذا الجمال الفاتن إلى وجه ابنته يتوقع أن يرى فيه الدهشة، التي ستقابل بها ليرازِل موطنها المجيد، بعد عودة خيالها من أرض الهرم والموت حيث شردت. وعلى الرغم من أن عينيها كانتا تنظران إلى جبال الأرض السحرية ذات الزرقة الغامضة، فإن الملك رأى في أعماق تلك العينين السحريتين، اللتين من أجلهما فقط أخرج فجرًا عن مساره الطبيعي، خاطرةً عن الأرض! رأى خاطرة عن الأرض رغم أنه قد رفع ذراعه وأشار بها مُسخِّرًا كل قدرته ليجلب إلى الأرض السحرية ظاهرة طبيعية كي ترضى ابنته بموطنها. لقد سادت البهجة جميع بقاع أرضه السحرية بذلك الوافد الجديد، وعلى الجروف الوعرة نفخ المُراقِبون أبواقهم يطلقون دويًّا لا تحذيريًّا، وسُرَّت الحيوانات والحشرات والطيور والزهور بالفجر الغريب. لكن هناك في مركز الأرض السحرية لم تفكر ابنته في غير أرض البشر.

لو أراها الملك أي ظاهرة أرضية سوى الفجر لربما اجتذب خيالها إلى موطنها. لكنه لمَّا جلب ذلك الجمال الفريد إلى الأرض السحرية ليندمج ببهائها العتيق، أيقظ في ذهنها ذكريات الصباح وهو يطلع على الحقول التي لا يعرفها، ومرحها مع أورايون في الحدائق حيث تنمو الزهور غير المسحورة وسط العشب الإنجليزي.

أشار الملك بإصبعه التي استحضرت الفجر إلى أرضه الشاسعة، وسأل ابنته بصوته السحري العميق: «هل هذا كافٍ؟».

تنهدت ليرازِل مجددًا، إذ لم يكن هذا كافيًا.

وقد انتاب الملكُ الأسى. فليس أعز لديه من ابنته، وابنته تشتاق إلى الأرض. فيما مضى حكمت معه زوجته الملكة الأرض السحرية، لكنها كانت بشرية ولهذا ماتت. لقد اعتادت زيارة تلال الأرض كي ترى زهور الزعرور أو أشجار الزَّان في الخريف مرة أخرى. ورغم أنها لم تُمضِ في الحقول التي نعرفها سوى النهار لتعود إلى القصر وراء حاجز الشَّفق قبل غروب شمسنا، فإن الزمان نال منها كلما جاءت إلى الأرض. هكذا ذوت، وسرعان ما ماتت في الأرض السحرية، لأنها محض بشرية.

لقد تولت الجنيَّات دفنها مثلما يدفن البشر بناتهم. والآن كان الملك وحيدًا مع ابنته التي تتلهف إلى الأرض ويشعر بالأسى، لكن فكرةً تنبض بالفرح تولَّدت من ظلمة هذا الشعور، مثلما يحدث كثيرًا مع البشر، وأصبحت موسيقى تدور في عقله الحزين. الآن رفع ذراعيه وأفاض موسيقى فكره على الأرض السحرية. لقد اندفعت تلك الموسيقى مثل تيارِ مدٍّ عالٍ يحثُّ على النهوض للرقص، ولم تستطع موجودات الأرض السحرية مقاومته. لوَّح الملك بذراعيه في وقار فتدفَّقت الموسيقى منهما. فأصبح كل ما يمشي في الغابة وما يزحف على أوراق الأشجار، وكل ما يقفز فوق المرتفعات الخشنة أو يتجول وسط حقول الزنابق،

وجميع الكائنات في أرجاء الأرض السحرية؛ حتى الفارس الذي يقوم على حراسة القصر، والمُراقِبون على قمم الجبال البعيدة والترول المُنطلِقون إلى الأرض، يرقصون على لحن مُستقى من روح الربيع عندما يحلُّ في صباح أرضي وسط قطعان الماعز السعيدة.

الآن اقترب الترول كثيرًا من حاجز الشَّفق، وجوههم مُنبسِطة تأهُّبًا للضحك من البشر. كانوا يتقدمون بحماس شديد كي يعبروا الشَّفق الفاصل بين أرض البشر والأرض السحرية سعيًا وراء المرح. لكنهم الآن توقفوا عن الركض، وشكَّلوا دوائر وحلزونات يقفزون ويرقصون مثل البعوض في الأمسيات الصيفية في الحقول التي نعرفها. رقصت الحيوانات الخرافية في أعماق الغابة رقصة مريبة مخيفة، رقصتها الساحرات تبعًا لمزاجهن في زمن بعيد يسبق تشييد المدن في العالم. رفعت أشجار الغابة جذورها بتثاقل، ثم أخذت تتمايل وكأنها ترقص بمخالب وحشية. رقصت الحشرات على الأوراق الضخمة التي بدورها تُلوِّح راقصة. وفي ظلام الكهوف الطويلة نهضت كائنات عجيبة تعيش في عزلة سحرية من سباتها الطويل ورقصت وسط الرطوبة.

وبجوار الساحر الملك وقفت الأميرة ليرازِل تتمايل قليلًا على إيقاع الموسيقى التي أرقصت جميع الموجودات السحرية، يُشرِق وجهها بابتسامة أبديَّة خفيَّة، إذ كانت تبتسم سرًّا تقديرًا لجمالها البارع وأثره الطيب. الآن رفع الملك إحدى يديه أكثر يوقف الموجودات في الأرض السحرية عن الرقص فانتابتهم الحيرة، ثم أرسل لحنًا من نغمات قبض عليها من خواطر غنائية تشرد وسط ضوء أزرق وراء حدودنا الأرضية؛ فغمر مملكته سحر تلك الموسيقى العجيبة. شرعت الكائنات الخرافية التي خمَّن البشر وجودها، والكائنات الأخرى التي تجهلها الأساطير، في غناء أغنيات قديمة نسيتها ذاكرتهم. واجتُذِبت الكائنات الخرافية التي

تسكن الهواء من العلو الشاهق إلى الأسفل. لقد أقلقت عواطف مجهولة ومُهمَلة هدوءَ الأرض السحرية. غمر سيلُ الموسيقى بأمواجه المدهشة منحدرات الجبال الزرقاء السحرية، حتى ردَّدت جروفها أصداءً غريبة ترنُّ مثل البرونز.

لكن تلك الموسيقى وأصداءها لم تُسمَع على الأرض. لم تعبر نغمة أو همسة أو همهمة حاجز الشَّفق. على أن تلك النغمات صعدت إلى مكان آخر، مرَّت مثل عثٍّ عجيبٍ نادرٍ بجميع أنحاء الفردوس، وكأنها تترنم بذكرياتٍ غامضةٍ عن أرواح الصالحين. وقد سمعت الملائكة تلك الموسيقى، لكنها محظورة من التأثر بها. ومع أن تلك النغمات لم تصل إلى الأرض وأن موسيقى الأرض السحرية لم تُسمَع في حقولنا قط، فإن أرضنا في ذلك الوقت، كما هو حالها في جميع العصور، كانت ثرية بأولئك الذين يؤلِّفون ألحانًا غنائية تشاركنا تعاستنا وفرحتنا فلا يستبد اليأس بنا. ومع أنهم لم يسمعوا قط أي نغمة من الأرض السحرية عبر حدود الشفق، فإنهم شعروا بتلك النغمات السحرية تتراقص في أذهانهم. فدوَّنوها وعزفوها على الآلات الأرضية. هكذا فقط نسمع بعضًا من موسيقى الأرض السحرية.

هكذا هيمن الملك الساحر على جميع الموجودات التي تدين له بالولاء، وعلى دهشتهم ورغباتهم ومخاوفهم وأحلامهم التي تطفو فوق موجات موسيقى لا تتألف من أصوات أرضية، بل من تلك المادة الأثيرية التي تسبح فيها الكواكب، ومن عجائب أخرى من عمل السحر.

وبينما الأرض السحرية تتشرب تلك الموسيقى مثلما تتشرب أرض البشر رذاذ المطر، التفت الملك ينظر إلى ابنته وتسألها عيناه: «أي أرض تفوق أرضنا جمالًا؟».

فالتفتت ليرازِل إليه كي تقول إن الأرض السحرية موطنها إلى الأبد. تباعدت شفتاها لتخبره بجوابها والحب يلتمع في عينيها الزرقاوين السحريتين. وبينما تمد يديها نحو والدها سمعا دويَّ بوق صياد مُنهَك، ينفخ فيه متعبًا على حدود الأرض.

***

الفصل السادس والعشرون

بوق ألڤيرك

طوال أعوام شاقَّة في أراضي الشمال الموحشة ارتحل ألڤيرك، تُفاقِم خيمته الرمادية حينما تهبُّ عليها الرياح كآبَةَ الأمسيات الباردة. في بعض الأحيان عندما تُظلِم أكوام التِّبن إزاء السماء الداكنة ويضيء فلَّاحو المزارع النائية الشموع في بيوتهم، فإنهم يسمعون دقَّ مطارق نيڤ وزيند يجتاح الصمت قادمًا من الأرض التي لا يطؤونها. وعندما ينظر أطفالهم عبر النوافذ ليتطلعوا إلى النجوم قد يرون الخيمة الرمادية يرفرف قماشها المتمزق وراء آخر السياجات النباتية، في موضع لم يشغله شيء قبل قليل سوى ضوء الغروب.

وفي صباح اليوم التالي يتساءل الأطفال عمَّا رأوه ويضعون تخميناتهم وهم يشعرون بالفرح والإثارة. ويستمعون إلى الحكايات الخرافية التي يخبرهم بها كبار السن. ويتسلَّلون خفية إلى حافة الحقول التي نعرفها، وينظرون بحذرٍ من خلال فتحات في آخر السياجات النباتية (رغم أن

النظر نحو الشرق محظور). وتنتشر الشائعات وتكثر التنبؤات. لقد أثارت تلك الظاهرة القادمة من الشرق كل هذه الأحداث، هكذا أصبحت أسطورة تعيش طويلًا في تلك البقعة، لكن ألڤيرك وخيمته قد رحلا عنها.

على هذا الحال يومًا بعد آخر وموسمًا تلو آخر تجول الرجال الثلاثة: الرجل الوحيد بلا زوجته، والفتى الذي ألهمه القمر، والفتى المجنون. معهم الخيمة الرمادية القديمة ووتدها الطويل المَحنيُّ. أصبحوا يعرفون جميع النجوم، وألفوا الاتجاهات الأربعة، واعتادوا المطر والضباب والبَرَد. لكن الضوء الأصفر خلف النوافذ الدافئة ليلًا ظلَّ بعيدًا عنهم، لا يستطيعون سوى توديعه. حالما يبزغ الفجر يستيقظ ألڤيرك من أحلام قلقة، وينهض نيڤ هاتفًا بحماس، ويستأنفون رحلة الجنون قبل أن تظهر أي علامة على استيقاظ الأهالي في البيوت الساكنة ذات الإضاءة الخافتة. وفي كل صباح يؤكد نيڤ أنهم سيعثرون على الأرض السحرية، لكن الأيام تمضي وكذلك السنين.

لقد تركهم ثيل منذ وقت طويل؛ ثيل الذي تنبأ بنجاح مسعاهم في أغنياته الحماسية، وأبهجت خيالاته ألڤيرك في أشد الليالي برودة وقادته عبر أشد الطرق وعورة. في إحدى الأمسيات شرع ثيل، الذي كان من المفترض أن يواصل معهم التجوال، في غناء أغنيات يتغزل فيها بخصلات شعر إحدى الفتيات. ثم ذات يوم عند الغروب، إذ بشحرور يُغرِّد وزهور الزعرور في ازدهار، اتجه ثيل إلى بيوت الأهالي وتزوج بفتاةِ أغنياته. هكذا انفصل عن فرقة الرحَّالة.

لقد مرَّت أعوام طويلة ماتت في أثنائها الخيول، لهذا حمل نيڤ وزيند أغراضهم كلها على الوتد. وذات صباح خريفي ترك ألڤيرك المخيم يقصد بيوت المزارعين، فتبادل نيڤ وزيند النظرات، يتساءلان:

لماذا يذهب ألڤيرك إلى الآخرين للسؤال عن الطريق إلى وجهتهم؟ رغم خَبالهما فقد أدركا الهدفَ من مغادرته، بطريقة أو بأخرى، بسرعة تفوق الحدس العقلاني. تساءلا: ألم تكفِ لإرشاده نبوءات نيڤ والأمور التي أخبر بها البدر زيند وأقسم على صحتها؟

لقد وصل ألڤيرك إلى بيوت المزارعين، ومن بين الأهالي الذين طرح عليهم أسئلته قَبِلَ قليلون الخوض في الحديث عن الأشياء التي تقع جهة الشرق. وإن حدَّثهم ألڤيرك عن الأراضي التي قطعها أعوامًا لا يبدون اهتمامًا كبيرًا، وكأنه يخبرهم أنه نصب خيمته فوق طبقات الهواء المُلوَّنة التي تتوهج وتضطرب تحت السماء عند غروب الشمس. أمَّا القلَّة الذين أجابوه حقًّا فقد قالوا شيئًا واحدًا فقط: «وحدهم السحرة يعلمون».

عندما حصل ألڤيرك على هذا الجواب عاد من الحقول وعبر السياجات النباتية إلى خيمته الرمادية القديمة في الأراضي التي لا يلتفت إليها أحد. هناك جلس نيڤ وزيند في صمت ينظران إليه نظرات جانبية، لأنهما أدركا أنه لا يثق بالجنون والأشياء التي يقولها القمر. وفي اليوم التالي عندما نقلوا مخيمهم في برد الفجر تقدَّمهم نيڤ يشقُّ الطريق دون هتاف.

وذات صباح، بعد مضي بضعة أسابيع أخرى من رحلتهم الغريبة، على حافة الحقول التي يعتني بها البشر، التقى ألڤيرك رجلًا يملأ دلوه من بئر، وقد دلَّته قبعة الرجل المخروطية الطويلة والهالة الغامضة التي تحيط به على أنه بالتأكيد ساحر.

قال ألڤيرك: «يا خبير الفنون التي يتهيَّبها البشر، لدي سؤال عن المستقبل».

ترك الساحر دلوه ونظر إلى ألڤيرك والارتياب يبدو في عينيه، إذ أشار مظهر ذلك الرحَّالة إلى أنه لا يملك المال اللازم لدفع أتعاب السؤال

عن المستقبل. لقد أخبر الساحر ألڤيرك بقيمة تلك الأتعاب فأراه ألڤيرك المال في محفظته. هكذا تبدَّد ارتياب الساحر فأشار إلى قمة برجه الذي يُشرِف على تجمُّع من أشجار الآس، وطلب من ألڤيرك القدوم إليه عندما يظهر نجم المساء، وفي تلك الساعة المؤاتية سيقرأ له المستقبل.

وللمرة الثانية أدرك نيف وزيند أن زعيمهما يطارد حلمًا لا يرشد إليه الجنون أو القمر. وقد تركهما ألڤيرك جالسين لا يقولان شيئًا، لكن ذهنيهما يضطرمان بالخيالات.

ذرع ألڤيرك الحقول التي يعتني بها البشر في انتظار بزوغ نجم المساء، ثم وصل إلى باب البلُّوط الداكن لبرج الساحر الذي تلامسه أشجار الآس كلما هبَّ النسيم. فتح شابٌّ مُتدرِّب في السحر الباب، وصعد الدرج الخشبي القديم -الذي صعدته الفئران أكثر من البشر- يقود ألڤيرك إلى غرفة الساحر العلوية.

كان الساحر يرتدي عباءة حريرية سوداء لن يستطيع من دونها قراءة المستقبل، وبعدما غادر الشابُّ المُتدرِّب اتجه الساحر إلى مُجلَّد قد وضعه فوق مكتب عالٍ. ثم نقل نظره من المُجلَّد إلى ألڤيرك يسأله عن أي شيء يبحث في المستقبل، فقال ألڤيرك إنه يريد أن يعرف كيف سيصل إلى الأرض السحرية.

فتح الساحر غلاف الكتاب الكبير الداكن وقلب صفحات كثيرة فارغة، حتى ظهر القسم المملوء بكتابات ذات حروف لم يرها ألڤيرك من قبل. قال الساحر إنه توجد كتب أخرى مثل هذا الكتاب تحكي عن جميع الأشياء، ولأنه يهتم بما هو آتٍ فقط لم يعبأ بقراءة الماضي. لهذا حصل على كتاب يسرد المستقبل فقط. ولو كان يهتم بتقصِّي الحماقات التي قد ارتكبها البشر بالفعل لحصل على مزيد من الكتب التي تسردها من «كلية السحر».

وبينما يستغرق في القراءة في كتابه سمع ألڤيرك الفئران تخرج بهدوء إلى الطرقات أو تعود إلى البيوت التي أنشأتها على الدرج، ثم عثر الساحر على ما يبحث عنه في المستقبل. وأخبر ألڤيرك أن الكتاب يذكر أنه لن يصل إلى الأرض السحرية أبدًا ما دام يحمل سيفًا سحريًّا.

عندما سمع ألڤيرك هذه الحقيقة منح الساحر أتعابه وغادر آسِفًا لأنه يدري بأخطار الأرض السحرية، التي لا يستطيع أي سيف عادي شُكِّل على سندان الحدَّادين أن يجابهها. لم يدرِ أن السحر في سيفه ترك أثرًا في الهواء مثل البرق عَبَرَ حاجز الشَّفق وانتشر في الأرض السحرية. ولم يدرِ أن ملك الأرض السحرية علم بوجوده بهذه الطريقة فأبعد حدوده حتى لا يزعج مملكته. لقد صدَّق ألڤيرك ما قرأه الساحر من كتابه لهذا غادر حزينًا.

وبعدما هبط الدرج الخشبي وتركه لعبثِ الفئران والزمان مرَّ عبر أشجار الآس وقطع حقول المزارعين. ثم عاد مرة أخرى إلى تلك البقعة الكئيبة التي تشغلها خيمته الرمادية المُضجِرة الساكنة في البريَّة، ونيڤ وزيند يجلسان بجوارها. ثم اتجه الرجال جنوبًا إذ رأى ألڤيرك أن جميع الرحلات عديمة الجدوى بالقدر نفسه، لأنه لن يتمكن من مواجهة الأخطار السحرية دون عون من السحر ولهذا لن يتخلى عن سيفه. وقد أطاعه نيڤ وزيند في صمت، دون أن يرشداه بنبوءات عبثية أو بأشياء قالها القمر لأنهما يعلمان أنه أخذ بمشورة شخص آخر.

وبعد الترحال وحيدين، يسلكون طرقًا وعرة، وصلوا إلى الجنوب، ولم يظهر حاجز الأرض السحرية بطبقاته الكثيفة من الشَّفق. ورغم ذلك لم يتخلَّ ألڤيرك عن سيفه لأنه أدرك أن الأرض السحرية تخشى سحره، وارتاب في قدرته على استعادة ليرازِل بسلاح لا يخشاه سوى البشر. وبعد فترة عاد نيڤ إلى التنبؤ مرة أخرى، وأصبح زيند يوقظ

ألڤيرك في وقت متأخر من ليالي اكتمال القمر كي يسرد له حكايات عجيبة. ومع الإثارة التي يشعر بها زيند عند الحكي، وابتهاج نيڤ عند النطق بنبوءاته، أدرك ألڤيرك أن تلك الحكايات والنبوءات عقيمة عبثيَّة ولن توصله إلى الأرض السحرية. وعلى الرغم من هذا الإدراك الحزين في تلك الأرض الموحشة، فإن ألڤيرك واصل حلَّ خيمته عند الفجر. واصل الترحال والبحث عن الحاجز. وهكذا مرَّت الشهور.

وذات يوم، إذ حافَّة الأرض حقل مُهمَل يقود إلى سهل صخري حيث خيَّم ألڤيرك، رأى في المساء امرأة تعتمر قبعة وترتدي عباءة تُميِّز الساحرات، تكنس ذلك الحقل بمكنسة. كانت توجِّه ضربات مكنستها بعيدًا عن الحقول التي نعرفها إلى السهل الصخري، باتجاه الشرق نحو الأرض السحرية. مع كل ضربة قوية من مكنستها هبَّت تربة جافَّة سوداء وسحاب من الرمال نحو ألڤيرك. ترك ألڤيرك مخيمه البائس وسار إليها. وقف بالقرب منها وشاهدها تكنس. واصلت الساحرة العمل بجد تلاحق الغبار بمكنستها كي تبعده عن الحقول التي نعرفها. بعد برهةٍ وهي ما تزال تعمل رفعت وجهها فرأت ألڤيرك، ورأى ألڤيرك أمامه الساحرة زيروندرِل. بعد مرور تلك الأعوام الطويلة رأى ألڤيرك تلك الساحرة مرة أخرى، ولحظت زيروندرِل أسفل عباءته البالية ذلك السيف الذي صنعته من أجله فوق تلٍّها. لم يستطع الغمد الجلديّ إخفاء حقيقة هذا السيف عنها، لأنها أدركت نكهة السحر التي فاحت منه وانتشرت خلال المساء.

قال ألڤيرك: «أمي الساحرة!».

انحنت تحيةً له رغم إجادتها فنون السحر وسنوات عمرها التي تسبق وجود والد ألڤيرك. ومع أن الكثيرين في إيرل قد نسوا حاكمهم فإنها لم تنسه.

سألها ماذا تفعل في ذلك الحقل بمكنستها في المساء.

قالت «أكنس العالم».

تساءل ألڤيرك أي أشياء منبوذة كانت الساحرة تكنسها بعيدًا عن العالم، إذ الغبار الرمادي يتقلَّب في الهواء ويبتعد عن حقولنا، في طريقه إلى الظلام الذي يشتدُّ خلف حدود أرضنا.

- لماذا تكنسين العالم يا أمي الساحرة؟

- في هذا العالم أشياء لا يجب أن تظلَّ هنا.

نظر بأسى إلى سحب الغبار الرمادية التي تثيرها المكنسة وترسلها نحو الأرض السحرية.

قال: «يا أمي الساحرة، هل يمكنني أنا أيضًا الذهاب؟ لقد أمضيت اثني عشر عامًا في البحث عن الأرض السحرية ولم أحظَ بلمحة على جبالها».

تطلعت الساحرة إليه في حنان، وألقت نظرة سريعة على سيفه.

ثم تبدَّى الشرود أو الغموض في عينيها وهي تقول: «إنه يخشى سحري».

سألها ألڤيرك: «من تقصدين؟».

أخفضت رأسها قائلة: «الملك».

ثم أخبرته أن ذلك الملك الساحر يبتعد عن كل ما يقلقه ويأخذ معه كل ما ينتمي إليه، ولا يتقبَّل وجود أي سحر يضاهي سحره.

تفاجأ ألڤيرك بأن مثل ذلك الملك العظيم يكترث بالسحر الكامن في غمده الأسود القديم.

قالت الساحرة: «هذا طبعه».

ثم تفاجأ بأن ذلك الملك العظيم قد أزاح الأرض السحرية.

قالت الساحرة: «لديه القدرة على فعل ذلك».

لكن ألڤيرك ما يزال عازمًا على مواجهة ذلك الملك المهيب والقوى التي يملكها، رغم أن الساحر والساحرة قد أخبراه أنه لا يستطيع الوصول إلى وجهته بسيفه السحري. لكن كيف يمكنه أن يجتاز الغابة المُروِّعة كي يصل إلى القصر العجيب بلا سلاح؟ إن الذهاب إلى هناك بسيف من صنع الحدَّادين يعادل الذهاب أعزل.

قال: «ألن أستطيع الوصول إلى الأرض السحرية يا أمي الساحرة؟».

مسَّ الأسى والشوق في صوته قلب الساحرة وفاض بالشفقة عليه.

أجابته: «تستطيع الوصول إليها».

وبينما ألڤيرك واقف في ذلك المساء الكئيب يتنازعه القنوط والأمل في الوصول إلى ليرازِل، أخرجت الساحرة من تحت عباءتها صنجة خفيفة قد أخذتها من بائع خبز.

قالت: «مرِّر هذه على طول حافة السيف من المقبض إلى الذؤابة وستُبطِل أثر السحر على النصل. هكذا لن يدري الملك أبدًا بوجود هذا السيف».

سألها: «هل سيظلُّ السيف قادرًا على القتال معي بهذه الطريقة؟».

- لا. لكن حالما تعبر حاجز الشَّفق خذ هذا الرقَّ ومرِّره على النصل في كل بقعة مسَّتها الصنجة. (أدخلت يدها تحت عباءتها مجددًا، وأخرجت رقًّا كُتِب عليه نصٌّ) سوف يسحره مرة أخرى.

أخذ ألڤيرك الصنجة والرقَّ فنبَّهته الساحرة قائلة: «لا تدعهما يتلامسان».

فأبعد ألڤيرك أحدهما عن الآخر.

- بعدما تعبر حاجز الشَّفق قد يزيح الملك الأرض السحرية، لكنك وسيفك ستظلَّان داخل حدودها.

- هل سيغضب الملك منكِ إن اكتشف هذا الأمر يا أمي الساحرة؟
- يغضب فقط؟ سيثور ثورة شديدة تفوق غضب النمور.
- إنني لا أرضى بأن أتسبب لكِ في المتاعب يا أمي الساحرة.
- إنني لا أهتم.

والآن، إذ المساء يتقدم والسماء والسهل يُظلِمان مثل عباءة الساحرة السوداء أخذت ليرازِل تضحك، وابتعدت في الظلام حتى اختفت. ثم عاد ألڤيرك إلى مخيمه وسط الصخور، الذي بجواره تتَّقد النيران.

حالما طلع الصباح على ذلك القَفر وأنار الصخور عديمة الجدوى أخذ ألڤيرك الصنجة وحكَّ بها نَصل سيفه برفقٍ حتى أبطل سحره. لقد أدَّى المهمة في الخيمة وتابعاه نائمان، لأنه حرص على ألا يعلما أنه استعان بغير هذيانِ نيڤ أو الإلهام الذي يجيء زيند من القمر.

لكن الجنون يسمح لصاحبه بنوم مضطرب ليس عميقًا، هكذا راقبه نيڤ بعين واحدة لمَّا سمع الصنجة تكشط السيف بخفوت.

وعندما تمَّ ذلك الأمر سرًّا وشوهِد سرًّا، هتف ألڤيرك برجليه. فنهضا وطويا قماش خيمته البالية، ثم نزعا الوتد الطويل وعلَّقا أغراضهم البائسة عليه. وسار ألڤيرك على امتداد حافة الحقول التي نعرفها لا يطيق صبرًا حتى يصل إلى الأرض التي تملَّصت منه طويلًا. يتبعه نيڤ وزيند يحملان الوتد، الذي تتأرجح منه الصُّرَر وتتطاير الخِرَق.

ساروا تجاه بيوت المزارعين كي يحصلوا على ما يحتاجون إليه من الطعام، وقد ابتاعوه بعد الظهيرة من مُزارِع يسكن في بيت منعزل بالقرب من حافة الحقول التي نعرفها، لا بدَّ أنه كان أقصى بيوت العالم المرئي. منه اشتروا الخبز ودقيق الشوفان، والجبن واللحم المُقدَّد،

وأصنافًا أخرى من هذا القبيل. وضعوها في جِوالات وعلَّقوها على وتدهم، ثم تركوا المُزارِع وابتعدوا عن حقوله وجميع حقول البشر.

ومع حلول المساء رأوا خلف سياج نباتي ضوءًا ناعمًا يومض في ذلك الحقل وميضًا غريبًا أدركوا أنه لا ينتمي إلى الأرض. كان هذا حاجز الشَّفق الذي يحدُّ الأرض السحرية.

هتف ألڤيرك: «ليرازِل!».

واستلَّ سيفه وخطا خطوات واسعة نحو الشَّفق. تبعه نيڤ وزيند يستحيل شعورهما بالارتياب غيرةً من السحر والخيالات التي لا يمتلكانها.

حالما هتف ألڤيرك بليرازِل ارتاب في استطاعة صوته الوصول إلى تلك الأرض العجيبة الشاسعة. فأخرج بوق الصياد المُعلَّق على حزام حول خاصرته، ورفعه إلى فمه يُطلِق نداءً يتبدى فيه الإنهاك الذي أصابه من طول الترحال. كان واقفًا بداخل الحاجز، ولمع البوق في ضوء الأرض السحرية.

عندئذٍ ألقى نيڤ وزيند الوتد في ذلك الشَّفق غير الأرضي، حيث رقد مثل حطام مركبة في بحر مجهول، وأمسكا بسيدهما فجأة.

قال نيڤ: «إنها أرض من الخيالات! لكن أليس لديَّ من الخيالات ما يكفي؟».

وصاح زيند: «لا يوجد قمر هناك!».

ضرب ألڤيرك كتف زيند بسيفه، لكن السيف قد أُحبِط سحره وصار كليلًا فلم يؤذِه. ثم أخذ الرجلان السيف وسحبا ألڤيرك إلى الخلف. لقد فاقت قوة الجنون ما يمكن توقُّعه. وأعاده الرجلان إلى الحقول التي نعرفها؛ هذان الرجلان الغريبان اللذان انتابتهما الغيرة من تلك الأرض

الغريبة. وقاداه بعيدًا عن مرأى الجبال الزرقاء الفاتحة، ولم يدخل ألڤيرك الأرض السحرية.

لكن دويَّ البوق قد عبر حاجز الشَّفق وأقلق الأرض السحرية، إذ أشجى هدوءها الحالم بنغمة أرضية حزينة طويلة. كان ذلك الدويُّ ما سمعته ليرازِل وهي تتحدث إلى والدها.

***

الفصل السابع والعشرون

عودة لورولو

لقد حلَّ الربيع بقرية إيرل وقلعتها، ومسَّ كل زاوية وفرجة فيها. إنه تلك النعمة التي تجيء الهواءَ وجميعَ الكائنات الحية، دون أن تغفل عن النباتات الصغيرة التي تسكن أكثر الأماكن انعزالًا: تحت الأفاريز، أو في شقوق البراميل القديمة، أو على طول خطوط الملاط الذي يدعم صفوفًا من الحجارة القديمة. وفي ذلك الموسم أحجم أورايون عن اصطياد وحيدات القرن. لا يعني هذا أنه كان يعلم في أي موسم تتزاوج وحيدات القرن في الأرض السحرية، حيث لا يمرُّ الزمان مروره هنا. بل شعر مثل أجداده البشريين أن من غير المقبول صيد أي مخلوق في موسم الأغنيات والزهور ذاك. لهذا أمضى وقته في رعاية قطيعه من كلاب الصيد، ومشاهدة التلال يتوقع عودة لورولو في أي يوم.

ثم مرَّ الربيع وتفتحت زهور الصيف ولم تظهر أي علامة على عودة الترول، لأن الزمان لا يمرُّ في أرجاء الأرض السحرية مثلما يمرُّ في أي

بقعة في أرض البشر. وقد أمضى أورايون المساءات يشاهد سلسلة التلال حتى تظلم تمامًا، لكنه لم يرَ رؤوس الترول المستديرة الصغيرة تهتز وهي تقطع المراعي.

ثم هبَّت الرياح الخريفية من الأراضي الباردة، ووجدت أورايون لا يزال في انتظار عودة لورولو. لقد اجتذبه الضباب وأوراق الأشجار الذابلة إلى الصيد. وأنَّت كلابه شوقًا إلى المساحات المفتوحة وآثار الروائح التي تشبه مسارات غامضة شُقَّت عبر العالم الواسع، لكن أورايون لم يكن ليصطاد سوى وحيدات القرن، لهذا انتظر عودة الترول.

وفي واحد من أيام الأرض إذ الصقيع وضوء الغروب القرمزي ينتشران في الهواء، بعدما انتهى حديث لورولو إلى الترول في الغابة ووصلوا إلى الحدود بسرعة كبيرة تفوق الأرانب البريَّة، إن نظر المزارعون في الحقول التي نعرفها نحو تلك الحدود الغامضة حيث تنتهي الأرض (وهم نادرًا ما يفعلون ذلك) فلربما رأوا الهيئة غير المألوفة للترول سريعي الحركة القادمين خلال المساء. لقد جاؤوا واحدًا تلو الآخر يهبطون من القفزات العالية عبر حاجز الشَّفق. كان هبوطهم في حقولنا هبوطًا فظًّا؛ جاؤوا يقفزون ويتشقلبون ويركضون ويضحكون في وقاحة، وكأن هذه هي الطريقة اللائقة لدخول واحد من أهم الكواكب.

مرُّوا سريعًا بالبيوت الصغيرة مثل رياح تتخلَّل القش، ولم يدرك أحد ممَّن سمعوا ذلك الحفيف أنه صادر عن حركة تلك الكائنات الغريبة سوى الكلاب، التي عملُها المراقبة، والتي تعرف جميع الكائنات التي تمرُّ بها وتدرك مدى اختلافها عن الإنسان. إن الكلاب تنبح عند مرور الغجر والصعاليك وجميع الشريدين. تنبح على كائنات الغابة البريَّة بمزيد من البغض لأنها تدرك جيدًا العدوانية التي تقابل بها الإنسان. وعلى الثعالب، التي بها مسحة من الغموض وتتجول بعيدًا، تنبح الكلاب

بشراسة أشد. لكن نباح الكلاب في ذلك المساء كان بعيدًا عن البغض والشراسة. لقد ظنَّ عديد من المزارعين أن الغُصَّة تخنق كلابهم.

ولمَّا مرَّت جماعة الترول بتلك الحقول على عجل دون المكوث للضحك من الخراف التي تركض خوفًا، لأنهم يتطلعون إلى الضحك من البشر، فقد وصلوا سريعًا إلى التلال التي تُشرِف على إيرل. كان المساء يتقدم والدخان الرمادي يرتفع من الوادي. ولأن الترول لا يعلمون أن الدخان يتصاعد عندما تغلي امرأة الماء في غلاية، أو عندما تجفف إحداهن ثوب طفلها، أو عندما يدفئ المُسنُّون أيديهم في المساء، فلم يضحكوا عند رؤيته كما خططوا للضحك عند الالتقاء بالبشر ومشاهدة أفعالهم. وربما يكون الترول الذين لا تعدو أشدُّ أفكارهم جديَّة الضحكَ قد شعروا بالرهبة قليلًا عند اقترابهم من البشر، حيث استقرُّوا في قريتهم ودخانهم يحيط بهم. لكن الرهبة التي تنتاب تلك العقول البسيطة لم تدم طويلًا مثلما يغادر سنجاب الأغصان الواهنة الخطرة سريعًا.

بعد قليل رفعوا أعينهم عن الوادي إلى الأفق، حيث السماء الغربيَّة لا تزال مضيئة في آخر لحظات الغروب. بدا ذلك الشريط من الألوان والضوء المتلاشي فاتنًا حتى ظنَّ الترول أن أرضًا سحرية أخرى تقع في الجانب الآخر من الوادي، وكأن أرضين سحريَّتين أثيريَّتين تحاصران هذا الوادي وعددًا من حقول البشر القريبة من جانبيه. وبينما هم جلوس على منحدر التل يتطلعون جهة الغرب جذب نظرهم نجمٌ ساطع، كان هذا نجمَ المساء في غرب السماء يفيض بالضوء الأزرق. أحنى الترول رؤوسهم عدة مرات تقديرًا لذلك الغريب بديع المظهر ذي اللون الأزرق الفاتح. ورغم أن التهذيب ليس من طبعهم فقد ظنُّوا أن نجم المساء لا ينتمي إلى الأرض ولا علاقة له بالبشر، وأنه برز من تلك الأرض السحرية التي توهَّموا وجودها في الجانب الغربي من العالم. ثم ظهر مزيد ومزيد

من النجوم حتى شعر الترول بالخوف، لأنهم لا يعلمون شيئًا عن تلك الأجرام المتلألئة التي تستطيع البزوغ من الظلام واللمعان. في البداية قالوا إنهم يفوقون النجوم عددًا، وهكذا شعروا بالارتياح لأن الكثرة تمنحهم الثقة. لكن النجوم سرعان ما فاقت الترول عددًا، واضطرب الترول في جلستهم في الظلام أسفلها. على أنهم سرعان ما نسوا هذا الأمر الذي أقلقهم لأن الأفكار لا تلبث في أذهانهم طويلًا. ووجَّهوا انتباههم المُشتَّت إلى الأضواء الصفراء التي تتفرَّق في الجانب الرمادي القريب إليهم، حيث تقومُ بعض من بيوت البشر الدافئة المريحة بالقرب من الترول. مرَّت بهم خنفساء فتوقَّفوا عن الثرثرة لسماع ما ستقول، لكنها مضت في طريقها إلى بيتها يصدر عنها حفيف لم يفهموه. بلغ سمعهم نباح كلب بعيد متواصل يملأ المساء بنداء تحذيري. أغضب صوته الترول لأنهم شعروا أنه يحول بينهم وبين البشر. ثم برز كائن أبيض من الظلام وهبط على غصن شجرة. أدار رأسه إلى اليسار ونظر إلى الترول، ثم أدار رأسه إلى اليمين فاستطاع النظر إلى الترول مرة أخرى، ثم نظر إليهم من جهة اليسار مجددًا لأن مظهرهم أثار ريبته.

قال لورولو: «هذه بومة».

لقد رأى عديدٌ من الترول هذا الطائر من قبل، لأنه كثيرًا ما يطير على امتداد حافة الأرض السحرية. وسرعان ما طارت البومة بعيدًا إلى التلال والوديان للصيد، ثم لم تُسمَع سوى أصوات أحاديث الرجال أو صرخات الأطفال الحادة، ونباح الكلب الذي يحذِّر البشر من الترول. قالوا عن البومة إنها «كائن حصيف» لأنهم أحبوا صوتها، لكن أصوات البشر وكلبهم بدت مُربِكة ومزعجة.

من حين لآخر رأوا عابري السبيل يحملون المصابيح وهم يقطعون التلال إلى إيرل، وسمعوا رجالًا يُسلُّون أنفسهم في وحشة الليل بالغناء

بدلًا من ضوء المصابيح. وفي أثناء ذلك اشتد ضوء نجم المساء، وازدادت الأشجار حلكة.

ثم فجأةً، من أسفل الدخان والضباب الذي يعلو الجدول المائي، رنَّ جرس الكاهن النحاسي في ظلام الوادي. تردَّد صداه في منحدرات التلال والمراعي المظلمة. وصل ذلك الصدى إلى الترول، وبدا كأنه يطردهم مع جميع المخلوقات اللعينة والأرواح الهائمة والكائنات التي يبغضها الكاهن.

لكن الجديَّة في صوت الصدى الذي يخترق الليل مع تأرجح الجرس المُقدَّس أبهجت جماعة الترول، لأن كل ما هو جديٌّ يُشجِّع الترول على اللهو. والآن أصبحوا أكثر مرحًا وشرعوا في الضحك فيما بينهم.

وبينما يواصلون مشاهدة النجوم ويتساءلون إن كانت مُضيفًا ودودًا، تلوَّنت السماء بالأزرق الداكن، وخفت ضوء نجوم الشرق قليلًا، واكتسبت رماديَّة الضباب والدخان مسحة بيضاء. لقد طلع البدر فوق التلال خلف الترول وأضاء الوادي. ومن المكان المُقدَّس حيث يوجد الكاهن علت أصواتٌ بالصلاة، إذ اعتاد الكورال الترنُّم في الليالي التي يكتمل فيها القمر ويبدو قريبًا إليهم. وقد أطلقوا على هذه الشعيرة اسم صلاة «شروق البدر». عندئذٍ توقف دويُّ الجرس، وسكت الأهالي عن الحديث وأسكتوا كلبهم النابح. لقد ترنَّم الكورال أمام الشموع في المكان المُقدَّس المربع الصغير، المُشيَّد من الحجارة الرمادية بأيدي رجال ماتوا قبل عصور، وقت طلوع البدر. وكانت الترانيم جادَّةً مهيبةً كالليل، غامضةً مثل القمر المكتمل، وزاخرةً بمعانٍ تفوق استيعاب الترول.

الآن قفز الترول معًا من العشب المكسُوِّ بالصقيع، واتجهوا إلى الوادي كي يضحكوا من البشر ويتهكموا على مُقدَّساتهم ويواجهوا بالعبث ترانيمهم.

نهضت الأرانب وفرَّت خائفة فضحك الترول منها. ومض شهاب جهة الغرب يلاحق الشمس؛ إمَّا أنه كان نذيرًا يُنبِّه قرية إيرل إلى أن كائنات من خارج حدود الأرض تقترب منها الآن، وإمَّا أنه كان يتبع قوانين الطبيعة فقط. على أن الترول ظنُّوا أنه نجم متعالٍ يسقط، ولهذا ابتهجوا بطريقتهم العابثة.

هكذا تقدَّموا قافزين ضاحكين حتى وصلوا إلى طريق القرية، لا يراهم أحد، مثل الكائنات البرية التي تتجول في الظلام ليلًا. وقادهم لورولو إلى برج الحمام فاندفعوا إليه يتسلَّقونه. ظنَّ الأهالي أن ثعلبًا قفز إلى برج الحمام، لكنهم أدركوا خطأ ظنهم حالما عادت الحمامات إلى مقصوراتها. ولم يدرِ أهل إيرل أن شيئًا من خارج حدود الأرض قد دخل قريتهم حتى طلع الصباح.

لقد افترش الترول أرضية برج الحمام وكأنهم خنازير صغيرة بُنيَّة، ومرَّ الزمان بهم مثلما يمرُّ بجميع موجودات الأرض. ورغم ذكائهم المحدود فقد أدركوا أن عبورهم حاجز الشَّفق يعني تكبدهم أثر الزمان المُدمِّر، لأن لا شيء يقطن على حافة الخطر ويعيش جاهلًا بآثاره. ومثلما تدرك الأرانب التي تعيش في المرتفعات الصخرية خطر الجروف شديدة الانحدار أدرك من يسكنون بالقرب من حدود الأرض خطر الزمان. ورغم ذلك فقد جاؤوا إليها؛ لقد اجتذبهم بهاء الأرض وسحرها بقوة. ألا يضيع فتيةٌ كثيرون شبابَهم مثلما أضاع الترول الخلود؟

وقد أوضح لهم لورولو كيفية إبطاء أثر الزمان فترة، وإلا فإنه سيزيدهم عمرًا مع مرور كل لحظة وسترهقهم الأرض بحراكها طوال الليل. ثم ضمَّ ركبتيه وأغلق عينيه ورقد ساكنًا. أخبرهم أن هذا الفعل يُدعى النوم، ونبَّههم إلى ضرورة الاستمرار في التنفس رغم سكون

الحركة، وسرعان ما خلد إلى النوم. وبعد بضع محاولات نجح الترول في فعل الشيء نفسه.

عندما حلَّ الشروق وأيقظ جميع موجودات الأرض نفذت أشعة الشمس عبر نوافذ برج الحمام وأيقظت الترول والطيور. ذهبت جماعة الترول إلى النوافذ للنظر إلى الأرض، فطارت الحمامات إلى عوارض السقف الخشبية تنظر إلى الترول نظرات جانبية. هناك وقف الترول على أكتاف بعض يسدُّون النوافذ وهم يُدقِّقون النظر إلى ثراء الأرض وحراكها. ووجدوا أنها تطابق الحكايات العجيبة التي سمعوها ممَّن زاروا أرضنا. ورغم تذكيرات لورولو فقد سهوا الآن عن وحيدات القرن البيضاء الفخور التي سيصطادونها مع كلاب الصيد.

وبعد برهة قادهم لورولو إلى مأوى كلاب الصيد. فتسلَّقوا أوتاد سياجه وحدَّقوا إلى كلاب الصيد من الأعلى.

عندما رأت كلاب الصيد تلك الرؤوس الغريبة تحدِّق إليها علا نباحها شديدًا، فاجتمع الأهالي ليروا ما أزعج الكلاب. وعندما شهدوا جماعة الترول على الأوتاد حدَّث بعضهم بعضًا قائلين: «الآن قد وصل السحر إلى إيرل».

***

الفصل الثامن والعشرون

فصل عن صيد وحيدات القرن

في ذلك الصباح لم ينشغل أحد في إيرل إلى الحدِّ الذي يمنعه من المجيء ليشهد السحر الذي وصل إلى القرية حديثًا، وليقارن حقيقة الترول بما سمعه حول وصفهم. وقد أطال أهل إيرل التحديق إلى الترول مثلما أطال الترول التحديق إلى أهل إيرل. وساد المرحُ الأجواء لأن العقول غير المتكافئة عندما تجتمع كثيرًا ما يثير كل منها ضحك الآخر. وجد القرويُّون سلوك الترول الوقح مُسلِّيًا ومدعاةً للسخرية مثلما يرى الترول قبعات القرويِّين الطويلة وملابسهم الغريبة والجديَّة التي تسود واديهم.

سرعان ما أتى أورايون أيضًا فخلع أهالي القرية قبعاتهم الطويلة تحيةً له. وكان الترول سيضحكون منه لكن لورولو عثر على سوطه، وبه قاد جماعة رفاقه الوقحين إلى أداء تلك التحية التي تُقدَّم في الأرض السحرية إلى من ينتمون إلى السلالة الملكية.

وبحلول ظهيرة اليوم إذ تحين ساعة الطعام، انصرف الأهالي عن مأوى كلاب الصيد، وعادوا إلى بيوتهم يشيدون جميعًا بالسحر الذي وصل إلى إيرل أخيرًا.

في أثناء الأيام التالية فهمت كلاب الصيد أن من العبث مطاردة الترول أو الزمجرة عليهم لأنهم، بقطع النظر عن سرعة الترول الكبيرة، يستطيعون القفز عاليًا في الهواء فوق رؤوس كلاب الصيد. وعندما يحملون سوطًا يمكنهم الردُّ على الزمجرات بضربات سديدة لا يجيدها من أهل الأرض سوى من حمل أجدادهم السِّياط بصحبة كلاب الصيد أجيالًا.

وذات صباح ذهب أورايون إلى برج الحمام وهتف بلورولو، الذي أخرج الترول وذهبوا إلى مأوى كلاب الصيد. ثم أخرج أورايون قطيعه وقادهم جميعًا شرقًا فوق التلال. ركضت كلاب الصيد معًا وركض الترول بجانبهم يحملون سياطهم، فشابهوا قطيعًا من الأغنام يحيط بهم عدد من كلاب الراعي. لقد انطلقوا إلى حدود الأرض السحرية لينتظروا وحيدات القرن التي تعبر الشَّفق كي ترعى الأعشاب الأرضية مساءً، وعندما بدأ المساء يلقي بظلاله الناعمة على الحقول التي نعرفها وصل أورايون وجماعته إلى الحاجز الأزرق الذي يفصل أرض البشر عن الأرض السحرية. هناك كمنوا والمساء يتقدَّم في انتظار مجيء وحيدات القرن.

بجانب كل كلب صيد وقف ترول يضع يده اليمنى على كتفه أو رقبته، يهدِّئه ويُسكِته ويُلزِمه مكانه، وبيده اليسرى يحمل السوط. هكذا بقيت تلك الجماعة الغريبة ساكنةً والمساء يتقدَّم حولها. وعندما خفت ضوء الأرض وسادها الهدوء كما تهوى وحيدات القرن، عبرت تلك الكائنات السحرية الحاجز بخفَّة وتقدَّمت وسط الأرض دون أن يسمح الترول

لكلاب الصيد بالحركة. ولهذا، عندما أعطى أورايون الإشارة، انطلقت الكلاب تُبعِد بسهولة واحدًا من تلك الكائنات السحرية عن موطنه وطاردوه ركضًا فوق حقول البشر. وبينما الغروب ينقضي كان وحيد القرن الفخور يعدو، وكلاب الصيد تسعى وراء تلك الرائحة العجيبة، والترول يقفزون عاليًا.

وعندما رأت الغربان الواقفة أعلى أبراج إيرل حافة الشمس الحمراء فوق الحقول التي يكسوها الصقيع عاد أورايون من التلال مع كلاب الصيد والترول، يحمل رأسًا بديعًا يُرضي هوى صائدي وحيدات القرن تمام الرضا. وسرعان ما استقرت كلاب الصيد المُرهَقة السعيدة في مأواها وأورايون في سريره. وفي برج الحمام بدأ الترول يشعرون، كما لم يشعر أي منهم من قبل سوى لورولو، بالإجهاد الناتج عن مرور الزمان وثِقَله.

استغرق أورايون وكلابه في نوم عميق. أمَّا الترول فانتابهم القلق وحاولوا النوم بأسرع ما يمكن أملًا في تفادي بعض من ضراوة الزمان، إذ أدركوا أنه قد شرع في مهاجمتهم. وفي تلك الليلة بينما كلاب الصيد، والترول، وأورايون نائمون، اجتمع برلمان إيرل في ورشة نارل.

دخل اثنا عشر رجلًا الغرفة الداخلية في ورشة الحدادة، تعلو الابتسامات وجوههم التي تتورَّد بالصحة وبأثر رياح الشمال القارسة وبالابتهاج بالقادم. لقد تأكد لهم أن حاكمهم ساحر، وتوقَّعوا حدوث تطورات عظيمة في إيرل.

خاطبهم نارل بالطريقة القديمة المعتادة قائلًا: «يا مَعْشري، أليس حالنا وحال وادينا على ما يُرام أخيرًا؟ لقد تحقَّق ما خططنا له منذ فترة طويلة. إن حاكمنا ساحر كما أردنا جميعًا، تأتي الكائنات السحرية إليه من هناك، وتطيع أوامره».

وافقه الجميع باستثناء جازِك -أحد تجار لحوم الأبقار- قائلين: «هو كذلك».

كانت إيرل قرية صغيرة عتيقة، منعزلة في الوادي العميق، لم يلتفت إليها التاريخ. وقد أحبها الرجال الاثنا عشر لهذا أرادوا أن تصبح مشهورة. والآن ابتهجوا عندما سمعوا كلمات نارل.

لقد قال: «أي قرية أخرى يأتيها زوار من *هناك*؟».

ومع أن جازِك ابتهج مثل البقية فإنه نهض عندما هدأ حماسهم، وقال: «لقد دخل قريتنا العديد من الكائنات الغريبة القادمة من هناك. قد يكون الأفضل هم البشر وأساليب العيش في الأرض».

استخفَّ به أوث وثريل، ثم قال الجميع: «بل السحر هو الأفضل».

سكت جازِك ولم يجهر مجددًا برأيه المُعارِض للبقية، ثم دارت كؤوس نبيذ العسل وتحدث الجميع عن شهرة إيرل المُرتقَبة، وغفل جازِك عن الاستياء والخوف اللذين راوداه.

امتد ابتهاجهم حتى وقت متأخر من تلك الليلة، يشربون نبيذ العسل ويتطلعون إلى أبعد ما يمكن أن تراه أعين البشر من المستقبل. لكن ابتهاجهم كان هادئًا وأصواتهم منخفضة خشية أن يسمعهم الكاهن، لأن السعادة جاءتهم من الأرض البعيدة عن الخلاص، وقد وضعوا ثقتهم في السحر الذي، كما يعلمون جيدًا، يُقرَع جرس الكاهن ضدَّه كل مساء.

وقد انفضَّ جمعهم متأخرًا وهم يشيدون بالسحر بلا ضجيج. وعادوا إلى بيوتهم خفية لأنهم يخشون اللعنة التي استنزلها الكاهن على وحيدات القرن، أو أن تصيبهم إحدى اللعنات التي يستنزلها على جميع الأشياء السحرية.

في اليوم التالي أراح أورايون كلاب الصيد، وحدَّق الترول وأهل إيرل بعضهم إلى بعض. لكن في اليوم الذي يليه أخذ أورايون سيفه وجمع فرقة الترول وقطيع كلاب الصيد، واتجهوا إلى التلال عائدين إلى حاجز العقيق الغامض كي يترقَّبوا وحيدات القرن القادمة في المساء.

لقد ذهبوا إلى موضع من الحدود، بعيدًا عن موضع المطاردة التي وقعت قبل عدة مساءات. واسترشد أورايون بالترول الثرثارين لأنهم يعرفون جيدًا الأماكن التي تتردَّد إليها وحيدات القرن. وتقدَّم المساء الأرضي هادئًا حتى ظهر الشَّفق، لكن وحيدات القرن لم تظهر ولم يُسمَع وقع خطواتها. رغم ذلك فقد أحسن الترول إرشاد أورايون، إذ إنه عندما أوشك أن ييأس من الصيد في تلك الليلة، وبدا المساء فارغًا تمامًا، ظهر وحيد قرن على الحافة الأرضية لحاجز الشَّفق حيث لم يكن يوجد شيء قبل لحظات فقط. وسرعان ما مشى ببطء على العشب الأرضي يتقدم بضعة أمتار تجاه الحقول التي نعرفها. وتبعه آخر يتقدم بضعة أمتار أيضًا، ثم وقفا خمس عشرة دقيقة من دقائقنا الأرضية لا يُحرِّكان شيئًا سوى آذانهما. في أثناء ذلك أسكت الترول كلاب الصيد، ووقفوا ساكنين أسفل واحد من السياجات النباتية التي تحيط بالحقول التي نعرفها، وعندما تحرك الكائنان السحريان أخيرًا كان الظلام قد غشي الجميع. وعندما ابتعد أكبرهما حجمًا عن الحدود بما يكفي أطلق الترول كلاب الصيد، وركضوا معها وراء وحيد القرن يصيحون صيحات حادة سخريةً من رأسه الفخور.

وعلى الرغم من أن الترول علموا الكثير عن الأرض فإن عقولهم البسيطة لم تستوعب بعد أطوار القمر. كان الظلام جديدًا عليهم، وسرعان ما فقدوا أثر كلاب الصيد. وقد تحمَّس أورايون للصيد بشدة فلم يختر ليلة مناسبة. كان القمر مُحاقًا، ولن يظهر الضوء حتى الصباح

القريب. وسرعان ما تخلَّف أورايون عن قطيعه أيضًا. على أنه جمع الترول بسهولة إذ ملأت أصواتهم العابثة الليل، وتبعوا دويَّ بوقه. لكن كلاب الصيد لم تكن لتترك مطاردة تلك الرائحة السحرية القوية لتتبع بوق أي إنسان. وفي اليوم التالي عاد القطيع متعبًا بعد أن فقد أثر وحيد القرن.

وفي المساء التالي لتلك المطاردة بينما يتولَّى كل ترول تنظيف كلب صيد وإطعامه، وترتيب حزمة من القش ليستلقي عليها، وتمشيط شعره والبحث عن الأشواك في قدميه وأغلفة البذور في أذنيه؛ جلس لورولو بمفرده ساعات يُركِّز ذكاءه مثل عدسة زجاجية تجمع ضوءًا أبيض صغيرًا، كي يجيب عن سؤال واحد. كان السؤال الذي أطال لورولو التفكير فيه هو كيفية اصطياد وحيدات القرن مع كلاب الصيد في الظلام. وبحلول منتصف الليل كانت الخطة واضحة في عقله العابث.

***

الفصل التاسع والعشرون

استدراج ساكني الأهوار

بينما المساء التالي ينقضي تقدَّم مسافر جهة الأهوار التي تقع جنوب شرقي إيرل على امتداد حافة مباني المزارع، وتنبسط حتى الأفق إلى حدود الأرض السحرية. والآن كانت تومض، إذ الضوء يغادر الأرض.

كان المسافر يرتدي ملابس رسمية سوداء ويعتمر قبعة رسمية باللون نفسه، بحيث أمكن رؤيته من البعيد إزاء الحقول الخضراء الداكنة وهو يتجه إلى حافة الأهوار خلال المساء الرمادي. لكن في مثل تلك الساعة، في ذلك المكان الموحش، لم يوجد أحد ليراه، لأن الظلام كان وشيكًا وقد عادت الأبقار إلى حظائرها، والمزارعون يستريحون في بيوتهم. هكذا سار المسافر وحده في طرق غير آمنة حتى وصل إلى سيقان القصب والحشائش، التي تروي لها الرياح حكايات لا يفهمها الإنسان، وتاريخًا طويلًا من البرودة وأساطيرَ قديمة عن المطر. وبينما الأرض البعيدة

خلفه تشتد ظلمتها رأى أضواء المصابيح تبدأ في الوميض حيث تقوم المنازل.

سار المسافر بجديَّة وكأن لديه عملًا مهمًّا مع البشر. ورغم ذلك فقد أدار ظهره إلى بيوتهم، واتجه إلى حيث لا يذهب إنسان، حيث لا توجد قرية أو كوخ، لأن الأهوار تمتد إلى الأرض السحرية مباشرة. في تلك المنطقة الممتدة بين المسافر والحدود الغامضة التي تفصل أرض البشر عن الأرض السحرية لم يَسِر إنسان، لكن المسافر قطعها وكأن لديه مهمة جليلة يجب تأديتها. مع كل خطوة راسخة يأخذها تهتزُّ الطحالب الزاهية ويبدو الهور على وشك أن يبتلعه، إذ تغوص عصاه القيِّمة في أعماق الوحل ولا تدعمه. لكن المسافر حافظ على ثبات خطواته ووتيرتها. هكذا قطع الهور الخَطِر بتؤدة تليق بسير المواكب في الأسواق المنعقِدة في الأيام الخاصة، حيث يشارك كبار التجار وينخرط الأهالي في المساومات، ويأتي جميع المزارعين إلى الأكشاك للمقايضة.

طارت العصافير تُحاذي حافة الهور في طريقها إلى أعشاشِها في السياجات النباتية، وأسرعت الحمامات إلى اليابسة لتجثم على الأشجار الداكنة العالية، وابتعد آخر أسراب الغربان. هكذا خلا الهواء من الطيور.

وقد اهتزَّت الأهوار الشاسعة لمجيء ذلك الغريب. حالما وطئ المسافر تلك الطحالب الزاهية التي تزدهر في تلك البِركات سرت اهتزازةٌ أسفل النباتات العشبية الرطبة، وانطلقت تحت سطح الماء مثل الضوء أو صوت الموسيقى، تقطع الأهوار حتى وصلت إلى حاجز الشَّفق السحري الفاصل بين هنا وهناك. لكنها لم تتوقف عنده، بل هزَّته حتى شعرت بها الموجودات في الأرض السحرية، إذ إن الأهوار الشاسعة تصل إلى

موضع في حدود الأرض يصبح عنده حاجز الشَّفق أكثر رقَّة وغموضًا منه في أي موضع آخر.

وحالما سرَت تلك الاهتزازة في أعماق الأهوار نهضت الأشباح المضيئة من مساكنها، وتراقصت تجتذب المسافر لمواصلة السير فوق الطحالب في تلك الساعة إذ يطير البطُّ. وأسفل خفقان أجنحة البطِّ واندفاعه تبع المسافر الأشباح المضيئة موغِلًا في الأهوار. ومع ذلك فإنه أحيانًا ابتعد عن تلك الأشباح المضيئة فتبعته قليلًا بدلًا من قيادة الغرباء التي تعتادها، ثم تمكنت من المُضي أمامه لتقوده مرة أخرى.

لو وُجِدَ مُراقِب في مثل هذا المكان المحفوف بالأخطار في مثل هذا الضوء الخافت للحِظَ، بعد فترة من الوقت، تشابهًا غريبًا بين خطوات المسافر وخطوات أنثى الزقزاق في الربيع عندما تجتذب أي غريب وراءها، بعيدًا عن الضفة المكسُوَّة بالطحالب حيث ترقد بيوضها مكشوفة. وربما يكون هذا التشابه محض وهم، أو ربما لم يكن المُراقِب ليلحظ شيئًا. إن ذلك المكان المقفِر في تلك الليلة قد خلا من أي مُراقِب على أي حال.

واصل المسافر طريقه الغريب، أحيانًا يسير جهة الطحالب الخطرة وأحيانًا جهة الأرض الجافة الآمنة، تبدو الجدية في مسلكه والرزانة في مشيته دائمًا، وقد تجمعت الأشباح المضيئة حوله. وما تزال تلك الذبذبة العميقة التي حذَّرت الأهوار من وجود غريب تنبض خلال السائل الغليظ أسفل سيقان القصب. ولم تتوقف، كما ينبغي الحدوث عند القضاء على الغريب، وظلَّت تتردَّد في الأهوار مثل صدى موسيقيٍّ أبديٍّ، حتى أزعجت الأشباح المضيئة فيما وراء حدود الأرض السحرية.

إنني لا أنتوي أن أكتب أي شيء من شأنه أن يسيء إلى الأشباح المضيئة أو أن يُفسَّر بأنه ازدراء لها. لا ينبغي وضع مثل تلك التفسيرات حول كتاباتي، لكن من المعروف أن ساكني الأهوار يستدرجون الغرباء إلى الهلاك، وقد ابتهجوا بممارسة هذه الهواية قرونًا، لهذا يمكنني الحديث عن هذا الأمر دون شعور بالاستياء.

لقد ضاعفت الأشباح المضيئة المجتمعة حول الغريب جهودها غاضبةً. وعندما استطاع التغلب على إغواءاتها الأخيرة على حافة أكثر البركات فتكًا، ولأنه لا يزال حيًّا ويتقدم، وأصبح الهور بأكمله يعرف ذلك، خرجت الأشباح المضيئة التي تعيش في الأرض السحرية من أهوارها وانطلقت تعبر الحاجز. واضطربت تلك البقعة كلها.

لقد شابه ساكنو الأهوار أقمارًا صغيرةً تسطع بوقاحةٍ أمام المسافر الوقور، تحاول مِرارًا أن تقود خطواته الرزينة إلى حافة الموت. وعلى الرغم من ارتفاع قبعته وطول معطفه الداكن فإن تلك الأشباح المضيئة قد أدركت أن الطحالب، التي لم تحمل ثِقل أيَّ غريب من قبل، تحمل ذلك المسافر. عندئذٍ تعاظم غضبها وتقاطرت نحوه تتبعه أينما ذهب. ولأنها غاضبة كانت إغواءاتها تفقد قوتها.

الآن لو كان في الأهوار مُراقِب لرأى ما هو أكثر من مسافر محاط بأشباح مضيئة، إذ لربما لاحظ أن المسافر هو من يتولى قيادة الأشباح المضيئة بدلًا من أن تقود الأشباح المضيئة المسافرَ. ولأنهم يتعجَّلون موته لم يلحظ ساكنو الأهوار أنهم جميعًا يقتربون أكثر فأكثر من الأرض الجافة.

وعندما سادت الظلمة كل شيء سوى سطح الأهوار وجدت الأشباح المضيئة فجأةً أنها في حقل عشبي، وأقدامها تَصِرُّ على الأرض الخشنة،

فيما المسافر جالسٌ ركبتاه مرفوعتان إلى ذقنه، يتطلع إليهم من أسفل حافة قبعته السوداء العالية. لم يسبق من قبل أن استدرجهم أي غريب إلى اليابسة، بخاصة في تلك الليلة حيث كان بينهم أعظم الأشباح المضيئة، التي جاءت بأضواء تشبه القمر مباشرة عبر حدود الأرض السحرية. نظر بعضهم إلى بعض في دهشة واضطراب وهم يسقطون على العشب، لأن خشونة اليابسة وصلابتها أثقلتهم بعد خروجهم من الأهوار. ثم انتبهوا إلى أن ذلك المسافر الذي تراقبهم عيناه الثاقبتان وسط كتلة الملابس السوداء، كان أكبر منهم حجمًا بقليل رغم هالة الوقار التي تحيط به. كان جسده أكثر اكتنازًا منهم لكنه ليس طويل القامة. وبدأوا يتمتمون متسائلين: «من هذا الذي استدرج الأشباح المضيئة؟» واقترب بعضُ الأشباح المضيئة القادمون من الأرض السحرية يسألونه كيف تجرأ على استدراجهم. فتحدث المسافر حيث جلس، دون أن ينهض أو يدير رأسه.

قال: «يا ساكني الأهوار، هل تحبون وحيدات القرن؟».

عند قوله «وحيدات القرن» ملأ الازدراء والسخرية جميع القلوب في هذا الجمع بسيط العقل، حتى إنهم نسوا الحنق الذي انتابهم عند تعرضهم للاستدراج الذي يعدُّونه أسوأ الإهانات، وما كانوا ليغفروا مثل تلك الإهانة قط لو تمتعوا بذاكرة طويلة. الآن ضحكوا ضحكات مكتومة ساخرة من وحيدات القرن. تبدَّت تلك الضحكات في هيئة وميضٍ يتراقص وكأنه ضوء تعكسه مرآة صغيرة تُحرِّكها يد عابثة. وحيدات القرن! كم يمقتون تلك المخلوقات المتغطرسة! يجب أن تتعلم وحيدات القرن التحدث إلى ساكني الأهوار عندما تأتي كي تشرب في البِركات الخاصة بهم. يجب أن تُبدي وحيدات القرن الاحترام اللائق للأشباح

المضيئة بقوة في الأرض السحرية، والأشباح المضيئة قليلًا في أهوار أرض البشر!

أجاب شبح مضيء كبير: «لا. لا أحد يحب وحيدات القرن الفخور».

قال المسافر: «إذًا تعالوا وسنطاردها معًا. ستضيئون لنا الليل بنوركم عندما نخرج مع كلاب الصيد لمطاردتها في حقول البشر».

قال الشبح المضيء الكبير: «أيها المسافر الوقور...».

لكن حالما قال هذه الكلمات ألقى المسافر قبعته وقفز من معطفه الأسود الطويل، ووقف أمام الأشباح المضيئة عاريًا. عندئذٍ اكتشف ساكنو الأهوار أن واحدًا من الترول قد خدعهم.

لكن غضبهم من تلك الخدعة كان طفيفًا، فعلى مرِّ العصور خدع ساكنو الأهوار الترول وخدع الترول ساكني الأهوار كثيرًا، بحيث لا يدري الفريقان أيهما خدع الآخر أكثر، أو كم من الخدع سوف يحيكها بعضهم ضد بعض في المستقبل. والآن تسلَّوا بتذكُّر المرات العديدة التي خدعوا فيها الترول وجعلوهم موضع سخرية، ووافقوا على القدوم بأضوائهم للمساعدة في اصطياد وحيدات القرن، لأن إرادتهم تضعف عندما يقفون على الأرض الجافة، فيسهل إذعانُهم إلى أي اقتراح أو النزول على رغبة أي أحد.

كان لورولو هو من خدع الأشباح المضيئة بتلك الطريقة، لأنه يعلم جيدًا أنهم يحبون استدراج المسافرين. وبعدما حصل على أطول قبعة وأكثر المعاطف رسمية التي يمكن سرقتها، وجهَّز طُعمًا يوقن أنه سيستدرجهم من مسافات بعيدة، انطلق في رحلته. والآن بعد أن جمعهم على اليابسة، وحصل بسهولة على وعدهم بالمساعدة في صيد وحيدات القرن التي يمقتون فخرها، قادهم إلى قرية إيرل. في البداية

كانت حركته بطيئة حتى تعتاد أقدامهم اليابسة، ومع تقدُّمهم وسط الحقول ازدادت سرعته حتى أحضرهم إلى إيرل يعرجون.

والآن لم يوجد في جميع الأهوار أي إنسان. هبط الإوزُّ تصطخب أجنحته. عادت أفراخ البطِّ إلى أعشاشها، واهتز الهواء المظلم إثر تحليق البطِّ الكبير.

***

الفصل الثلاثون

سحر أكثر من اللازم

الآن أصبح السحر الذي تاقت إليه إيرل موجودًا بها بالفعل. سكن الترول أبراج الحمام والغرف الخشبية فوق الإسطبلات وأمعنوا في العبث في الأزقَّة. وتمايلت أضواءٌ خفيةٌ في الطرقات ليلًا بعد عودة الرجال إلى بيوتهم، إذ كانت الأشباح المضيئة تتراقص على طول مجاري التصريف، واتخذت بيوتًا حول بِركات البطِّ وفي رقعات الطحالب الخضراء الداكنة التي تنمو على السقوف القشيَّة المُهمَلة. ولم يبقَ شيء على حاله في تلك القرية القديمة.

ومع اجتماع تلك الكائنات السحرية حول أورايون فإن الشِّق السحري في دمائه، الذي ظلَّ خاملًا وهو يعيش بين البشر ويسمع أحاديثهم الدنيوية كل يوم، قد أفاق من خموله وأيقظ أفكارًا رقدت في ذهنه طويلًا. الآن أصبحت أصوات الأبواق السحرية التي كثيرًا ما سمعها في المساء تحمل معنىً، وازدادت شدَّةً كأنها اقتربت منه.

وقد لحظ أهالي القرية الذين يراقبون حاكمهم نهارًا أن عينيه تتجهان بعيدًا نحو الأرض السحرية. انتبهوا إلى أنه يهمل مهامه الأرضية. وفي الليل طافت الأضواء المريبة وعلت ثرثرة الترول. لقد غشي الخوف وادي إيرل.

في تلك الفترة اجتمع البرلمان للتشاور حول هذه المسألة. ذهب اثنا عشر رجلًا شابت لحاهم إلى ورشة نارل بعدما انتهى عملهم في المساء، الذي يزخر بالغرائب الجديدة القادمة من الأرض السحرية. في الطريق من بيوتهم الدافئة إلى ورشة نارل رأوا أضواءً تتراقص، وسمعوا أصواتًا تثرثر لا تنتمي إلى أرض طيبة. وقد رأى بعضهم خيالاتٍ هائِمة غريبة عن الأرض. وأصبحوا يخشون أن تكون جميع الكائنات الخرافية قد تسللت عبر حدود الأرض السحرية إلى أرض البشر لزيارة الترول.

في اجتماعهم تحدثوا بصوت خافت عن الأمور نفسها: عن الأطفال المذعورين والنساء اللواتي يطالبن بعودة الحياة القديمة وأساليبها. وبينما يتحدثون كانوا ينظرون إلى النافذة وشقوق الجدران، يخشون أن يباغتهم أي شيء.

قال أوث: «لنذهب إلى الحاكم أورايون مثلما ذهبنا إلى جدِّه في غرفته الطويلة الحمراء. لنخبره أننا سعينا إلى الحصول على السحر والآن لدينا منه ما يكفي، وأن يتوقف عن ملاحقة الأشياء الغريبة عن الإنسان».

وبينما هو واقف وسط رفاقه الصامتين أصاخ إلى الليل. هل كان ما سمعه أصوات العفاريت تسخر منه أم أنه محض صدى؟ من يمكنه أن يجزم بالجواب؟ ثم ساد الصمتُ الليلَ حولهم مجددًا.

قال ثريل: «لا. لقد فات أوان فعل ذلك».

لقد رأى ثريل حاكمهم ذات مساء يقف وحده على التلال ساكنًا، عيناه تنظران جهة الشرق، ويستمع إلى شيء يصدر من الأرض السحرية.

وعلى الرغم من أنه لم يُسمَع أي صوت أو تُثر أي ضجة فإن أورايون وقف هناك تهتف به أصوات تتخطى نطاق السمع البشري.

كرَّر ثريل قوله: «لقد فات أوان فعل ذلك الآن».

وكان هذا ما يخشاه الجميع.

ثم نهض جوهِك ببطء ووقف أمام الطاولة، والترول في مأواهم يطلقون ضحكات تشبه طنين الخفافيش، وأضواء الأهوار تومض، والأطياف تتجول في الظلام. فيبلغ وقعُ أقدامها بين الحين والآخر آذانَ الاثني عشر رجلًا المجتمعين في تلك الغرفة الداخلية.

قال جوهِك: «لقد تمنينا قليلًا من السحر...».

الآن سمعوا رنين ضحك الترول عاليًا. ثم تجادلوا حول كمِّ السحر الذي تمنوه في ذلك العهد القديم، حيث كان جدُّ أورايون حاكم إيرل. لكنهم اتفقوا على أن الخطة التي اتَّبعوها كانت بناءً على اقتراح من جوهِك.

أردف: «إن كنَّا عاجزين عن إبعاد حاكمنا أورايون وعينيه عن الأرض السحرية فلنصعد نحن رجال البرلمان إلى تلِّ الساحرة زيروندرِل كي نطرح عليها قضيتنا، ولنطلب منها تعويذة يجب وضعها ضد سيل السحر».

عند سماعهم اسم زيروندرِل تشجَّع الاثنا عشر رجلًا لأنهم يعلمون أن سحرها أقوى من سحر تلك الأضواء الوامضة، وأن الترول وجميع كائنات الليل الغامضة يفرُّون خوفًا من مكنستها. لقد ارتفعت معنوياتهم وأقبلوا على شراب نبيذ العسل يملؤون كؤوسهم مرارًا وامتدحوا جوهِك.

وفي وقت متأخر من الليل نهضوا معًا للعودة إلى بيوتهم. ساروا جميعًا مُتقاربين يغنون أغنيات قديمة ترهيبيَّة في محاولة لإخافة

الكائنات التي يخافونها، لكن الترول والأشباح المضيئة لا تخشى الأشياء التي يراها البشر مُفزِعة. وعندما لم يتبقَّ من ذلك الجمع سوى رجل واحد شرع في الركض إلى بيته فطاردته الأشباح المضيئة.

في اليوم التالي أنهى رجال البرلمان عملهم مبكرًا، لأنهم لم يرغبوا في البقاء على تلِّ الساحرة عندما يحلُّ الليل أو حتى الغروب. التقى الرجال الأحد عشر خارج ورشة نارل بعد الظهيرة وهتفوا به. لقد ارتدوا جميعًا تلك الثياب الرسمية التي اعتاد الأهالي ارتداءها عند الذهاب إلى الكاهن في المكان المُقدَّس، مع أنه لا يوجد كائن يلعنه الكاهن ولا تباركه الساحرة. ثم ذهبوا بعيدًا حتى صعدوا التل يتَّكئون على عصيهم الغليظة.

وقد وصلوا إلى كوخ الساحرة بأسرع ما يمكنهم. هناك وجدوها جالسةً على كرسي عند بابه تتطلع إلى الوادي البعيد، تبدو كما كانت دائمًا لا أكبر أو أصغر سنًّا، ولا تبالي على الإطلاق بقدوم الأعوام أو انقضائها.

قالوا وهم يقفون أمامها في ملابسهم الرسميَّة: «نحن أعضاء برلمان إيرل».

قالت: «أجل. كنتم ترغبون في السحر. هل جاءكم؟».

- جاء منه ما يكفي ويزيد.

- وسيجيئكم مزيد منه.

قال نارل: «أيتها الأم الساحرة، لقد اجتمعنا هنا لنسألكِ أن تمنحينا تعويذة طيبة ضد السحر، حتى لا يصبح مزيدٌ منه في وادينا. لقد جاء منه أكثر من اللازم».

قالت الساحرة: «أكثر من اللازم؟ سحر أكثر من اللازم؟ تتحدث وكأن السحر ليس جوهر الحياة وزخرفها ورونقها. أقسم بمكنستي أنني لن أمنحكم تعويذة ضد السحر».

فكَّر الرجال في الأضواء الجوَّالة، والكائنات الضئيلة الضاحكة، وجميع الغرائب والشرور التي جاءت إلى وادي إيرل، فناشدوها مرة أخرى يحاولون استمالتها.

قال جوهِك: «أيتها الأم الساحرة، لقد أصبح السحر هنا أكثر من اللازم حقًّا. إن الكائنات التي يجب أن تقطن في الأرض السحرية تعبر الحدود إلينا».

قال نارل: «يوجد خلل على الحدود ولن ينتهي هذا الحال. يجب أن تبقى الأشباح المضيئة في الأهوار والترول والعفاريت في الأرض السحرية، ويجب أن نعيش نحن البشر وأن نعمل معًا. هذا هو رأينا جميعًا. إن السحر، الذي رغبنا فيه قبل سنوات في شبابنا، يتعلق بأمور لا تناسب الإنسان».

حدَّقت إليه الساحرة بصمت تتوهج عيناها مثل القطط توهُّجًا تزاد شدَّته. ولأنها لم تتحدث ولم تتحرك ناشدها نارل مجددًا.

قال: «أيتها الأم الساحرة، ألن تمنحينا تعويذة لحماية بيوتنا من السحر؟».

أجابته: «لا تعويذة لكم! أقسم بالمكنسة والنجوم رفيقات جولات الساحرات الليلية أن لا تعويذة لكم! أتريدون أن تسلبوا الأرض إرثها القادم من زمان بعيد؟ أتريدون أن تأخذوا كنزها وتتركوها بائسة يستصغرها جيرانها من الكواكب؟ لقد كنا في بؤس بلا سحر، وفي وجوده يغار منا الفضاء والكون».

انحنت إلى الأمام حيث تجلس ودقَّت بعصاها الأرض تحدج وجه نارل بنظرات حادَّة لا تتزعزع.

أردفت: «قد أمنحكم تعويذة ضد الماء فيعاني العالم كله العطش، لكنني لن أمنحكم تعويذة ضد أغنيات الجداول التي تُردِّد صداها سلسلة التلال في الليل بخفوت شديد فلا تسمعها الآذان الساهرة؛ تلك الأغنيات التي تتخلَّل الأحلام فتُخبِرنا عن الحروب القديمة وقصص الحب الضائعة التي عاشتها أرواح الأنهار. قد أمنحكم تعويذة ضد الخبز فيتضور العالم كله جوعًا، لكنني لن أمنحكم تعويذة ضد السحر الذي يسكن حقول القمح الذهبية في ضوء القمر في يوليو، حيث تتجول كائنات كثيرة لا يعرف الإنسان عنها شيئًا في تلك الليالي القصيرة الدافئة. قد أعدُّ تعويذات ضد راحكتم وملابسكم وطعامكم ومساكنكم الدافئة، لكنني لن أنزع عن بقاع الأرض ذلك السحر الذي يُعَدُّ عباءةً كبيرةً تحميها من برودة الفضاء، وكسوةً تقيها سخرية الكون. الآن اذهبوا من هنا. اذهبوا إلى قريتكم. يا من سعيتم وراء السحر في شبابكم ولا ترغبون فيه في شَيبكم، اعلموا أن أرواحكم تعمى كلما تقدَّمتم في العمر، ويكون عماها أشدّ سوادًا من عمى الأبصار. فتحيطكم بظلمة لا تستطيعون من خلالها النظر، أو الشعور، أو الفهم، أو الإدراك. ولا يمكن لأي صوت يخرج من ذلك الظلام أن يدفعني إلى أن آتي بتعويذة ضد السحر. هيا الآن!».

وعندما قالت: «هيا الآن!»، استندت إلى عصاها تستعد للنهوض من جلستها. عندئذٍ شعر رجال البرلمان بخوف شديد، وانتبهوا إلى أن المساء ينقضي والوادي كله يُظلِم. لقد سهوا عن الوقت وهم يستمعون إلى كلمات الساحرة الحادَّة، في تلك الحديقة العالية حيث ينمو الملفوف الذي تزرعه ولا يزال بعض الضوء باقيًا. والآن بدا واضحًا أن الوقت يتأخر. وهبَّت على سلسلة التلال رياحٌ قادمة من الظلام. وبينما تمرُّ

بهم لسعتهم برودتها، وبدا أن الهواء يمتلئ بذلك الشيء الذي سعوا إلى الحصول على تعويذة ضده.

وها هم في تلك الساعة واقفون أمام الساحرة التي توشك على النهوض وعيناها لا تفارق أعينهم. لقد بدأت النهوض من كرسيها بالفعل، وخلال لحظات ستتقدم نحوهم وستخترق نظراتها كل وجه منهم. لهذا استدار الرجال وهبطوا التلَّ ركضًا.

***

الفصل الحادي والثلاثون

صبُّ اللعنات على الكائنات السحرية

بينما رجال برلمان إيرل يهبطون التلَّ ركضًا قابلهم الغسق. أصبح الضباب الذي يعلو الجدول ويغشى الوادي رماديًّا. ومع الغموض الذي يكتنف الغسق كان الهواء ثقيلًا. دلَّت الأضواء التي تومض خلف نوافذ المنازل على أن جميع الأهالي عادوا إلى بيوتهم، وأن الطريق يخلو من البشر، باستثناء حاكمهم أورايون. لقد رأوه مارًّا بخطوات هادئة تتبعه الأشباح المضيئة في طريقه إلى مأوى الترول، تدور في ذهنه أفكار بعيدة عن الأرض بالطبع. كان حال القرية يزداد غرابة يومًا تلو الآخر، حتى أصبحت مخيفة. لهذا واصل الرجال الاثنا عشر ركضهم بأنفاس قصيرة مضطربة.

هكذا وصلوا إلى المكان المُقدَّس الذي يقع في موضع من القرية يواجه تلَّ الساحرة. لقد وصلوا في تلك الساعة التي يقيم فيها الكاهن شعيرة إنشاد ترانيم «سكون الطيور»؛ هذا هو الاسم الذي أطلقوه على

الترانيم التي ينشدونها في المكان المُقدَّس عندما تسكن جميع الطيور في أعشاشها. لكن الكاهن لم يكن داخل المكان المُقدَّس، بل وقف على الدرجة العليا في الخارج وسط هواء الليل البارد، يتجه وجهه إلى الأرض السحرية. كان يرتدي رداءه المقدس ذا الزركشة البنفسجية والقلادة الذهبية حول رقبته. ويدير ظهره إلى باب المكان المُقدَّس الذي أغلقه. لقد تفاجؤوا برؤيته واقفًا بتلك الطريقة.

وبينما هم وافقون في حيرة بدأ الكاهن الكلام بصوت واضح في هدوء المساء وعيناه تنظران إلى الشرق، حيث شرعت بعض النجوم في البزوغ. كان رأسه مرفوعًا، ويتحدث كأن صوته يستطيع عبور حاجز الشَّفق فيسمعه ساكنو الأرض السحرية.

قال الكاهن: «اللعنة على كل الكائنات الجوَّالة في الأرض رغم أنها لا تنتمي إليها. اللعنة على الأضواء الشبحية التي تركت الأهوار والمستنقعات. ليمكثوا حيث ينتمون حتى يوم الحساب، وليلزموا أماكنهم في انتظار الجحيم. ملعونة العفاريت والترول والأقزام والجِنُّ في البر والبحر. ملعونة كائنات الفون أتباع پان[1]، وكل ما يسكن الأرض سوى البشر والحيوانات. اللعنة على الجنيات وجميع الحكايات التي تُروى عنهم، وعلى كل ما يسكن المروج قبل شروق الشمس. اللعنة على جميع الخرافات التي تحكي عن قوى غامضة، وعلى جميع الأساطير التي يتوارثها الإنسان من عصور الشِّرك. ملعونة المكنسات التي تترك مكانها بجوار المدافئ. ملعونة الساحرات وجميع فنون السحر. ملعونة حلقات الفطريات الشيطانية التي تنمو في الغابات وكل ما يرقص بداخلها. ملعونة كل الأضواء الغريبة، والأغنيات العجيبة،

(1) وفقًا للأساطير الإغريقية فإن الفون (Fauns) كائنات خرافية نصفها إنسان ونصفها الآخر ماعز. وپان (Pan) هو ربُّ الغابات والمراعي والرُّعاة، وله الهيئة نفسها. م

والظلال المريبة، والحكايات التي تُلمِح إليها. اللعنة على الأشياء المُبهَمة في الغسق، والكائنات التي يخشاها الأطفال، والحكايات الخرافية التي ترويها العجائز من النساء، والممارسات الخفيَّة في ليالي منتصف الصيف. اللعنة على كل هذه الأشياء وكل من يلتفت إلى الأرض السحرية وكل ما يأتي منها».

لم يخلُ طريق أو مخزن في تلك القرية من الأشباح المضيئة، التي تتراقص فوقهم بخفَّة ويستنير الليل بها. لكنها عندما سمعت الكاهن يتحدث تراجعت بعيدًا عن لعناته وكأن رياحًا خفيفة أثارتها، ثم عادت تتراقص مجددًا بعد الانزياح قليلًا. لقد تراجعت الأشباح المضيئة أمامه وخلفه وعلى جانبيه، حيث وقف على دَرَج المكان المُقدَّس. هكذا أحاطت به دائرة من الظلام، ووراء تلك الدائرة المظلمة ومضت الأشباح المضيئة التي تنتمي إلى الأهوار والأرض السحرية.

وبداخل الدائرة المظلمة حيث وقف الكاهن وهو يصبُّ لعناته لم توجد كائنات خبيثة، أو غرائب تظهر في الليل، لم تُسمَع همسات مجهولة أو موسيقى تُدوِّي هنا من أماكن لا يسكنها البشر. لقد ساد تلك البقعة النظام، بلا أي غموض يُقلِق الهدوء سوى ما اعتاده البشر.

لكن فيما وراء تلك الدائرة، حيث طردت لعناتُ الرجل الطيب كائنات كثيرة، مرحت الأشباح المضيئة والعفاريت مرحًا شديدًا. وفي تلك الليلة تدفَّقت الغرائب من الأرض السحرية إلى أرض البشر. لقد ذاع في الأرض السحرية أن بعضًا من ساكنيها يعيشون الآن في إيرل. لهذا تسلَّل عديد من كائنات الخرافات ووحوش الأساطير عبر حاجز الشَّفق تقصد إيرل. وتراقصت الأشباح المضيئة المُخادِعة المرحة في الهواء المسكون تُرحِّب بهم.

ولم يكن الترول والأشباح المضيئة وحدهُم من استدرجوا تلك الكائنات من أرضها الخرافية لتعبر الحاجز المهيب؛ بل إن شوق أورايون وأفكاره، التي يُوجِّهها شِقُّه السحري إلى الأرض السحرية وساكنيها من الكائنات الخرافية، كانت تستدعيها الآن. منذ ذلك اليوم حيثُ وصل إلى الحدود وهو يتأرجح بين أرض البشر والأرض السحرية، وشوقه إلى أمه يتعاظم. والآن كانت أفكاره السحرية، رغمًا عنه، تستدعي أقاربها الذين يسكنون أودية الأرض الخرافية. وفي تلك الساعة عندما دوَّت الأبواق عبر حاجز الشَّفق تبعت تلك الكائنات ذلك الدويَّ. إن الأفكار السحرية حيَّة مثلها مثل العفاريت، والترول، وجميع الموجودات في الأرض السحرية.

بداخل الدائرة الهادئة المظلمة التي شكَّلتها لعنات الرجل الطيب وقف الرجال الاثنا عشر صامتين يستمعون إلى كل كلمة يقولها. وبدت كلماته فاضلة وصائبة ومُطمئنة، لأن السحر قد أرهقهم.

لكن وراء تلك الدائرة المظلمة، وسط وهج الأشباح المضيئة التي تومض طوال الليل وضحك العفاريت ومرح الترول الأهوج، حيث بدت الأساطير القديمة حيَّةً وأكثر الخرافات المخيفة صحيحةً؛ وسط الأصوات الغامضة والأشكال الغريبة والظلال المخيفة، مرَّ أورايون وكلاب الصيد نحو الشرق يقصد الأرض السحرية.

***

الفصل الثاني والثلاثون

تشتاق ليرازِل إلى الأرض

في القاعة المُشيَّدة من ضوء القمر، والأحلام، والموسيقى، والسراب جثت ليرازِل على الأرض المتلألئة أمام عرش والدها. انعكس ضوء العرش السحري الأزرق على عينيها، فومض فيهما ضوء عمَّق سحره. وبينما هي جاثية هناك ناشدت والدها تعويذة رونيَّة.

لم تدعها الأيام التي أمضتها في أرض البشر وشأنها، واحتشدت الذكريات العذبة حولها. لقد أحبت مروج الأرض السحرية؛ تلك المروج حيث مرحت تحيط بها زهور عجيبة قبل تدوين أي تاريخ في أرضنا. لقد أحبت المخلوقات الخرافية الحلوة التي تغادر الغابة الحارسة كأنها ظلال سحرية تمشي على العشب المسحور. لقد أحبت كل حكاية وأغنية وتعويذة تنتمي إلى موطنها السحري. ومع ذلك فإن أجراس الأرض التي لم تستطع عبور حاجز الصمت والشَّفق رنَّت في ذهنها. وشعر قلبها بزهور الأرض وهي تتفتح أو تذبل أو تخمد في المواسم التي لم

تعرفها الأرض السحرية. وبينما تلك المواسم تنقضي واحدًا تلو الآخر أدركت أن ألڤيرك في ترحال، وأن أورايون يحيا ويكبر ويتغير؛ وأنها، إن كانت أسطورة الأرض حقيقة، ستفقدهما إلى الأبد عندما تنغلق بوابات الفردوس على كليهما ويُسمَع دويُّ انغلاقها الأبديِّ. فلا طريق برِّي أو جوِّي يصل بين الأرض السحرية والفردوس، ولا يرسل أي منهما سفيرًا إلى الآخر. لقد اشتاقت ليرازِل إلى أجراس الأرض وزهور الربيع العطرية، لكنها لن تهجر والدها العظيم أو العالم الذي صنعه ذهنه مرة أخرى. ثم إن ألڤيرك لم يأتِ وكذلك ابنها أورايون. لقد سمعت دويَّ بوق ألڤيرك مرة واحدة فقط، وكثيرًا ما بدا أن أشواقها تُحلِّق في الهواء وترفرف عبثًا بينها وبين أورايون.

ارتجفت أعمدة القصر اللامعة التي تدعم قبة السقف تأثُّرًا بأساها. وومضت ظلالُ حزنها على جدران القصر الكريستالية ثم انطفأت، فبهتت ألوان كثيرة لا نعرفها تُخضِّب تلك الجدران، لكن هذا الأثر لم ينل من جمالها. ماذا عساها تفعلُ من لا تستطيع نبذ السحر أو هجر موطنها الذي طالما أحبَّته، وتعيش فيه يومًا أبديًّا في حين أن الأعوام الأرضية تذبل مثل أوراق الأشجار، لكن قلبها يتمسك بأرض البشر بمحاليق صغيرة لكنها قوية بما يكفي؟

قد يترجم البعض شعورها المرير إلى كلمات أرضية قاسية قائلين إنها تتمنى أن توجد في مكانين في الوقت نفسه. وكان هذا صحيحًا. قد تبعث مثل تلك الأمنية المستحيلة على الضحك، على أنها كانت مأساتها. لكن هل تلك الأمنية حقًّا مستحيلة؟ هل من المستحيل حدوثها؟ يجب أن نستعين بالسحر.

لقد ناشدت والدها تعويذة رونيَّة وهي جاثية على أرضية القصر في مركز الأرض السحرية، حولها الأعمدة التي نسمع بها في الأغنيات فقط،

والتي ارتجف قوامها الضبابي جرَّاء حزن ليرازِل. لقد ناشدت والدها تعويذة رونيَّة تعيد إليها ألڤيرك وأورايون أينما كانا في أرض البشر؛ تعويذة رونيَّة تجعلهما يعبران الحدود إلى الأرض السحرية ليعيشا معها ذلك اليوم الطويل الأبدي. وقد التمست أن تجلب التعويذة الرونيَّة إلى الأرض السحرية بستانًا من بساتين البشر، أو حوضًا تنمو فيه زهور البنفسج، أو حقلًا تتمايل فيه زهور الربيع العطرية ليتألق إلى الأبد، لأن تعويذات والدها الرونيَّة القوية تملك القدرة على فعل ذلك.

وقد أجابها والدها بصوته السحري، الذي يشبه موسيقى لا يُسمَع مثلها في مدن البشر ولا تتردد على تلال الأرض. بدت كلماته الرنَّانة وكأنها قادرة على نحت التلال الخرافية، أو إنبات زهور جديدة في الحقول السحرية.

قال: «إنني لا أملك من التعويذات الرونيَّة التي يمكنها اجتياز الحدود واجتذاب البنفسج، أو زهور الربيع العطرية، أو البشر، أو أي شيء أرضيٍّ لعبور حصن الشَّفق الذي أقمته حمايةً لنا من الكائنات الدنيوية، سوى تعويذة رونيَّة واحدة فقط. وهي آخر قوى مملكتنا».

وبينما ليرازِل لا تزال جاثيةً على الأرضية اللامعة، ذات الشفافية الشديدة التي قد نسمع بها في الأغنيات فقط، ناشدت والدها تلك التعويذة الرونيَّة؛ تلك القوة الأخيرة التي ستزود عن عجائب الأرض السحرية.

لكن الملك الساحر لم يكن ليهدر تلك التعويذة الرونيَّة الأكثر قوة، آخر التعويذات الرونيَّة الرئيسة الثلاثة، المحفوظة في خزانته. بل أبقاها لمواجهة خطر يوم بعيد مجهول، سيسطع نهاره بعد مرور بعض العصور، لكن الملك لا يستطيع التنبؤ بموعده رغم علمه.

لقد علمت ليرازِل أن والدها أزاح الأرض السحرية بعيدًا ثم أرخى قبضته عليها، مثل أمواج المدِّ والجزر الواقعة تحت تأثير جاذبية القمر،

حتى عادت إلى حافة حقول البشر مجددًا يلامس حاجزها الوامض أطراف السياجات النباتية الأرضية. كانت تعلم أنه مثل القمر لم يبذل الكثير لإزاحة أرضه، بل حقَّق رغبته بإشارة سحرية فقط من يده. وتساءلت: أيمكنه التقريب بين الأرض السحرية وأرض البشر، دون أن يبذل سحرًا قويًّا مثل جاذبية القمر عند المدِّ والجزر الناقص؟

ثم ناشدته مرة أخرى تُذكِّره بالعجائب التي أحدثها دون أن يستخدم تعويذة قوية تتطلب أكثر من إيماءة من ذراعه. حدَّثته عن زهور الأوركيد التي كست الجبال السحرية ذات القمم الزرقاء الفاتحة، مثل زَبَدٍ ورديٍّ غمر منحدراتها فجأة. تحدثت عن الزهور البنفسجية الناعمة الغريبة التي ازدهرت في الأودية، وعن بهاء الزهور التي تحيط بالمروج وتحرسها إلى الأبد. كانت تلك العجائب من ابتكاره؛ إن أغنيات الطيور وتفتُّح الزهور السحرية من إلهاماته. ولأنه استطاع إحداث مثل تلك العجائب بإيماءة من يده فربما يستطيع أن يستدعي إلى الأرض السحرية بعضًا من الحقول القليلة التي تقع بالقرب من الحدود الأرضية. وربما يستطيع أن يُحرِّك الأرض السحرية تجاه الأرض مرة أخرى، مثلما أزاحها مؤخرًا قدر المسافات التي تقطعها المُذنَّبات ثم أعادها مرة أخرى إلى حافة حقول البشر.

قال الملك: «لا يمكن لأي قوة سحرية سوى تلك التعويذة الرونيَّة الأخيرة أن تُقرِّب مملكتنا إلى حدود أرض البشر، أو أن تجلب أي شيء من هناك إلى هنا. ولا يدرك أحد في تلك الأرض وجود تعويذة رونيَّة تستطيع فعل ذلك».

لكن ليرازِل عجزت عن أن تُصدِّق أن قوى والدها الساحر لا تستطيع الجمع بين موجودات أرض البشر وعجائب الأرض السحرية.

أردف: «في أرض البشر يُصَدُّ سحري، وتصبح تعويذاتي بكماء وذراعي اليمنى عاجزة».

عندما تحدث الملك عن ذراعه اليمنى المهيبة بهذه الطريقة أذعنت ليرازِل إلى الحقيقة بالضرورة أخيرًا. وناشدته مجددًا تلك التعويذة الرونيَّة الأخيرة؛ كنز الأرض السحرية المحفوظ طويلًا؛ تلك القوة التي تستطيع التغلب على ثقل أرض البشر.

الآن سرحت أفكار والدها إلى المستقبل يتأمل سنوات طويلة بعيدة. ومثل مسافرٍ وحيد ليلًا في طرقات موحشة لا يتخلى عن مصباحه لم يكن الملكُ الساحرُ ليتخلى عن تعويذته الكبرى الأخيرة ويخوض من دونها تلك السنوات المريبة، التي رأى منها صورًا قاتمة وعديدًا من الأحداث، لكنه لم يستطع أن يرى نهايتها. لو كان بشريًّا لمنحها بسهولة تلك التعويذة الرهيبة التي ستلبي رغبتها الوحيدة، لكن معرفته الواسعة أرته كثيرًا من السنوات القادمة، وقد خشي مواجهتها دون تلك القوة العظيمة الأخيرة.

قال: «وراء حدودنا توجدُ مخلوقات دنيوية كثيرة وقوية وقاسية، تتكاثر وتستطيع الإيذاء، ولديها عجائبها أيضًا. إن استخدمنا تلك القوة الأخيرة فلن يبقى في أرضنا ما يمكن أن يخيفهم. ستتضاعف تلك الكائنات الدنيوية وستُخضِع مملكتنا. هكذا في غياب التعويذة الرونيَّة التي تثير رهبتهم سيؤول بنا المطاف إلى أن نصبح خرافةً فقط. يجب علينا أن نحتفظ بتلك التعويذة الرونيَّة».

لقد حاول إقناعها مُستعينًا بالمنطق بدلًا من أن يأمرها، مع أنه الملك ذو الأمر النافذ والمؤسِّس لتلك الأرض السحرية وكل ما يجول فيها والضوء الذي يغمرها. لكن المنطق في الأرض السحرية ليس شيئًا

معتادًا، بل يُعَدُّ من العجائب. رغم ذلك فقد استعان به في تهدئة شوقها إلى أرض البشر.

لكن ليرازِل لم تجبه، وبكت دمعًا من الندى السحري. فاهتزت سلسلة الجبال السحرية مثلما ستهتز الرياح الجوَّالة بفعل نغمات كمانٍ شردت في طرقات الهواء بعيدًا عن الآذان. وانتاب جميع المخلوقات الخرافية التي تسكن الأرض السحرية شعور غريب وكأن لحنًا تتبعثر نغماته.

قال الملك: «أليس في مصلحة الأرض السحرية أن أفعل ذلك؟».

لكنها واصلت البكاء.

تنهَّد الملك واستغرق في التفكير في هذه المسألة. إن الأرض السحرية تستمد استقرارها من هدوء ذلك القصر المركزي الذي نسمع به في الأغنيات فقط. لكن الآن اضطربت أبراجه وخفت ضوء جدرانه، وانساب الحزن من مدخله المُقبَّب ليغمر جميع الحقول السحرية والأودية العجيبة. إن أصبحت ليرازِل سعيدة فإن الأرض السحرية قد تنعم مرة أخرى بالضوء الصافي والسكون الأبدي البعيدين عن منال الكائنات الدنيوية. هذا هو الواجب فعله حتى وإن أصبحت خزانته فارغة من قوتها.

هكذا أصدر أمره فأتت كائناتٌ سحرية تحمل الخزانة، يسير خلفهم الفارس الذي تولَّى حراستها إلى الأبد.

فتح الخزانة -التي لا مفتاح لها- بتعويذة بسيطة، وأخذ منها لفافة رَقِّية قديمة. ثم نهض يقرأها وابنته تبكي. وبينما الملك الساحر يقرأ تلك التعويذة الرونيَّة شابهت كلماتها نغمات مجموعة من آلات الكمان، يعزفها موسيقيُّون مُختارون من عصور كثيرة في غابة في منتصف

ليلة صيفية، يعلوهم قمر ساطع والهواء مشحون بالعاطفة والغموض، وتكمن بالقرب منهم كائنات خفيَّة تتجاوزُ نطاق معرفة الإنسان.

هكذا قرأ الملك التعويذة الرونيَّة، وقد سمعته الموجودات وأطاعته، ليس فقط في الأرض السحرية بل وعبر حدود أرض البشر.

***

الفصل الثالث والثلاثون

الشريط اللامع

رغم الرفقة التي تتضمن ثلاثة رجال، سار ألڤيرك وحيدًا بلا أمل يرشده. أمَّا نيڤ وزيند، اللذان قادهما الأمل طويلًا في تلك الرحلة العجيبة، فلم يعودا يتوقان إلى الأرض السحرية. والآن اتَّبعا الخطة التي وضعاها لإبعاد ألڤيرك عنها. كانت رغباتهما تتبدَّل على نحو أبطأ من العقلاء، لكنهما يتشبَّثان بكل رغبة بحماس جنوني. لقد تجوَّل زيند أعوامًا طويلة يأمل أن يصل إلى الأرض السحرية، والآن بعد أن رأى حاجزها عدَّه واحدًا من خصوم القمر. وبعدما احتمل نيڤ الكثير في سبيل تحقيق مسعى ألڤيرك رأى أن تلك الأرض السحرية تفوق جميع خيالاته روعةً فانتابته الغيرة منها. والآن كلما حاول ألڤيرك ملاطفة هذين العنيدين المُتصلِّبين كي يقنعهما بالرجوع إلى الأرض السحرية قال زيند: «هذه ليست إرادة القمر»، وكرَّر نيڤ: «أليس لديَّ من الخيالات ما يكفي؟».

والآن كانوا في رحلة العودة يمرون بالمزارع التي عرفتهم قبل سنوات. وعند الغروب في الحقول حيث أصبحوا أسطورة ينصبون خيمتهم الرمادية القديمة، التي ازدادت اهتراءً، ويلقون بظلالهم على المساء. ولم يغفل زوج الأعين المخبولة عن ألڤيرك قط، خشية أن يتسلل من الخيمة ذاهبًا إلى الأرض السحرية، حيث الخيالات أكثر غرابةً مما يراه نيڤ وتحت سيطرة قوة أكثر سحرًا من القمر.

كثيرًا ما حاول ألڤيرك أن يتسلل من مكانه إلى الخارج في جوف الليل. في إحدى الليالي المُقمِرة ظلَّ مستيقظًا حتى بدا له أن العالم كله أصبح نائمًا. ثم تسلل من الخيمة حيث ينام نيڤ عميقًا إلى ضوء القمر والظلال السوداء، وهو يعلم أن الحاجز ليس بعيدًا. بعدما سار قليلًا رأى زيند جالسًا على صخرة يحدق إلى وجه القمر. استدار زيند الذي جاءه الإلهام من القمر للتو وركض نحو ألڤيرك صائحًا. كان ألڤيرك أعزل بعدما أخذا سيفه. والآن استيقظ نيڤ وأتى غاضبًا. وقد انتابتهما غيرة شديدة لأنهما يعلمان جيدًا أن عجائب الأرض السحرية أكثر روعةً من أي خيال قد يجود به ذهناهما.

ثم حاول ألڤيرك التسلل مرة أخرى في ليلة غاب عنها القمر. لكن نيڤ في تلك الليلة كان جالسًا خارج الخيمة يستمتع بالهذيان وسط الظلام. وفي ضوء النجوم الخافت رأى ألڤيرك يتسلل إلى الأرض التي فاقت عجائبها جميع خيالاته الفقيرة. وقد انتابه حقدٌ قد يشعر به الأقلُّ شأنًا تجاه الذي يفوقه قدرًا. فتسلل خلف ألڤيرك دون مساعدة من زيند ووجَّه إليه ضربة أفقدته الوعي. منذ ذلك الحين لم يخطط ألڤيرك قط للهروب، لكن رفيقيه اللذين يزدحم ذهناهما بأفكار مجنونة توقَّعا هروبه.

هكذا قطعوا الحقول وشاهدهم المزارعون. لقد هتف ألڤيرك بأولئك الأهالي يطلب منهم المساعدة، لكن نيڤ كان ذكيًّا وأجاد التظاهر بسلامة العقل. وعندما أتى الأهالي راكضين إلى تلك الخيمة الرمادية الغريبة حيث سمعوا صياح ألڤيرك، وجدوا نيڤ وزيند جالسين في هدوء تدرَّبا عليه كثيرًا، وتحدث ألڤيرك عن رحلة بحثه عن الأرض السحرية التي قطعها رفيقاه. ولأن كثيرين من البشر يرون جميع رحلات البحث ضربًا من الجنون، مثلما يدري نيڤ، فلم يحصل ألڤيرك على أي مساعدة هناك.

وبينما هم عائدون في الطريق الذي سلكوه أعوامًا قاد نيڤ تلك الفرقة -التي تتألف من ثلاثة رجال- يتقدم ألڤيرك وزيند. سار ووجهه النحيل مرفوعًا، تزيده نحولًا الطريقة التي اعتمدها في تشذيب لحيته وشاربه، يتقلد سيف ألڤيرك الذي يبرز مقبضه أمامه ويمتد غمده خلفه. كان يخطو شامخًا برأسه على نحو يكشف لمن يرونه من القلَّة المسافرين في ذلك الطريق أن ذلك الرجل نحيل الجسد رثُّ الثياب يرى نفسه قائد فرقة كبيرة غير مرئية. إن رآه أحدهم في نهاية المساء حوله الظلام وضباب الأهوار خلفه، فقد يظنُّ أن في الظلام والضباب جيشًا يتبع ذلك الرجل المبتهج الواثق بنفسه. لو كان ذلك الجيش موجودًا حقًّا لما عُدَّ نيڤ مجنونًا. لو صدَّق العالم وجود ذلك الجيش، رغم أن ألڤيرك وزيند فقط هما من يتبعان نيڤ، لما عُدَّ نيڤ مجنونًا. لكن ذلك الخيال الوحيد كان بعيدًا عن الحقيقة ولم يجد من يدعمه، ولهذا يُعَدُّ جنونًا.

راقب زيند ألڤيرك طوال الوقت وهما يسيران خلف نيڤ. إن غيرة نيڤ وزيند من عجائب الأرض السحرية وحَّدتهما للعمل معًا. وفي صباح أحد الأيام حاول نيڤ الوقوف منتصب القامة ورفع ذراعه اليمنى عاليًا يخاطب جيشه قائلًا: «لقد اقتربنا من إيرل. هناك سنستبدل الأشياء

القديمة والبالية بأخرى جديدة من وحي الخيال. ومن الآن فصاعدًا ستسير شؤونها وفقًا لما يمليه القمر».

لم يكترث نيڤ بالقمر قط، لكنه تمتع بذكاء شديد. لقد أدرك أن زيند سيعينه على تنفيذ خطته الجديدة في إيرل إن أظهر اهتمامًا بالقمر. وقد هتف زيند فرحًا حتى ردَّد تلٌّ وحيدٌ أصداء هتافه، فابتسم نيڤ إلى تلك الأصداء مثل قائد واثق من مُضيفيه. ثم نهض ألڤيرك يواجههما وتعاركوا للمرة الأخيرة. عندئذٍ أدرك أن العمر، أو الترحال، أو اليأس جعله غير قادر على مجابهة قوة الجنون التي يمتلكها الاثنان.

وبعد ذلك سار معهما في خضوع واستسلام لا يبالي بما قد يصيبه، يعيش ذكريات أيام مضت. وفي أمسيات نوفمبر في المخيم خافت الإضاءة شديد البرودة، ينظر إلى الوراء إلى أعوام منصرمة، فيرى صباحات ربيعية تشرق على أبراج إيرل. في ضوء تلك الصباحات رأى أورايون يلهو بالدُّمى القديمة التي صنعتها الساحرة بتعويذاتها؛ رأى ليرازِل تسير في البساتين البديعة. لكن الشعلات التي أوقدتها الذكريات لم تكن قوية بما يكفي لإنارة ذلك المخيم في تلك الأمسيات الكئيبة، إذ الأرض رطبة والبرد قارس، ونيڤ وزيند يثرثران بصوت خافت، ويضعان خططًا توحي بها أهواء النفس عند الغروب في البريَّة. لكن عندما ينقضي المساء الحزين وينام ألڤيرك في الخيمة التي يرفرف قماشها المهترئ، تعمل ذاكرته دون أن يعيقها النهار المزدحم بالتقلُّبات، وتعيده إلى إيرل حيث السعادة والإشراق والربيع. هكذا، بينما يرقد جسده في تلك الحقول البعيدة، وسط الظلام والشتاء، يعود ذلك الجزء منه النابض بالحياة إلى وادي إيرل، في سنوات ربيعية مع ليرازِل وأورايون.

لم يدرِ ألڤيرك كم ميلًا تفصله عن بيته، الذي تذهب إليه أفكاره السعيدة في كل ليلة تاركةً جسده المتعب. لقد مرت سنوات عديدة منذ

ذلك المساء، إذ أُقيمت تلك الخيمة في ذلك المكان حيث يرفرف الآن قماشها الممزق. لكن نيڤ علم أنهم اقتربوا من واديهم لأن الخيالات أصبحت تأتيه حالما ينام، مع أنه اعتاد أن يرى تلك الخيالات عندما يتقدم الليل وينتصف، أو يقترب طلوع الصباح. لهذا تأكَّد له أنهم كانوا بعيدين كثيرًا عن وجهتهم، والآن اقتربوا منها. عندما أخبر زيند بهذا الأمر سرًّا في إحدى الأمسيات استمع إليه زيند بجدية، لكنه لم يبدِ رأيًا. اكتفى بقول إن القمر يعلم كل شيء، وتبع نيڤ الذي قاد هذا الرهط الطريف في الاتجاه الذي تأتي منه خيالاته عن وادي إيرل. وعلى الرغم من أسلوب القيادة الغريب ذاك فقد اقتربوا من إيرل، مثلما يحدث كثيرًا عندما يتبع البشر قادة مجانين أو عميان أو موهومين، فيصلون بهم إلى ميناء أو ما شابه، رغم أنهم يعيشون دون بصيرة. إن اختلفت القيادة فماذا عساه يحلُّ بنا؟

وذات يوم لاحت قمم أبراج إيرل بعيدًا، تلمع في ضوء الشمس المبكر فوق منحدرات التلال. فقادهم نيڤ إليها في الحال لأن مسارهم لم يكن يتجه إلى إيرل مباشرةً، وسار كأنه غازٍ يرى بوابات مدينة جديدة. لم يدرِ ألڤيرك بخطط نيڤ وظلَّ لا مُباليًا؛ ولم يدرِ بها زيند أيضًا لأن نيڤ لم يقل سوى إن خططه يجب أن تظلَّ سرية، ولم يدرِ بها نيڤ لأن الخيالات تتولَّد في ذهنه وتبتعد سريعًا. كيف يمكنه أن يتحدث اليوم عن الخطة التي وضعتها خيالات نشأت عن مزاج الأمس؟

ثم صادفوا راعيًا يقف وسط خرافه مُتَّكئًا على عصاه، بدا أنه لا يهتم بشيء سوى مشاهدة المارَّة؛ وإن لم يمرَّ به شيء يطيل النظر إلى مراعي التلال التي شكَّلت منحدراتها جميع ذكرياته. كان ذلك الراعي ذا لحية، وقد شاهدهم يمرون دون أن ينطق بكلمة. فجأة عرفه نيڤ من

واحدة من ذكرياته المجنونة، فحيَّاه باسمه وأجاب الراعي تحيته. من عساه يكونُ ذلك الرجل غير ڤاند!

ثم شرعوا في الكلام. تحدث نيڤ بلباقة مثلما يفعل دائمًا عند الحديث مع العاقلين، يحاول محاكاة مظاهر سلامة العقل خشية أن يطلب ألڤيرك المساعدة. لكن ألڤيرك لم يطلب أي مساعدة. لقد وقف صامتًا يسمعهم يتحدثون، لكن أفكاره سافرت بعيدًا في الماضي حتى بدت له أصواتهم لَغَطًا. ثم سألهم ڤاند إن كانوا قد عثروا على الأرض السحرية. لكنه طرح سؤاله مثلما قد يسأل المرءُ الأطفالَ إن كان قاربُهم اللُّعبة قد وصل إلى الجزر السعيدة. لقد أمضى أعوامًا طويلة برفقة الأغنام، عرف احتياجاتها وثمن بيعها وحاجة البشر إليها. وقد أحاطت هذه الأمور بخياله خفية، حتى أصبحت جدارًا لا يرى ما وراءه. عندما كان شابًّا سعى مرَّةً إلى الوصول إلى الأرض السحرية. لكن الآن بعدما تقدم في العمر قد ترك وراءه مثل تلك المساعي التي تناسب الشباب فقط.

قال زيند: «رأينا حدودها. رأينا حاجز الشَّفق».

قال ڤاند: «محض ضباب في المساء».

قال زيند: «لقد وقفت على حافة الأرض السحرية».

لكن ڤاند ابتسم وهز رأسه يمينًا ويسارًا وهو يتكئ على عصاه الطويلة. لقد تبدَّى إنكاره حديث زيند عن الحاجز في اهتزاز لحيته وابتسامته، وظهرت في عينيه سماحة وحكمة شيوخ الأرض.

قال «لا، لا توجد أرض سحرية».

اتفق نيڤ مع ڤاند في الرأي لأنه تعلَّم السيطرة على شعوره وهو يلاحظ سلوك العقلاء. ثم تحدثوا عن الأرض السحرية باستهانة، مثلما يحكي المرء عن حلم رآه عند الفجر ثم انقضى قبل استيقاظه. وقد سمع ألڤيرك حديثهم في أسى، إذ رأى الآن أن ليرازِل لا تسكنُ فيما وراء

الحدود فحسب، بل ولا يؤمن البشر بوجودها. الآن شعر أنها بعيدة عنه أكثر من أي وقت مضى واشتدت وحدته.

قال ڤاند: «لقد بحثت عنها مرة واحدة. لكن لا، الأرض السحرية ليست موجودة».

وافقه نيڤ الرأي وتفاجأ زيند.

كرَّر ڤاند: «ليست موجودة».

وهز رأسه ونقل نظره إلى خِرافه.

ثم رأى فيما وراء خرافه شريطًا لامعًا يقترب نحوهم. حدَّقت عيناه طويلًا إلى ذلك الشريط اللامع القادم من الشرق نحو التلال، فالتفت الآخرون ونظروا إلى الموضع نفسه.

لقد رأوه أيضًا. كان شريطًا برَّاقًا من الفضة، ذا مسحة من اللون الأزرق، يومض ويعكس ألوانًا غريبة عابرة. تتقدَّمه مثل هبَّات النسيم أصواتُ أغنيات قديمة خافتة. بينما يُحدِّقون إليه جميعًا احتوى الشريط واحدًا من خراف ڤاند البعيدة، وفي الحال تلوَّن صوفه باللون الذهبي الخالص الذي يُوصَف في الحكايات القديمة. وواصل الشريط اللامع تقدُّمه حتى اختفى الخروف تمامًا. الآن رأوا أن ذلك الشريط في ارتفاع ضبابٍ يعلو جدولًا صغيرًا، وما يزال ڤاند يُحدِّق إليه عاجزًا عن الحركة والتفكير. لكن نيڤ استدار بسرعة وأمر زيند أن يتبعه، وأمسك بذراع ألڤيرك يبتعد به نحو إيرل. لكن الشريط اللامع، الذي بدا وكأنه يتعثر بنتوءات حقول الأرض الخشنة، لم يكن بالسرعة التي يتحركون بها. ومع ذلك فإنه لم يتوقف قط عند استراحتهم، ولم يتعب قط عندما نال منهم الإعياء؛ بل واصل مروره بالتلال وسياجات الحقول، ولم يُبدِّل غروب الشمس مظهره أو يكبح سرعته.

***

الفصل الرابع والثلاثون

التعويذة الرونيَّة الرئيسة الأخيرة

بينما يقود ألفيرك اثنان من المجانين إلى تلك الأراضي التي كان سيدًا عليها منذ فترة طويلة، كانت أبواق الأرض السحرية تُدوِّي في إيرل طوال الوقت. وعلى الرغم من أن أورايون فقط من سمع دويَّها فإنها أثارت الهواء وغمرته بموسيقاها الذهبية العجيبة. وأضفت على النهار رونقًا أدهش الأهالي، حتى إن عديدًا من الفتيات اليافعات تطلعن من النوافذ يتساءلن عن روعة ذلك الصباح. لكن مع مرور النهار تضاءلت الدهشة التي أحدثتها الموسيقى غير المسموعة، وحلَّ محلها شعور أثقل جميع الأهالي في إيرل، إذ بدا أنه ينذر باقتراب شيء عجيب مجهول.

لقد سمع أورايون تلك الأبواق تُدوِّي في جميع المساءات، باستثناء تلك الأيام التي أساء فيها التصرف. هكذا أصبح يعلم أنه إن سمعها مساءً فإنها مسرورة منه. لكنها الآن تدوِّي في الصباح، واستمر دويُّها طوال النهار مثل استعراضٍ موسيقي يتقدم موكبًا. نظر أورايون عبر

نافذته لكنه لم يرَ شيئًا، واستمر دويُّ الأبواق يعلن شيئًا يجهله أورايون. لقد اجتذب ذلك الصوت أفكاره بعيدًا عن اهتمامات البشر، بعيدًا عن كل ما يلقي بالظلال. في ذلك اليوم لم يتحدث إلى أي إنسان، بل ذهب إلى الترول والكائنات السحرية التي تبعتهم عبر الحدود. ومن رأوه من الأهالي يومئذٍ لحظوا في عينيه ما يدلُّ على أن أفكاره بعيدة في عوالم يخشونها. وقد كانت أفكاره حقًّا بعيدة؛ كانت مع أمه. وكانت أفكار أمه معه، تغدق عليه حنانًا حرمتها من منحه السنوات، التي مرَّت سريعًا في أرضنا على نحو لم تفهمه قط. وقد شعر أورايون، بطريقة ما، أن أمه اقتربت منه.

طوال ذلك الصباح الغريب تململت الأشباح المضيئة وقفز الترول قفزًا محمومًا في مأواهم، لأن أبواق الأرض السحرية صبغت الهواء بالسحر وأثارت حماسهم رغم أنهم لم يستطيعوا سماعها. لكن مع اقتراب الغروب شعروا أن تغييرًا كبيرًا وشيك الحدوث، فانتابتهم الكآبة ولزموا الصمت. جعلهم شيء ما يشتاقون إلى موطنهم السحري البعيد، كما لو أن نسيمًا هبَّ من بحيرات الأرض السحرية وضرب وجوههم فجأة. فخرجوا إلى الطرقات يذرعونها بحثًا عن شيء سحري، يُلطِّف وحدتهم وسط الكائنات الدنيوية. لكنهم لم يعثروا على شيء يشبه الزنابق التي أوجدتها التعويذات، وتزينت بها البحيرات السحرية الخضراء الزاهية.

لقد رآهم أهل القرية في كل مكان، وتاقوا إلى أيام الأرض الخوالي التي سبقت قدوم السحر إلى إيرل. وأسرع بعضهم إلى الكاهن في المكان المُقدَّس، يحتمون بين أغراضه المقدسة من جميع الأطياف التي تملأ طرقات قريتهم، والسحر العالق في الهواء. وقد حرسهم الكاهن بإطلاق لعناته التي أبعدت الأشباح المضيئة الجوَّالة وأرهبت الترول، لكنهم ركضوا بعيدًا قليلًا، ثم واصلوا المرح الصاخب. وبينما تلك

الجماعة الصغيرة من الأهالي حول الكاهن، تبحث عن الحماية من شيء وشيك الحدوث يَزيد الأجواء توترًا وقتامة مع مرور النهار القصير، ذهب آخرون إلى نارل وكبار إيرل ليقولوا: «انظروا إلام أدَّت خططكم. انظروا ماذا جررتم على القرية».

ولم يمنحهم كبار القرية جوابًا مباشرًا، بل قالوا إن عليهم التشاور لأنهم يثقون كثيرًا بجدوى المناقشات التي تُدار في اجتماعات البرلمان. ولهذا قرروا الاجتماع مجددًا في ورشة نارل. كان المساء يتقدم، لكن الشمس لم تغرب بعد ولم يُنهِ نارل عمله. وبدأت النيران في ورشته تتوهج بلون داكن والظلال حولها. ثم جاء الرجال يسيرون ببطء والجدية تعلو وجوههم، في محاولة لإخفاء شعورهم بالخيبة عن أعين القرويين، وخوفًا من السحر الجسيم العالق في الهواء الذي ينذر بالسوء. لقد اجتمعوا في تلك الغرفة الداخلية إذ الشمس تغرب وأبواق الأرض السحرية، التي لا يسمعونها، تُدوِّي عاليًا انتصارًا. هناك جلسوا في صمت، فماذا يمكنهم أن يقولوا؟ لقد تمنوا السحر وقد أتاهم. ملأ الترولُ الطرقات، ودخلت العفاريت البيوت، وأزعجت الأشباح المضيئة الليل؛ وأثقل الهواء سحرٌ غامض. ماذا يمكنهم أن يقولوا؟

بعد مضي بعض الوقت قال نارل إن عليهم وضع خطة جديدة. لقد عاشوا حياة هادئة، لكن الآن انتشرت الكائنات السحرية في جميع أنحاء إيرل، وفي كل ليلة يأتي مزيدٌ منها من الأرض السحرية؛ إلام ستصير حياتهم إن لم يضعوا خطة؟

وقد مدَّتهم كلمات نارل بالشجاعة، رغم أنهم شعروا بوعيد الأبواق التي لا يسمعونها. لكن الحديث عن الخطط شجَّعهم، فقد رأوا أنهم يستطيعون التخطيط مناهضةً للسحر. ونهضوا واحدًا تلو الآخر يتحدثون عن خطة جديدة.

لكنهم عند غروب الشمس سكتوا عن الكلام، وتعاظم شعورهم باقتراب الخطر حتى أصبحوا يرونه حقيقة مؤكدة. لقد أدرك أوث وثريل هذه الحقيقة أولًا لأنهما أَلِفا الغموض في الغابة. الآن تأكد الجميع أن شيئًا ما قادم، لكنهم لم يعرفوا ماذا يكون. وجلسوا صامتين يتساءلون في الظلام.

كان لورولو أول من رأى الشيء القادم. لقد ظلَّ طوال اليوم يتخيل البحيرات الخضراء الزاهية في الأرض السحرية، ولمَّا سئِم الأرض صعد وحيدًا إلى قمة برج عالٍ من أبراج قلعة إيرل، وجلس على سور شرفة ينظر حزينًا جهة موطنه. وبينما يتطلع إلى الحقول التي نعرفها رأى الشريط اللامع يتقدم نحو إيرل. وبينما يهتز في حركته سمع لورولو همهمة أغنيات قديمة تصدر منه. لقد جلب ذلك الشريط اللامع معه ذكريات منسيَّة وموسيقى قديمة وأصواتًا مفقودة، يعيدها إلى أرضنا بعدما سلبها منها الزمان. كان يقترب مضيئًا مثل نجم المساء، ويومض بألوان مختلفة: بعضها موجود في الأرض، وبعضها الآخر يغيب عن قوس قزح. فأدرك لورولو في الحال أن القادم هو حاجز الأرض السحرية. وعند مرأى موطنه الرائع استعاد وقاحته وأطلق ضحكات مرحة من موقعه العالي، رنَّت على الأسطح أسفله مثل زقزقة الطيور. ابتهج الترول المشتاقون إلى موطنهم عند سماع ضحكاته رغم أنهم لا يعلمون سببها. والآن سمع أورايون دويَّ الأبواق أكثر علوًّا وقربًا. بدا في نغماتها الانتصار والأبهة، وفي الوقت نفسه تضمنت حزنًا شديدًا. فعلم لماذا تُنفَخ، علم أنها تعلن اقتراب أميرة من سلالة سحرية، علم أن والدته عادت إليه.

وعلى تلِّها العالي علمت زيروندرِل بالأمر نفسه إذ نبَّهتها له قدرتها السحرية. نظرت إلى الأسفل فرأت الشريط اللامع مثل النجوم، الذي

امتزجت فيه أشفاقٌ من أمسيات صيفية قديمة فائتة، يجتاح الحقول باتجاه إيرل. كادت تتفاجأ وهي تنظر إلى هذا الحاجز المتلألئ يغمر المراعي الأرضية، رغم أن حكمتها قد أخبرتها أنه لا بُدَّ آتٍ. وبينما هي واقفة تنظر من الأعلى، رأت ناحية الحقول التي نعرفها الأشياء المعتادة. وفي الناحية الأخرى خلف الحاجز المُلوَّن رأت أوراق الأشجار الخضراء الزاهية والزهور العجيبة، والأشياء التي لا يأتي بها إلهامٌ أو هذيان إلى الأرض، والمخلوقات الخرافية التي تعيش في الأرض السحرية، تتقدم إلى الأمام. ورأت سيدتها تخطو عبر حقولنا جالبةً الأرض السحرية معها، والضوء ينساب من يديها اللتين انبسطتا قليلًا؛ لقد عادت الأميرة ليرازِل إلى مملكتها. عندما رأت زيروندرِل هذا المنظر، ومع تدفُّق العجائب إلى أرضنا، برفقة الذكريات الماضية والأغنيات القديمة التي تتقدم الشَّفق، شعرت بفرح غريب وبكت كما تبكي الساحرات.

والآن، من نوافذ البيوت العليا، استطاع الأهالي أن يروا ذلك الشريط المتلألئ الذي لم يكن شفقًا أرضيًّا. أولًا رأوا ضوءه يومض، ثم لحظوا أنه يتقدم نحوهم. تحرَّك الحاجز ببطء يهتزُّ وهو يقطع الأرض الخشنة، رغم أنه فاق الشُّهب سرعةً عند انزياحه عن الأرض. لكن الأهالي لم يفزعوا منه لأنهم وجدوا قبالتهم أشياء مألوفة. لقد سبقت ذكرياتهم القديمة ذلك الحاجز مثل النسائم، وهبَّت على قلوبهم وبيوتهم. فجأة أصبحوا يعيشون مرة أخرى بين أشياء ماضية فقدوها. وبينما ذلك الشريط ذو الضوء العجيب يواصل اقترابه سمع الأهالي صوتًا خافتًا رقيقًا، كأنه وقعُ المطر على أوراق الأشجار، وتنهدات قديمة تُزفَر مجددًا، وهمسات عشاق قدامى يُباح بها من جديد. وقف أولئك الأهالي عند نوافذهم يتطلعون بحنين وأسى إلى الزمان الفائت، مثل أشجار كبيرة في حدائق عتيقة رحل عنها من اعتنوا بورودها أو استظلوا بظلها.

لم يكن ذلك الشريط المؤلَّف من الضوء اللامع وذكريات الماضي قد بلغ أسوار إيرل أو بيوتها بعد، لكنه بدا قريبًا جدًّا الآن حتى تلاشى انشغال الأهالي بالمهام اليومية التي تأسر البشر في الحاضر. وشعروا ببلسم الماضي ولمسات حنون من أيادٍ ذبلت منذ زمن طويل.

الآن ركض الآباء والأمهات إلى الطرقات حيث يلهو الأطفال بقفز الحبل، كي يُدخِلوهم البيوت دون أن يُفسِّروا لهم ما يحدث حتى لا يخافوا. للحظات تفاجأ الأطفال برؤية القلق في وجوه أمهاتهم. ثم نظر بعضهم إلى الشرق ورأوا الشريط اللامع فقالوا: «إن الأرض السحرية قادمة»، وواصلوا قفز الحبل.

وقد أدركت كلاب الصيد شيئًا، لكنني لا أدري ما الذي أدركته بالضبط. لقد تأثرت باقتراب الأرض السحرية مثلما يحدث عند اكتمال القمر. وشرعت في النباح مثلما تفعل في الليالي الصافية عندما يغمر ضوء القمر الحقول. أمَّا الكلاب التي تعكف على مراقبة الطرقات خشية أن يمرَّ غريب فقد أدركت أن شيئًا غريبًا مهيبًا يقترب، وأذاعت النبأ في الوادي كله.

وبينما الدبَّاغ العجوز ينظر عبر نافذة كوخه ليرى إن كانت بئره تجمَّدت، رأى واحدًا من صباحات مايو قبل خمسين عامًا وزوجته تجمع زهور الليلك، لأن الأرض السحرية قد طردت الزمان بعيدًا عن حديقته.

والآن غادرت الغربان أبراج إيرل وحلقت بعيدًا نحو الغرب، وملأ الهواء نباح كلاب الصيد والكلاب العادية. ثم توقف النباح فجأة، وغشي القرية صمت مطبق كأن ثلجًا كثيفًا قد تساقط عليها. وخلال ذلك الصمت سُمِعت موسيقى قديمة غريبة، ولم ينطق أحد بكلمة.

وحيث جلست زيروندیرل عند باب كوخها يستند ذقنها إلى يدها، رأت الشريط اللامع يلامس البيوت ويتوقف. لحظت أنه انساب على جانبيها،

لكنه توقف أمام البيوت وكأنه قابل شيئًا بالغ القوة يفوق سحره. لكن البيوت لم تستطع إعاقة ذلك المدِّ الرائع سوى لحظات فقط. ثم تخطَّاها وكأنه زَبَد غير أرضي، وكأنه شهابٌ من معدن مجهول يعبر السماء. ثم واصل تقدمه تاركًا البيوت جميلة وعتيقة الطراز ومسحورة، وكأنها منازل استُحضِرت من عصرٍ بعيد إذ استيقظت فجأةً ذكرى متوارثة.

ثم رأت الساحرة الصبي الذي ربَّته يتقدم نحو الشَّفق، تجتذبه قوةٌ تضاهي في شدتها تلك القوة التي تُحرِّك الأرض السحرية. رأته هو وأمه يلتقيان مجددًا وسط الضوء الذي يغمر الوادي بالبهاء. وكان ألڤيرك معها، بعيدين قليلًا عن الكائنات الخرافية التي رافقتها في الطريق من أودية جبال الأرض السحرية. وقد سقط عن كاهل ألڤيرك عبء السنوات الثقيل ومأساة الترحال. لقد عاد إلى أيام الأغنيات القديمة والأصوات المفقودة الخاصة به. ولم تستطع زيروندرِل رؤية دموع الأميرة عندما قابلت أورايون بعدما فرَّقهما المكان والزمان. فعلى الرغم من أن دموع ليرازِل تتلألأ مثل النجوم فإنها قد وقفت عند الحاجز وسط الضوء الوامض، الذي أشرق عليها مثل كوكب ساطع. على أن أذني العجوز الواهنتين قد سمعتا بوضوح أصوات الأغنيات التي عادت إلى أرضنا من أودية الأرض السحرية، حيث مكثت طويلًا بعدما ضاعت من غرف أطفال البشر. والآن كانت تُغنَّى حول ليرازِل وأورايون.

وقد تخلَّص نيڤ وزيند من خيالاتهما المُفرِطة أخيرًا، لأن أفكارهما الجامحة سكنت في هدوء الأرض السحرية، ونامت مثلما تنام الصقور على أشجارها عندما يهدهد المساءُ العالم. رأتهما زيروندرِل يقفان معًا حيث كانت حافة التلال، بعيدين قليلًا عن ألڤيرك. ووقف ڤاند بين خرافه الذهبية، التي كانت تمضغ عصارة حلوة غريبة من الزهور العجيبة.

مع هذه العجائب جاءت ليرازِل من أجل ابنها وأحضرت معها الأرض السحرية، التي لم تقترب قيد أنملة من حدود الأرض من قبل قط. لقد التقيا في حديقة ورود قديمة أسفل أبراج إيرل، حيث اعتادت ليرازِل التمشية، ولم يعد يعتني بها أحد منذ رحيلها. لقد انتشرت الحشائش الطويلة في مناحيها، التي ذبلت بدورها في برد نوفمبر القارس. وطئ أورايون سيقانها الجافة فخشخشت أسفل قدميه، ثم تأرجحت خلفه تفترش مسارات مُهمَلة. لكن أمامه ازدهرت الورود الضخمة العجيبة ذات السحر والبهاء الصيفي. وبين نوفمبر الذي تطرده ليرازِل بعيدًا وموسم الورود القديم الذي أعادته إلى حديقتها التقت أورايون. للحظات ظلَّت الحديقة خلفه بُنِّية ذابلة، ثم أخذت في الازدهار، وغرَّدت الطيور على مئات الأشجار ترحيبًا بعودة الورود القديمة. وعاد أورايون إلى تلك الأيام ذات البهجة والإشراق التي احتفظت ذاكرته بصورها الغامضة، مثلها مثل جميع نفائس البشر، لكن الخزانة التي تحتوي عليها مُقفَلة ولا نملكُ مفتاحها. ثم ضمَّت الأرض السحرية وادي إيرل إليها.

وحده المكان المُقدَّس حيث يعيش الكاهن وحديقته بقيا ضمن بقاع أرضنا. شابهت تلك البقعة جزيرة صغيرة محاطة بالعجائب، أو قمة جبلية وحيدة في الهواء، يرتفع حولها ضباب كثيف من أودية التلال، ليترك ذروة واحدة قاتمة تُحدِّق إلى النجوم. لقد أبعد قرعُ جرسه التعويذة الرونيَّة الرئيسة وحاجز الشَّفق عن المكان المُقدَّس مسافةً صغيرة. هناك أمضى الكاهن حياته سعيدًا راضيًا بين أغراضه المقدسة. ولم يكن وحيدًا تمامًا، لأن القلَّة من الأهالي الذين ابتعدوا عن ذلك المدِّ السحري عاشوا في تلك الجزيرة المقدسة وتولُّوا خدمته. وقد عاش الكاهن طويلًا حتى فاق سنُّه معظم البشر، لكنه ظلَّ فانيًا.

لم يعبر أحدٌ حاجز الشَّفق قط سوى الساحرة زيروندرِل؛ كانت تغادر تلَّها الواقع في الجهة الأرضية من الحاجز، وتطير بالمكنسة في الليالي المرصعة بالنجوم لتزور سيدتها، حيث عاشت مع ألڤيرك وأورايون لا يقلقهم الزمان. ومن هناك تعود على مكنستها ليلًا، لا يراها أحد في الحقول الأرضية ما لم يلحظ مصادفةً أن النجوم تنطفئ لحظةً وهي تمرُّ بها. وتجلس بجوار باب الكوخ تحكي حكايات غريبة لمن يهتمون بأخبار عجائب الأرض السحرية. لعلِّي أستمع إليها مرة أخرى!

وبعدما أطلق الملكُ الساحر التعويذة الرونيَّة الرئيسة الأخيرة إلى العالم، وشهد سعادة ابنته، جلس على عرشه الضخم يتنسَّم الهدوء الذي يبثُّه في الأرض السحرية. وتنعمت مملكته بالسكينة الأبدية، التي قد نرى مسحة منها في البركات الخضراء الداكنة في الصيف. وقد تنعمت مملكة إيرل بتلك السكينة مثلها مثل باقي الأرض السحرية، هكذا سقطت من ذاكرة البشر. لقد نظر الرجال الاثنا عشر (مُمثِّلوا برلمان إيرل) عبر نافذة تلك الغرفة الداخلية، حيث وضعوا خططهم في ورشة نارل، وبينما يُحدِّقون إلى واديهم المألوف أدركوا أنه لم يعد جزءًا من الأرض التي نعرفها.

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

إهداء المترجمة

إلى الفريدة والسارَّة؛ أمي وشقيقتي

ابنة ملك الأرض السحرية

«تُشبِه هذه الرواية شرابًا فاخرًا قد تفاجئك قوَّة نكهته بعدما اعتدتَ تناول المياه الغازية. لهذا ثِقْ بجمال هذا الكتاب. ثِقْ بقوَّة الشِّعر والخيال وسحر الحبر، وارتشفه بتمهُّل».

- نيل جايمان

قبل زمن بعيد في وادٍ إنجليزيٍّ صغير يُدعى «إيرل» يجتمع رجال البرلمان بحاكمهم. لقد تولّى أمرهم حكّام من البشر يصدح المُنشِدون الجوّالة بآثارهم التي تُخلِّدها أغنياتهم الرنّانة، لكن الأجيال تتوالى ولا جديد تحت الشمس. لهذا يطلبون حاكمًا من سلالة سحرية. يستجيب الحاكم لهم، ويأمر ابنه ألڤيرك بالذهاب إلى «الأرض السحرية» كي يتزوج الأميرة ليرازِل ابنة ملكها. لا يضيع ألڤيرك وقتًا وينطلق في رحلة إلى الحدود، التي تقع وراءها أرض نسمع بها في الأغنيات فقط. بعدما يعبر حاجز الشَّفق ويجتاز الغابة المسحورة ويقاتل فرسان حرس الملك يعود إلى الأرض برفقة الحسناء ليرازِل ويتزوَّجان. وعلى الرغم من أن رابط الحب الذي يجمع بينهما قويٌّ فإن زواجهما يواجه التحديات، وتنجح التعويذة الرونيَّة التي يلقيها ملك الأرض السحرية في إبعاد ليرازِل عن زوجها وابنها. فيشرع ألڤيرك مفطور القلب في مهمة مستحيلة لاستعادة حبه، ويتعلم رجال برلمان مملكة «إيرل» الاحتراس ممَّا يتمنَّون.

غلاف: محمود هشام

مكتبة
t.me/soramnqraa

عصير الكتب
www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb